## حقوق شعب فلسطين
## بين الثورة والحل السلمي

أيا كانت ظروف الأنظمة التي وافقت على المقترحات الأميركية ، وعلى الرغم من توفر حسن النية لدى هذه الأنظمة فان مسألة الحل السلمي ليست بالبساطة التي يراد فرضها على الجمهور العربي : « استرداد مناطق محتلة وتأمين حقوق شعب فلسطين ! ألا يبدو هذا مثاليا ؟! »

القضية العربية ، أو « القضية الفلسطينية » لم تكن يوماً مجرد خلاف على الحدود أو على مساحات معينة مع اسرائيل يدخل فيها حساب الربح والخسارة . إذ لا مجال لحصول خسارة اسرائيلية مهمة على صعيد الكم ، بل على صعيد الأسس والمرتكزات . وبما أن الحل السلمي يعترف لاسرائيل بحدود آمنة وحقوق في المنطقة فهو يدعم أسس الوجود الاسرائيلي . ولا يضير اسرائيل بعد ذلك أن تنسحب من المناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ لا سيما ان هذه المناطق ظلت عامرة بالسكان ، وهي تشكل جيوباً ثورية أو قابلة للتثوير ، ويمكن لها متى ثوّرت أن تزعزع الوجود الاسرائيلي من الداخل .



أما « حقوق شعب فلسطين » هذه العبارة الغامضة التي لم يحدد مضمونها بعد فلا يمكن في الظروف الراهنة ، أن تجيء لشعب فلسطين بحل يرضى عنه . إذ أننا لو جارينا المتفائلين واعتبرنا أنها تعني العودة لما رأينا فيها نصراً عربياً . ذلك أن عودة تجيء بها مفاوضات تحتل فيها اسرائيل موقع القوة لن تعني أكثر من تحول مراكز وكالة الغوث الى الأرض المحتلة ، بعيداً عما تعنيه كلمة حقوق من استئناف التفاعل الطبيعي مع البيئة واستعادة السيادة على المصير والاسهام في التوجيه والتخطيط اقتصادياً وسياسياً وثقافياً ، في مناخ من الحرية وتكافؤ الفرص . ووضع الفلسطينيين تحت الاحتلال خير دليل .

حقوق شعب فلسطين تكتسبها له ثورته ، لأن الثورات وحدها تكسب للشعوب حقوقاً . والحل السلمي اعتداء على الحق الأولي البديهي لهذا الشعب المنفي المستغل داخل أرضه وخارجها ، وأعني الحق بالثورة . ذلك ان الحل السلمي يعجّل التناقض بين الأنظمة والثورة ؛ بل يبدو عملية التفاف على الثورة الفلسطينية قبل أن يشتد ساعدها ، قطعاً للطريق على الثورة العربية . والثورة الفلسطينية — مهما قيل في انقساماتها وأخطائها — فضلاً عن كونها حقاً أساسياً من حقوق شعب فلسطين ، هي أول نصر شعبي وأعظم تحرك في تاريخنا الحديث ؛ ومرد ذلك الى كونها أول مبادرة شعبية ، أول تحرك جماهيري حقيقي ؛ لم تقم بها الزعامات ولا الأنظمة ولا البيروقراطية العسكرية . انها

بالفعل حركة صاعدة من القاعدة سائرة في اتجاه الجـــذور . لأول مرة تتحرك القاعدة لتبني مصيرها . وقبول الأنظمة بالحل السلمي محاولة لانتزاع المبادرة من يد الشعب ، عدم ثقة بحدسه وإمكاناته ، واستمرار في فرض الابوة عليه .

والثورة الفلسطينية ، لا سيا اجنحتها اليسارية ،تعيد النظر في كل شيء بدءاً من الجذور ؛ بينما تتهرب حتى الانظمة التقدمية من الحلول الجذرية . هكـــذا ترضى الانظمة بالحل السلمي الذي هو محاولة لتلطيف التناقض بين القضية العربية والتحالف الامبريالي – الصهيوني ، بينما ترفض الثورة الفلسطينية ذلك وترى انه تناقض جذري ، وبالتالي مصيري لا يمكن حـــله إلا بالعنف ، وان كل تلطيف لهذا التناقض أو تأجيل لانفجاره لن يكون في صالح الشعب العربي . واذا كان الحـل السلمي يجزىء القضية الفلسطينية الى حصص وأسهم بعضها مساحات ، بعضها امتيازات ، بعضها خدمات وأموال ، ويوزع هذه الاسهم على اسرائيـل والامبريالية العالمية والرجعية العربية والانظمة التقدمية ولا ينسى الفلسطينيين من بقية ، فان الثورة الفلسطينية ، بنظرها الجذوري هذا ، لا تجزىء هـــذه القضية ، وهي بالتالي لا تجزىء المعركة ، وترى ان معركتها هي في آن واحد مع الفاشية الصهيونية والامبريالية الاميركية والرجعية العربية والتخلف العربي .



والثورة الفلسطينية – مهما بدا من اقدميتها للناظر غير المتعمق – طريـق الوحدة العربية ، بما هي نواة للثورة العربية وحرب على اسرائيل والاستغلال الامبريالي وسياستها « فرق تسد » . ولسوف تبدو الوحدة العربية بعيدة بعيدة في ظل الحل السلمي واتفاقياته التي تصون أمن اسرائيل . لأن اسرائيل ستعتبر كل بادرة توحد تهديداً لأمنها .

الثورة الفلسطينية مناخ افتقدته حياتنا الغارقة في فراغ الكلام والعقلية السحرية التي تنتظر المعجزات (الالهية أو الدولية) ،مناخ جديد من اندماج النظر والفعل في إطار من النظام والتحرك الجماعي ، مناخ من التصميم والمغامرة والنقد والنقض والبحث والكشف واستنفـــار الطاقات المعلقة ، الثورة الفلسطينية حقنة من الحياة في الدم العربي ، والحل السلمي باعتدائه على هذا الحق الفلسطيني يفوت على العرب جميعاً فرصة نادرة .

الامبريالية واسرائيل تدركان ذلك وكما تحركتا عام ١٩٥٦ لحماية المصالـح الامبريالية تحركتا عام ١٩٦٧ ثم عام ١٩٧٠ للقضاء على هـــذا التحرك الثوري ظاهرة الصحة في الجسم العربي المريض .

خالدة سعيد

# النظام والثورة

*** قلت مرة ان حرب الخامس من حزيران لم تكن الا انفجارا داخل الحل السلمي . ان هذا القول يكتسب الان معنى خاصا ويكشف عن أبعاد كثيرة ..**

ـ تعرف الانظمة جيدا انه ما دامت احتمالات الصدام مع اسرائيل قائمة ، فان الفرصة أكبر أمام اليقظة الشعبية ، لتنمو باستمرار وتضغط باتجاه اجراء تغييرات لا تستطيع الانظمة القيام بها لانها تمس مصالح الطبقة المسيطرة فيها . والقول بتحرير فلسطين يعني أن تلتزم الانظمة بثورة حقيقية ، ثورة تتسلم فيها الجماهير قضيتها ، ثورة في الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ثورة في الفكر وفي التنظيم . ولما كانت الانظمة غير مؤهلة للقيام بثورة من هذا النوع ، كان لا بد لها من أن تختار الطريق الاخر ، طريق المساومة والاستسلام . وهكذا فموقف الانظمة العربية من اسرائيل ، حدده تخوف الانظمة من الثورة العربية .

التفكير الرجعي يحاول أن يقلب الصورة ، أن يقول ان الانظمة تضطر أحيانا لمحاربة الثورة لانها تريد أن تتفرغ لمحاربة اسرائيل .

ولكن من الذي يصدق اليوم مثل هذا الكلام ، خصوصا بعد أن انكشفت في ٥ حزيران حقيقة جدية الانظمة العربية في الاستعداد للحرب . لقد كانت الانظمة العربية في حالة سلم مع اسرائيل من قبل الخامس من حزيران ، وهي الان في وضع المسالم من الناحية العملية . « وسلمية » هذه الانظمة ليست قائمة في أقوالها ومساعيها الدبلوماسية الصريحة في هذا الشأن فحسب ، بل قائمة كذلك في عدم ارتباطها منذ قيامها بفكرة الاعداد للحرب . هكذا قلت وأقول ان حرب الخامس من حزيران لم تكن في الحقيقة الا انفجارا داخل سياسة الحل السلمي التي كانت موجودة قبله واستمرت موجودة بعده .

*** الحل السلمي ، بهذا المعنى ، موجود كفكرة أو كمبدأ منذ الاصل ...**

ـ طبعا . فبالاصل ، لم يكن عند الانظمة العربية أي اعتراض على وجود اسرائيل . كانت تتكلم على تطبيق مقررات الامم المتحدة . وكانت تتكلم على حقوق شعب فلسطين ، وعندما كانت تتطرف كانت تتكلم على صعوبة التعايش مع اسرائيل . وما حصل هو أن هذه الانظمة لم تستطع أن تسيطر على جميع عناصر الموقف أثناء احدى عمليات الكر والفر السياسية ، فكان الاصطدام في الخامس من حزيران ، الذي لم تكن تريده ، والذي لم تعد له القوة في يوم من الايـــام .

لذلك من الخطأ النظر الى الحل السلمي على أنه اتفاقية قد توقع وقد لا توقع ، وورقة قد تأتي من واشنطن أو موسكو أو لا تأتي . فالحل السلمي حقيقة قائمة . ونقيضها ، والمعبر عن مقاومة الشعب العربي لها هو العمل الفدائي والحركة الشعبية في الوطن العربي . وليس نقيضا لها ولا خروجا منها حتى تلك الحروب الانية والفاشلة بطبيعة الحال ـ التي قد تضطر الانظمة الى خوضها أحيانا . اننا داخل الحل السلمي لا خارجه ، وهو متمثل في سياسة الانظمة وتركيبها ، والوصف الدقيقللمهمة في هذه المرحلة هو العمل على الخروج من الحل السلمي لا عدم الدخول فيه . والثوري الحقيقي في هذا الظرف لا غنى له عن فهم هذه الحقيقة .. والا استطاعت الانظمة أن تضلله وتسلمه الى هزيمة اخرى عن طريق اخراجه من منطق الثورة وادخاله في أوهام الحروب والحلول السياسية المرتقبة .



لقد اعتبرت الحكومات التي جاءت بعد ١٩٤٨ أن الخلاف بينها وبـين اسرائيل هو خلاف على حقوق اللاجئين وعلى حدود دولـــة العدو ، وأوهمت الجماهير أنه بالامكان قيام استقلالات عربية كاملة مع القبول باستمرار الوجود الاسرائيلي . والحقيقة ان الامبراطورية الاستعمارية ـ الصهيونية ، هي واقع يحكم المنطقة منذ قيام اسرائيل . اذ كان يكفيها أن تكون في حيفا ويافا والناصرة بل يكفها أن يكون لها وجود مقبول به على شبر واحد من الارض العربية حتى لا تكون في أية بقعة من الوطن العربي حرية وكرامة ، وحتى يكون كل مكتسب عبثا وكل استقلال تزويرا وكل وحدة خدعة . اذ عند ذاك يصبح كل قــــرار سياسي أو غير سياسي يتخذه أي حاكم عربي متكيفا بالارادة الاسرائيلية مراعيا بالدرجة الاولى عدم اغضاب العدو وعدم الاصطدام به .

ولقد كانت هذه هي الحال في طول الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ بل كانت أيضا مستمرة بعد ١٩٦٧ .

واذا عدنا الى تاريخ ولادة العمل الفدائي ، أي الى ما قبل عام ١٩٦٧ ، أدركنا ان معنى هذه الولادةهو الثورة على حالة سلمية قائمة تمارسها جميـع الانظمة ، واسرائيل فيما هي الطرف المراعَى والمتحكِّم .

وأدركنا كذلك ان العمل الفدائي قد تضمن منذ البدء ادانة ضمنية لكل الانظمة العربية بقبول التعايش مع اسرائيل ، وتصوير التطور الكاذب الذي كانت تشهده المنطقة العربية في ظل هذا التعايش بانه تقدم وتحرر ، وهو في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك • واليوم تنهض اسرائيل والقوى الاستعمارية والانظمة في غزوة شرسة من أجل كسب موقع جديد لسياسة الحل السلمي القديمة والتي لم تخرج عليه الانظمة ساعة واحدة •

الانظمة تقول ، اليوم : لقد حاربنا وفشلنا • وبعضها يقول : حاربنا ولم ينجدنا باقي العرب • ولكن أي حرب هي تلك التي حاربوا ؟ يصر البعض على القول ان الانظمة العربية الحالية لن تشتبك بعد اليوم ، بأية حال ، اشتباكا مهما مع العدو الصهيوني • ويدعم قوله هذا بالاشارة الى التصريحات العلنية التي تصدر عن الحكام العرب بقبول الحل السلمي ، والى المساعي والجهود التي يبذلونها في هذا السبيل • هذا الرأي في نظري خطأ لانه يقوم على تصور خاطىء لماهية الحل السلمي • في البدء كانت الانظمة توحي للجماهير بأن اتركوا لي فلسطين ، فأنا أحررها • وعندما برز العمل الفدائي واجهت الانظمة هذا العمل بالاتهام والتجريح بل التخوين • وبعد الخامس من حزيران ، وتوجه الجماهير نحو العمل الفدائي غيرت الانظمة لهجتها : لا تناقض ، انا أعد للحرب ، وليعد شعب فلسطين للثورة • واليوم تقول هذه الانظمة : لا تناقض ، فأنا اسالم وليستمر العمل الفدائي في الثورة • ولكن الانظمة لا تعني من خلال هذا التدرج كله الا الوصول الى اليوم الذي تستطيع فيه أن تعلن انها لا تقبل لا بحروب الانظمة ولا بثورة فلسطين • لقد قال الحكام العرب ، بعد الهزيمة ، في معرض التشكي للدول الكبرى من « توسعية اسرائيل » : لم نكن نستعد للحرب ، لم نكن ننوي الحرب على اسرائيل • وبالفعل لم يكونوا يقولون الا الصدق ، هذه المرة • والاسلوب الذي حاربوا به أكبر دليل على صدقهم • فماذا يجب أن نفهم من هذا الاعلان ؟ هل نفهم منه ان الحكام العرب كانوا سذجا ، مجرد سذج ؟ اننا لو فعلنا نكون نحن السذج •



**✻ هذا كله يستدعي اعادة النظر في التحركات الثورية الماضية • فكيف تقيم ، بشكل عام ، هذه التحركات التي قامت في البلدان العربية ، خلال السنوات العشرين الاخيرة ؟**

ــ أمارة الصدق لاي سياسي أو أي مثقف أو أي تغييري في هذه المرحلة ، هي درجة تركيزه على موضع الالم الاعظم في الحياة العربية : قضية فلسطين ، الصدق ، في النهاية ، هو التعلق بالشيء المصيري • ومن الصعب علي الان أن أقوم بمراجعة لاي ناحية سياسية أو وطنية أو ثقافية بمعزل عن هذه القضية • لذلك تقفز رأسا الى ذهني الهزة التي أحدثتها سنة ١٩٤٨ في حياة العرب • كانت ، في نظري ، أول لقاء حقيقي وكلي وجذري بحضارة العصر وحقائقه • يقال كان للعرب علاقة بالغرب ، قبل ١٩٤٨ ، اقتبسوا بعض الثقافة • اصطدموا

بأطماع غربية • لكن هذا شيء وما حدث بعد ٤٨ شيء اخر • ما حدث كان مقايسة بين وجودين : العربي وغير العربي • سنة ٤٨ ، دخلت الامة العربية في مرحلة جديدة ، هي على الصعيد السياسي ، **مرحلة تشكل الانظمة** • مفهوم النظام في حدس الناس البسطاء أصبح منه على أقلام الكتاب والصحافيين وغيرهم• حين تتحدث عن النظام أمام الرجل العادي لا يخطر له أنك تقصد النظام السعودي أو الكويتي أو اللبناني • لا تتبادر الى ذهنه البلدان التي تحكمها العروش والوراثات وقوى الاقطاع ، حيث الارادات الاجنبية حرة ، وقوى المال حرة • ان كلمة نظام ترتبط ، على العكس ، في الحدس العام ، بالمحاولات والانجازات التي نشأت بعد سنة ٤٨ كرد على تلك الاوضاع • فالنظام مرتبط بالاوضاع التي نشأت بعد سنة ١٩٤٨ ، والتي تتضمن معنى الانتفاض على الموروث وعلى قوى المال والارادات الاجنبية ، أي تتضمن نشوء سلطة غير سلطة هذه الاشياء •

لنقفز الى سنة ١٩٦٧ • حين نقول : سقوط الانظمة أو فشلها ، لا يخطر في بال أحد أن قولنا هذايتناول لبنان أو الكويت أو السعودية ، وانما يتناول الاوضاع السياسية التي نشأت وطرحت نفسها كرد على الارادات الاجنبية وقوى الاقطاع والمال •

هناك بلدان عربية لم تصل بعد الى مرحلة تشكل الانظمة • أمس ، مثلا ، في ليبيا ، أمكن أن نقول ان نظاما نشأ • الاساسي الذي حدث بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ هو ولادة ما تمكن تسميته « النظام العربي الواحد » • الاشتراك في قرار وقف القتال والهزيمة خلق عند الانظمة العربية ردود فعل واحدة أمام الاحداث وغرائز ومخاوف واحدة بشكل يتيح لنا أن نقول ان هناك نظاما عربيا واحدا ، له ملامح متشابهة : الحذر من الشعب ، الازدواجية في القول والعمل ، تناقض السياسة الخارجية مع السياسة الداخلية ، الطرق المتشابهة في مواجهة الازمات والمشكلات ، عدم جدية الالتزام بالمعركة ، وربما عبادة السلطة •

وتكشف المناسبات الحاسمة أن هذه الانظمة أجنحة مختلفة في نظام واحد ، كما ظهر عندما حصل الصدام بين الحكم الاردني والعمل الفدائي • وكما ظهر في الاعتداء على العرقوب • هذا النظام العربي الواحد أفضل من بعض الانظمة العربية وأسوأ من بعضها الاخر ، لانه محصلها ، ولكنه في النهاية عدو الثورة العربية • وهو وحده القادر في النهاية على مواجهة الثورة العربية • ليس هناك الان نظام عربي يقاتل الحركة الشعبية بقواه وحدها •

لا شك أن هذا النظام العربي الواحد كان موجودا ، بشكل ما ، قبل ٦٧ • كان دائما نوعا من التنسيق الواعي أو غير الواعي ، بين الانظمة أمام الثورة العربية • وربما كانت الجامعة العربية رمزا لوجود هذا النظام الواحد • لكن الهزيمة هي التي كرست هذا النظام الواحد ، وأحلته محل حلف الانظمة • هذا لا يعني أن جميع الانظمة متساوية ، أو ليس فيها مستويات مختلفة • لكنه يعني

أن درجة التشابه بينها في الامور الاساسية كبيرة الى درجة تسمح باسقاط الفروق والمميزات ، وأن موقف الثورة اذا أردنا أن يكون حيا ، لا تقديريا أكاديميا ، يجب أن يكون بطبيعته حاسما ، أي لا يعنى كثيرا بالفروقات فيما بينها • ان وجود النظام العام حقيقة متضمنة في الموقف الذي نجده عند بعض المنظمات الفدائية من الانظمة العربية • فهي ، بصورة عامة ، لا تعير وزنا كبيرا للفروق بين هذه الانظمة •

**❋ هل ذلك نتيجة لردود فعل الانظمة تجاهها ، أم نتيجة موقف مبدئي ؟**

ــ الحقيقة أنني هنا لا أتبنى صحة هذا الموقف لدى المنظمات الفدائية • لكنني أفسره • فهو ليس ، كما أعتقد ، موقفا مبدئيا • وانما هو حكم عملي ، حاجة عملية • لكن عمليته تكشف عن حقيقة موضوعية في الانظمة •

لو سئل فيلسوف ، بالمعنى الذي حدده ماركس حين قال انتهى دور الفلاسفة ، لاجاب ان بين الانظمة العربية فروقا • ولكن عندما يسأل شخص مرتبط بحركة التغيير : هل هناك فرق ؟ تختلف المسألة •

**❋ هل تلعب الجغرافية الفعلية للمعركة ، بالنسبة الى هذه الانظمة ، دورا في اتخاذ هذا الموقف ؟ وهل للنواحي المبدئية ( الدين ، القومية ، الاقتصاد ، الخ • ) دور في ذلك ؟ أليست الثورية ، بتعبير اخر ، في ساحة المعركة أبرز منها في البلدان العربيةالبعيدة عن هذه الساحة ؟**



ــ هذه الانظمة القائمة موحدة في نظرتها الى قضية فلسطين ، فهي تتراوح بين أن تنظر الى هذه القضية على أساس أنها مشكلة سياسية يجب أن تحل ، أو على أساس أنها حرب • والحقيقة أن فلسطين ليست مشكلة سياسية ولا حربا ، وانما هي ثورة • فقضية فلسطين ليست قضية تجميع القوى العربية الموجودة ودفعها الى المعركة • انها قضية تغيير نوع هذه القوى ، بممارسة المعركة • الشيء العام هو الثورة ، والحرب هي الشيء الخاص • هذا لا يعني أن الحرب يجب ألا تكون ، بل يعني أن الحرب يجب أن تكون من الثورة أو كمرحلة من مراحلها وفي ميدان من ميادينها • ليس من قبيل الصدف أن يكون أبطال المشاريع السياسية هم أنفسهم أبطال الوعود بالحرب • ان لذلك معنى هو أن نقيض الحل السلمي ليس المناداة بالحرب ، وانما النقيض هو الانخراط في الثورة • ان أفضل ما تستطيع أن تفعله الانظمة الحالية هو أن تحارب ، أي أن تهزم • فالثورة ، وحدها ، هي القادرة على النصر •

ثمة قوى كثيرة لها مصلحة في استمرار تصور قضية فلسطين على أنها حرب لا ثورة • للاستعمار مصلحة بذلك ، لانه يريد أن يعطي تحرير فلسطين معنى الاحتلال • ولاسرائيل مصلحة بذلك ، لانها كدولة فاشية ، تقتات بجو الحرب والاستعداد لها • وللانظمة العربية كذلك مصلحة بتصوير القضية على

أنها حرب لانها هي الضحية الاكيدة للثورة ، ولانها ، باسم الاستعداد للحرب ، كثيرا ما تقضي على بذور الثورة •

ان النظام العربي الواحد ، في أقصى ما يمكن أن يعطيه ، يمكن أن يعطي حربا خاسرة يخوضها وهو يعرف مسبقا أنها خاسرة ، لان له مصلحة داخلية وسلطوية ، مستقلة عن القضية ، تفرض عليه الحرب •

**✻ ألا تعتقد أن هذه الخسارة ستؤكد الجانب الثوري وتبلوره ، خصوصا أننا لمسنا أن الحركة الفدائية كانت نتيجة لفشل الانظمة ، وادانة لها ؟**

ــ طبعا • فالتناقض حاسم ونهائي بين أنظمة أوقفت اطلاق النار فتخلت عن أي حق بادعاء الشرعية الثورية ، وتلك الطليعة من أبناء الامة العربية التي أخذت شرعيتها الثورية من كونها تحمل السلاح في وجه اسرائيل • منذ أن أوقفت الانظمة القتال وهي تحمل على ارادة القتال عند الشعب • تحمل على هذه الارادة ، باضطرارها الدائم لتبرير قرار وقف القتال ، وشرح موجباته وابراز نواحي الضعف في البيئة العربية ، والدعاية الضمنية باستحالة النصر • لم توقف الانظمة العربية القتال فحسب ، ولكنها وجهت وتوجه بعكس اتجاه القتال • لذلك ترتاح الانظمة للافكار السامة التي ينشرها الاستعمار وأعوانه ، والتي تهدف الى خلق عقلية الانهزام والاستسلام النهائي • وليس هناك ، حتى الان ، تدبير واحد اتخذته هذه الانظمة ضد فرد أو مجموعة أو هيئة روجت للانهزام ، مع أن البلاد العربية ملأى بالافراد والمجموعات والهيئات التي تحترف هذه المهمة وتعتاش منها • وتكاد ، نتيجة للجو العام الذي باشرته وسمحت به ، أن تتولد قناعة لدى أوساط واسعة من الشعب هي أن الاجبن هو الاحكم ، وأن الاكثر تفريطا هو الاكثر سدادا • ومن حقي كلبناني أن أشير الى هذه الحال وأنا أسمع حكومتي تهنىء نفسها بانجاز عدم الاشتراك في الحرب •

**✻ اذا كان النظام الواحد يعرف أن الحرب خاسرة ، أفلا يعني هذا أنه يحاول بالفعل قتل الثورة ، وأنه يتجنب الحرب ، ويكتفي بخوضها كلاميا ؟**

ــ طبعا • فالاختيار الاول عند هذه الانظمة هو تجنب الحرب • والاختيار الثاني هو الاقدام عليها • لكن المهم هو مقاومة نمو الثورة • فعندما تقتضي مصلحة مقاومة الثورة الاقدام على الحرب ، لا تتردد هذه الانظمة في خوضها • ولكن يبقى الخبز اليومي لكل نظام عربي : المعارك المزيفة التي يصطنعها لحماية المصالح والمؤسسات التي يمثلها • ولو اتخذنا لبنان مثلا ، لبرزت أمامنا التناقضات المصطنعة بين العسكري والمدني ، والمسلم والمسيحي ، واللبناني والفلسطيني • وهذه المعارك المزيفة ، وان كان لبنان مسرحا لها ، انما هي في جزئها الاكبر امتداد لعقلية النظام العربي كله ، وتنفيذ لارادته ، وانسجام مع تركيبه •

فليست المعركة بين العسكري والمدني ، المجردة عن المحتوى الاجتماعي ، الا ممارسة مألوفة تباشرها الانظمة العربية داخل أقطارها بل في علاقاتها بعضها ببعض وغايتها منها المحافظة على البقاء والاستمرار • وليست المعركة بين الطوائف الا المعركة المفتعلة نفسها في كل مكان من الوطن العربي ، معركة الانقسام العشائري أو الاقليمي أو العنصري • وليس التناقض بين اللبناني والفلسطيني الا التناقض الذي تخلفه نظرة النظام العربي العام الى القطرية نفسها وعلى الاخص القطرية الفلسطينية •

*** يمكن ، اذن ، وصف النظام اللبناني بأنه ليس أكثر من تطبيق خاص لنظرة ما تسميه النظام العربي ••**

ـ هذا صحيح • وهو ما توضحه المعارك المزيفة • ونحن اذ نعرض لبعض المعارك التي تثار في لبنان بقصد لجم الحركة الشعبية وتمييعها وحرفها ، انما ندرس في الواقع ظواهر أوسع رقعة من نطاق النظام اللبناني ، ندرس على وجه التحديد التطبيق اللبناني لنظرة النظام العربي العامة •

المعركة المزيفة الاولى هي المعركة بين الانقلاب العسكري والديمقراطية المتخلفة • والحقيقة ان لا معركة فعلية بين الاثنين ، اذ كلاهما سد في وجه الديمقراطية والثورة • فالانقلاب العسكري ينسب لنفسه انه يحارب الديمقراطية المتخلفة ، لا الديمقراطية ، وهو في الحقيقة يحارب الديمقراطية ويهيء نفسه على أنه أمام ديمقراطية متخلفة ، والديمقراطية المتخلفة تنسب لنفسها انها ضد الانقلاب العسكري لا التغيير الثوري ، ولكنها في الحقيقة تحارب هذا التغيير ، وتهنيء نفسها على انها أمام انقلاب عسكري • وما بين الانقلاب العسكري والديمقراطية المتخلفة تواطؤ ، يقوي الواحد منهما الاخر • فالانقلاب يصبح هو الثورة عند كارهي الديمقراطية المتخلفة ، والديمقراطية المتخلفة تصبح هي الديمقراطية عند كارهي الانقلاب العسكري •

وكلما تعرضت الديمقراطية المتخلفة للخطر أو الازعاج راحت تتحدث عن أفضلية انقلاب عسكري يتسلم السلطة ويجري ثورة حقيقية على التنازل أمام مطالب المخربين والفوضويين • وكم من مرة تغلب انقلاب على اتجاه ثوري بفضل ما زايد في الانفتاح على جميع الفئات وجميع الطبقات وجميع الاراء • وكم من مرة تخلصت ديمقراطية متخلفة من القوى الديمقراطية الحقيقية بحجة الرضوخ لضغط « الانقلابيين العسكريين » • وهكذا يكون الحلف الضمني بين الانقلاب العسكري والديمقراطية المتخلفة قد أمن لكل من الطرفين العدو الذي يناسبه وهو في الحكم ــ ويحضر الوريث ( الامين ) ليحل محله وهو يترك الحكم • ولو تعمقنا أكثر في ملاحظة التواطؤ بين الانقلاب العسكري والبرلمانية المتخلفة لرأينا هذه الظاهرة تبلغ في بعض الحالات حد التعايش • ففي بلد واحد ، والكل قادر على الملاحظة ، كثيرا ما تكون ديمقراطية متخلفة كاملة وانقلاب عسكري كامل في آن معا • هذا الحلف بين الديمقراطية المتخلفة والانقلاب العسكري الذي يكمن

في لبنان وراء الخصومة الظاهرية بينهما هو أمكر ما يضعه النظام في وجه الحركة الشعبية لتضليلها بين ديمقراطية الحلف وتغييرية النهج ، واشغالها عن النزاعات الجدية والصحيحة .

وهكذا يبقى الانقلاب العسكري البديل الوحيد عن الديمقراطية المتخلفة ، والعكس بالعكس ، وتسد الطريق في وجه أي طرف ثالث . والملاحظ أنه كلما تعرض الانقلاب الى خطر جدي أو ازعاج جدي ، أبدى ميله للاخذ بقيم الديمقراطية المتخلفة رافعا شعار الحرية للجميع متهما الديمقراطيين بأنهم يطلبون الحرية لفئة دون أخرى بينما هو على استعداد للالتزام بالحرية التامة لجميع قطاعات المجتمع .

*** طبعا ، المعركة الطائفية هي من هذه المعارك المزيفة ، فكيف تنظر الى الدور الذي لعبته ؟**

ـ هذه هي المعركة الاخرى التي كنت أريد أن أشير اليها ، بطبيعة الحال . وهي ترد في ذهن القوى المعادية ، في مثل هذه المناسبات . ويعرف الجميع صلة هذه المعركة بالنظام العربي العام . على أن التجارب تثبت انه لم يعد من السهل على النظام اللبناني أو غيره ، أن يحرك الالة الطائفية كلما احتاج الى ذلك . اذ يبدو أن الطائفية تصبح غير قادرة على أداء « وظيفتها » في خدمة الرجعية ، عندما يتعرض المصير العام الى هزة بعمق الهزة التي يحدثها العمل الفدائي ، أو عندما يكون الموضوع أساسيا الى هذا الحد . فهي ، كسلاح ، لم تخلق لخوض معركة بهذا الحجم . فضلا عن أن الخامس من حزيران وعدوان المطار واعتداءات اسرائيل المتكررة قد رفعت الوعي الوطني الى مرتبة يصعب على المنطق الطائفي أن يتسلقها . وما اطلاق أصوات بالدعوة الى التحييد أو البوليس الدولي الا دليلا على اليأس من طواعية الالة الطائفية في يد النظام والقوى التي وراءه . لكن اليأس من سهولة اثارة المعركة الطائفية لا يعني الاقلاع عن الاستمرار في المحاولة الا في الحدود التي يؤذي بها الاصرار على الاثارة الطائفية امكانية خلق معركة اخرى أفعل في تعطيل نمو الحركة الشعبية، وهذه المعركة المزيفة الاخرى هي معركة اللبناني مع الفلسطيني . فجأة واجهتنا ومع قوى المحافظة كلها بالحرص على « اللبنانية » بوجه غيرها على كرامة الهوية اللبنانية . على « السجايا والطباع اللبنانية » ، على الاقتصاد « اللبناني » ، على الزراعة اللبنانية على الجنوب « اللبناني » ...

وفجأة أصبح اليساريون لبنانيين كاملين ، يجب أن تمنعهم لبنانيتهم من رفقة العمل الفلسطيني السيئة وأصبحت المناطق المحرومة لبنانية كاملة اللبنانية ، يجب أن تصان مصلحتها وأصبح فقراء الجنوب ومشردوه القدامى والجدد لبنانيين . لماذا كل هذا الكرم المفاجيء من قوى المحافظة باغداق الصفة اللبنانية على كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الاشياء ؟ لماذا كل هذه السلسلة الطويلة من الاعتراف بلبنانية ناقصي اللبنانية ؟ من أجل شيء واحد تمارسه

معظم الانظمة العربية ، هو فصل الحركة الوطنية عن المعين الاساسي الذي تكمن فيه كل طاقاتها الثورية ، ونعني به العمل من أجل فلسطين ٠

هذه المعارك المزيفة كلها مارستها الانظمة العربية ، بشكل أو اخر ٠ وقد انكشف مؤخرا دورها الواضح في لجم الثورة ٠ واليوم يقف النظام العربي العام عاريا بالنسبة الى الطلائع الثورية العربية ، ويقف في لبنان بالذات عاريا النهج الذي هو التطبيق اللبناني الاكثر توفيقا للنظام العربي العام المعادي للحركة الشعبية ٠ ومعركة الحركة الشعبية المباشرة اليوم هي المعركة الديمقراطية ضد الخطر الفاشي المتمثل في الانظمة المقفلة المنتظر أن تبرز في البلاد العربية كظاهرة حتمية تفرزها المصالح وقاية لنفسها من تفاعلات الثورة العربية في فلسطين ٠ وهذه الظاهرة احتمال في كل مكان في البلاد العربية والنظام المقفل في أي مكان ظهر ، هو أخ شقيق وحليف طبيعي ، بل توأم لمنظمة النخبة ٠ ويتمثل فيه دائما ما يتمثل فيها من تخط نسبي لمفاسد الواقع لقاء أخذ حق ضرب الحركة الشعبية ٠ وكل شيء يدل على أن النظام العربي العام يقتضي تطور الانظمة العربية الى الفاشية بعد أن زاد عليه ضغط المجابهة العسكرية مع العدو الاسرائيلي والحاح القوى الاستعمارية عليه بالرضوخ للحلول ٠

*** يمكن ، في ضوء ما تقوله ، أن نفسر همود الحركة الشعبية في أعقاب ١٩٥٨ ٠٠ كذلك يمكن ان نفهم ، بشكل اوضح ، دور ما سمي بالشهابية ٠٠٠**



ـ بالفعل تعطلت الحركة الشعبية زمانا في أعقاب ثورة ١٩٥٨ بمجيء نهج طرح نفسه للمرة الاولى في لبنان بديلا عن العقائد جميعا وبديلا عن الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية كلها ، طامحا الى أن يقيم دولة الفلسفة الوحيدة والرأي الوحيد والاتجاه الوحيد ٠ وكان هذا **النهج تطبيقا لبنانيا موفقا لجوهر النظام العربي** العام فجاء تجديدا للانعزالية زاد في خطرها على الفكرة العربية ٠ فقبله كانت الانعزالية التقليدية تقر بأنها رأي فريق معين من اللبنانيين أما في العهد الشهابي فقد كانت الانعزالية الجديدة الحاكمة تدعي انها ، على غرار الديغولية ، تمثل لبنان لا فريقا واحدا من اللبنانيين ٠ وقد راحت تطالب الشعب وأخذت منه في بعض الحالات تنازلات لا يجوز اعطاؤها الا للثورات التاريخية الاصيلة ، وهي في حقيقتها ليست الا درع وقاية للنظام من حركة الثورة العربية بعد أن أحس بوجودها على أثر قيام الوحدة والاطاحة بأكثر من حكم رجعي ٠ ولقد تميزت الشهابية كطريقة حكم بثلاث خصائص ظاهرة ٠

أولا : برنامج اصلاحي اقتصادي واجتماعي ، يعترف بحقوق بعض الفئات والطبقات والمناطق المظلومة تاريخيا في لبنان ٠

ثانيا : سعي البيروقراطية العسكرية والادارية ولا سيما العسكرية للحد من سلطان الاقطاع السياسي ٠

ثالثا : ادخال الانظمة العربية في عداد الدول صاحبة الحق بأن تكون لها مراكز ممتازة في لبنان ٠

وعلى الرغم من ايجابية هذه الخصائص من ناحية مبدئية فانها كانت مشوبة ببعض الشوائب ٠

فايديولوجية « اللبننة » أي الانطلاق من منطلق نقص اللبنانية عند الطوائف والطبقات والمناطق المظلومة ووجوب كسبها للولاء اللبناني قد حدث من صدق البرنامج الاقتصادي والاجتماعي وارفقت الكرم اللفظي مع هذه الفئات في الاجتماع والاقتصاد بالقمع الفعلي في السياسة لارائها وعقائدها ٠

وادعاء الشهابيين من العسكريين والمدنيين التعبير عن ارادة الجيش ـ من غير الادخال الفعلي للجيش في السياسة قد عطل التغيير النسبي الممكن حصوله بمجيء الجيش ، وجعل من النفوذ الجديد مجرد لعبة تواطؤ مصلحي بين بعض العسكريين وبعض المدنيين وبعض الساسة التقليديين ٠

والنظرة الى الانظمة العربية على أنها صاحبة حق في اقتسام النفوذ الى جانب الدول الاجنبية قد أعطت النظام مبررا لعدم المساس على الاطلاق بمصالح الدول الاجنبية وأصبح مفهوم الاستقلال لا الامتناع على الجميع بل التسليم للجميع فاعطيت السياسة الخارجية لامركا والادارة لفرنسة والاقتصاد لانكلترا مقابل حصة زهيدة لدولة ما في الجمهورية العربية المتحدة ، اعلنت الجمهورية العربية نفسها سقوطها بعد الخامس من حزيران ومع ذلك بقيت الشهابية خطوة متقدمة على سواها من تيارات النظام اللبناني حتى انقلاب الحزب القومي الذي اتخذ مناسبة لتحقيق انفصال ثان عن الحركة العربية في لبنان بعد الانفصال الاول في سوريا وخسرت الشهابية نهائيا صورتها المقبولة عند أول اصطدام بينها وبين العمل الفدائي وكان ذلك عام ١٩٦٥ ٠

وبعد عام ١٩٦٧ لم يعد الاحراج الذي وضعتها فيه مسؤوليتها في قمع العمل الفدائي وفي منع حضور لبنان الفعلي معركة المصير ، يسمح لها بمجرد الحديث عن النواحي الاجتماعية والاقتصادية وعن حقوق الطبقات والمناطق المحرومة ، وزال نهائيا التناقض بين مصالح البيروقراطية الشهابية والاقطاع السياسي المهددين كليهما بالخطر الوطني النامي ٠ ولم تعد ترى ضرورة لمراعاة الفكرة العربية حتى على شكل مزيف هو اعطاء بعض الانظمة العربية كغيرها من الدول بعض مراكز النفوذ ٠ لقد انتهت الانعزالية الجديدة كأسلوب قادر على طرح نفسه ـ شكليا على الاقل ـ على أنه شيء اخر غير النظام ٠

**❋ نعود الى الكلام على الثورة ٠ ما هي الافكار الاساسية للثورة العربية ؟ ما هو مفهومها ؟**

ــ أفكار الثورة العربية ، وعلى الاخص في الحدود السياسية ، معروفة : التحرر من الاستعمار ، الوحدة العربية ، الاشتراكية ، الديموقراطية • الجديد هو فكرة الكفاح المسلح التي أعطت لهذه الافكار قدرة ، ومعنى واقعيا • كانت وحدة النضال العربي بغياب الكفاح المسلح من أجل فلسطين ، فاقدة لحس الاولوية وللبوصلة الموجهة • كان الانتصار يتم ، حيث الانتصار سهل ، لا حيث الانتصار ضروري ، أشبه بالمياه الجوفية التي تخرج الى السطح حيث القشرة رقيقة • ان أغلب الانتصارات التي تمت في مرحلة تشكل الانظمة كانت انتصارات حيث السهولة لا الضرورة • فالوضع الحسن نسبيا أطيح به ليأتي وضع أحسن قليلا ، وبقيت الاوضاع الاكثر سوءا كما هي • اذن ، وحدة النضال العربي مضافا اليها الكفاح المسلح ، هي طريق الثورة •

*** بمن تتمثل ، في رأيك ، الثورية التي تعنيها ؟**

ــ بجميع المناضلين العرب في ظل أفكار الثورة وامتدادها السليم في الكفاح المسلح •

*** من هذه الصورة التي رسمتها قد يتهيأ أن المعركة هي الان مع الانظمة أكثر مما هي مع المواقع السياسية التي لم تتحرك بصدمة ١٩٤٨ ؟**

ــ الحقيقة أن من أهم الاشياء الايجابية الناتجة عن هزيمة حزيران ، سقوط منطق المعارضة لصالح منطق الثورة • أعني بالمعارضة تلك القوى السياسية التي تعمل في بلد ما وفي ذهنها سراي الحكم • أما الثورة فهي التي تتطلع الى فلسطين ولا ترى الى تغيير الحكم الا من خلال التوجه نحو فلسطين • كل سعي ، كل تصرف ، كل مفهوم سلطوي بحت ، على غرار ما كان يحصل قبل ١٩٦٧ ، هو معارض لا ثوري • من هذه الزاوية ننظر الى موضوع اسقاط الانظمة • وليس هناك في النهاية الا نوعان من الانظمة ، اما نظام الذهاب الى فلسطين ، أو نظام الارتداد عنها ، بكل ما يعني كل منهما من الاوصاف والمستلزمات والمهام •

وجوابا عن هذا السؤال ، أحدد أن الثورة لا تكون بعد اليوم ثورة على الانظمة بقدر ما تكون ثورة من أجل فلسطين • وأضيف أن هذه الثورة لن تكون • بطبيعة الحال ، في الاوضاع العربية الاكثر تخلفا ، بل انها تأتي لتتجاوز الانظمة حيث الانظمة قائمة •

*** اذن ، كل نظام يرتبط بفلسطين وقضيتها يحمل الهوية الثورية ••**

ــ طبعا • ومن هنا تعمل القوى المعادية في آن معا كي تصفي الحركة الوطنية من بذورها الثورية ، وكي تصفي العمل الفدائي من بذوره الثورية •

وليست غاية الاستعمار في هذه المرحلة التاريخية تصفية العمل الفدائي

بقدر ما هي انشاء فلسطين مزورة ، تعاونه على حل « المشكلة الفلسطينية » • لا شيء أثمن في الوقت الحاضر عند الاستعمار من وجود فلسطيني مفرغ من الثورية ، ومن القدرة على الاشعاع والفعل في الاوضاع العربية ، من القدرة على ممارسة الرفض المستمر والقاطع لكل ما هو أقل من تحرير فلسطين • مثل هذا الوجود الفلسطيني ضروري لاخذ الموافقة على « الحل » ، كما هـو ضروري لامتصاص ارادة التغيير والثورة في الاقطار العربية كلها • لذلك يتردد الاستعمار في ضرب العمل الفدائي الان ومثله الرجعية خشية أن تذهب ضحية لهـذا الضرب امكانية اقامة فلسطين المزورة ، وان تندثر بذور الوجود الفلسطيني الشكلي واحتمالات « الحل » • ولو استطاع الاستعمار أن يجد صيغة تؤمن له استئصال العمل الفدائي من أساسه وبناء فلسطين المزورة في الوقت عينه لاقبل عليها بثقله كله • لكن مثل هذه الصيغة تبدو ، حاليا ، مستحيلة • فلا يبقى اذن أمامه الا أن يسلم ببناء العمل الفدائي مرفقا هذا التسليم بمجهود يقوم به من أجل تضخيم مظاهر الرمزية والشكلية والاسمية والفوقيـة في العمـل الفلسطيني على حساب ثورته •

*** كيف تربط بين الثورية الحقيقية وقضية فلسطين ، وكيف تنظر من ضمن هذا الربط الى الكفاح المسلح ، علما ان البندقية وحدها لا تكفي ؟**

ـ أتصور الطريق من خلال حركة وطنية عربية مرتبطة بكفاح مسلح تعتبر أن الالتزام بفلسطين هو أمارة الصدق الثوري ، والمقياس والدليل • واذا نظرنا الى الوسائل الموجودة الان بين أيدينا نجد أن الحركات الوطنيـة التي تعتبر أن الالتزام بفلسطين هو المقياس قليلة ، وأن العمل الفلسطيني الـذي يلعب دورا أساسيا في هذه المرحلة لا يخلو تماما ، في كل نواحيه ومنظماته ، من مرض الكيانية الذي يعطل اشعاع هذا العمل في الواقع العربي وفعله في الحركة الوطنية العربية • ان العمل الفلسطيني مطالب بتجاوز ظواهر الكيانية مثل الاقليمية والفوقية والشكلية لكي يطرح كل ثماره الايجابية في مسيرة الثورة العربية • فالحركات السياسية مطالبة بأن تؤمن بفلسطين أكثـر مما تفعل الان ، والعمل الفلسطيني مطالب بأن يؤمن بالتفاعل مع الحركات السياسية أكثر مما يفعل الان • وهذا أمر أساسي •

*** أكدت في نقدك النظام العربي الواحد بعد ٦٧ على ظاهرة عدم اعتماده على الشعب ، وأكدت في الكلام على مقاييس الثورية ، على الديموقراطية التي تفهم في هذا المجال بانها الاعتماد على الشعب • لكن الاعتماد على الشعب الذي نعرف انه مقيد بترسبات وموروثات قد تعطل ممارسته للعمل الثوري ، وبالتالي لمقياس الثورية ، يستوجب تحرير الشعب من هذه الموروثات والترسبات لكي تصبح الممارسة الثورية ممارسة فعلية • لا بد ، بتعبير اخر ، من اعادة النظر في مفهوم التراث •••**

ـ أصلا لا يمكن تغيير الترسبات والموروثات السيئة الا من خلال الثورة وفي الثورة . وكل تطور في هذه الترسبات والموروثات خارج الثورة يبقى بطيئا ومزيفا خصوصا في هذه المرحلة التي تفرض طبيعتها أن يترادف الصدق والثورية . لكن هذا لا يمنع من أن نشير الى أن جهدا ثوريا خاصا يجب أن ينصرف الى فكر المواطن وضميره وروحه . فقد غالينا في اهمال هذا الجانب من الثورة ، مكتفين بالاتكال على القاعدة التي تقول : غير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية يتغير الانسان . هذه المغالاة لم يقع فيها العرب وحدهم ، بل وقع فيها غيرهم من الشعوب التي اعتمدت الطريق الثوري الاشتراكي ، فاكتشفت بعد فترة طويلة نقص اهتمامها بالناحية الثقافية . ان الثورة الثقافية واجبة في البلاد العربية ، ربما أكثر مما هي واجبة في أي بلد اخر ، لا لانها الوسيلة للقضاء على الترسبات والموروثات السيئة فحسب ، بل لانها كذلك الوسيلة الوحيدة لوصل العرب وصلا حيا بتراثهم الاصيل الخلاق ، وحمايتهم من التزييف الفكري والثقافي والارهاب الفكري الصادر عن التقليد الاعمى للايديولوجيات المنفصلة عن واقعنا وتراثنا . والثوري الحقيقي هو الذي يعتبر نفسه الابن البار للتراث والذي يعتبر الكثير من الموروثات كنوزا ايجابية مليئة بالصدق ومعطيات الابداع . وأفضل أبناء التراث هم الثوار .

*** ما هو ، في هذا المنظور ، دور المثقف العربي ، وكيف تحدد علاقته بالنظام ؟**



ـ الثورة هي التي تعيد للمثقف كرامته الحقيقية التي هي في انفصاله عن الانظمة وتخليه عن الاوضاع التي تجعل من الفكر مرادفا للافتاء والتبرير ، يخلط بين واجب الفكر القيادي والوظيفة الاعلامية البحتة التي يعطيه اياها النظام . والثورة هي التي تصل المثقف بالارض التي يعيش عليها ، وتعطيه حس القضية المصيرية ، الذي لا ثقافة بدونه ولا مثقف . وأي مثقف هو ذاك الذي لا يعيش حس المصير ؟

لقد تركت الاعوام الاثنان والعشرون من ممارسة الحالة السلمية آثارها في نفوس جزء كبير من أبناء أمتنا ، وامتدت هذه الاثار حتى الى الطبقات التي يقوم على أكتافها عبء القيام بالثورة . فليس هناك خروج ممكن من الحالة السلمية القائمة الا بمجابهة صريحة للاستسلام نرتفع فيها الى مستوى المعركة المصيرية .

وذلك :

أولا ، بأن نميز بين أصدقاء الثورة وأعدائها ونعرف بدقة مواقف القوى العالمية والمحلية والطبقات والفئات والانظمة والاشخاص . فلا تستمر نظرتنا المائعة الحالية .

ثانيا ، بأن ندرس أسلوب أصحاب المشروع الجديد في تنفيذه ، ونحرص على احباطه ٠

ثالثا ، بأن نواجه امكانية ولادة العقلية الفاشية في هذه المرحلة والجهود التي ستبذلها الانظمة العربية في تشجيعها وتغذيتها ٠

رابعا ، بأن ندرك استحالة استمرار العمل الفدائي فلسطينيا بحتا بعد اليوم ٠

خامسا ، بأن نفهم طبيعة المعركة الجديدة كمعركة شعبية عربية عامة يجب أن يشترك فيها الشعب العربي ، في جميع أقطاره ٠

ان المرحلة الجديدة التي تدخلها اليوم الامة العربية هي من المراحل التاريخية الاكثر حاجة الى روح البسالة والوعي في هذه الامة ٠ فأعداء الثورة الخارجيون والداخليون يتكتلون في وجهها متناسين كل ما بينهم من فروق ٠ ان معرفة القوى العالمية بالنتائج الخطيرة للمعركة الحالية تجعل هذه القوى موحدة ضد الثورة العربية كما لم تكن موحدة في يوم من الايام ٠ والكثيرون من رفاق الطريق في الثورة سيغادرون صفوفها وينضمون الى العدو ٠ ذلك ان الموضوع ليس موضوع رد مقترحات أميركية فحسب ، بل الموضوع هو شق الطريق في وجه هذه الامة للخروج من عقلية الحل السلمي التي احتجزتها فيها الانظمة طيلة اثنين وعشرين عاما ٠

منح الصلح

هشام شرابي

# اليسار ، المقاومة ، الثورة

*** كيف تنظر الى التحركات الثورية العربية الماضية : الثورة العربية الاولى ، ثورات ما بين الحربين ، التي تنتهي سنة ١٩٤٦ ؟**

— تتميز هذه التحركات بكونها غير شعبية ، أو بكونها ، على الاصح ، غير جماهيرية . في هذه الفترة ، أي هذه التي تمتد بين ١٩١٦ و ١٩٤٦ ، انبثقت طبقة نسميها البورجوازية القومية أو الوطنية . كانت طبقة مدينية ( نسبة الى المدينة ) ، وكانت تسيطر على المصالح الاقتصادية ، ولهذا كان من قوامها أن تستلم المصالح السياسية . كذلك من قوامها أن تصطدم مع الاحتلال الاستعماري . فقد كانت عداوتها للاجنبي قوية ، ومن هنا يمكن اعتبارها خطوة لمرحلة تالية . يمكن القول ، بتعبير اخر ، ان الثورات التي عبرت بها عن نفسها هذه الطبقة تشكل خطوة نحو الاستقلال السياسي المحدود الذي لا تتأمن به ومن ضمنه مصالح الشعب ككل ، بل مصالحها هي وحدها كطبقة .

*** بعض هذه الثورات كان يتعامل مع أجنبي من أجل أن يطرد أجنبيا آخر ...**

— لم تكن تلك الطبقة قادرة أن تتخطى حدودا معينة . كانت مصالحها هي التي تحدد آفاقها ، وتحدد حركتها . الكيلاني ، مثلا ، تعاون مع الالمان لطرد البريطانيين . الوفد ، على العكس ، تعاون مع البريطانيين . كان مثل هذا التعاون ممكنا دائما ، في منطق هذه الطبقة ، ما دام يمثل مصالحها كطبقة حاكمة أو لا يتعارض معها .

*** متى بدأ ، اذن ، التحرك الثوري العربي الاول ؟**

— بدأته الفئات الجديدة التي عبرت عن نفسها بالاحزاب العقائدية القومية الحضارية .

*** ماذا تعني بعبارة « القومية الحضارية » ؟**

ـ أشير بهذه العبارة الى الاحزاب التي تتبنى ايديولوجيتها على قاعدة القومية ويكون توجهها الاساسي في اتجاه تثبيت هذه الهوية ومصالحها القومية، بمعزل عن القوميات والمصالح الاخرى ، وحتى ضدها . القومية الحضارية تتوجه الى الداخل ، وتتصف الى حد أو آخر بصفات عنصرية وشوفينية . الاتجاهات التي انبثقت في الخمسينات والستينات هي ، من هذه الزاوية ، خروج على الشوفينية والعنصرية ، وهي تشكل همزة الوصل بين الاحزاب القومية ، بمختلف انتماءاتها الحضارية ، والحركات الثورية الجذرية التي نشاهد انبثاقها اليوم ، وبخاصة حركات المقاومة الملتزمة ايديولوجيا .

*** نرجو أن تعود الى ايضاح ما تقصده من عبارة « القومية الحضارية » ـ اذ يبدو أن بعض الحركات التي تسميها ثورية جذرية ، انما تتحرك في ظل « القومية الحضارية » ، كامتداد لها ، وكتعبير عنها في الوقت ذاته ...**

ـ تعني « القومية الحضارية » أو تتضمن ما يلي : العودة الى الماضي ، التشديد على الهوية التاريخية ، مصلحة الامة فوق كل مصلحة ، الابتعاد الكلي عن فكرة الاممية والطبقية ، الميل نحو العنصرية والطائفية الدينية بشكل وبآخر .



*** لكن هذه مرحلة ما تزال مستمرة ...**

ـ صحيح . غير أن استمرارها هامشي . الاحزاب التي تعبر عنها وتمثلها أصبحت هي نفسها هامشية ، خصوصا بعد انبثاق الحركات الثورية .

ماذا ذوب تلك الاحزاب والحركات القومية ؟ ما هي القوى التي ذوبتها ؟ انها ، من ناحية ، القوى الايديولوجية والاجتماعية . أما من الناحية الثانية ، فاننا نلاحظ أن تمثيلا للطبقات الدنيا من الشعب يصعد للمرة الاولى في العالم العربي . لقد بدأت الجماهير الشعبية تفعل كقوة سياسية ، ولاول مرة في تاريخنا .

*** هل يمكن تحليل هذه التطورات ، على مستوى القيادات ؟**

ـ نعم . في هذه الفترة ، أي منذ الحرب العالمية الاولى ، الى الآن ظهرت ثلاثة أنواع من القيادات : القيادة الاولى أو قيادة البورجوازية الكبيرة ، قيادة البورجوازية الصغيرة ( الاحزاب القومية ) ، وأخيرا قيادة الحركات التي ترتكز الى قاعدة جماهيرية ، أي الى أوسع قاعدة في المجتمع .

*** كيف تنظر ، اذن ، الى التغيير الذي صاحب هذه القيادات ؟**

ـ هذا التغيير المصاحب ، هو ، على الصعيد الايديولوجي ، الخروج تدريجيا عن المفاهيم الاساسية السابقة ، السياسية والاجتماعية والحضارية . أي هو اكتشاف الارضية الشعبية للوعي الثوري . وثمة ترابط شديد بين الوعي الثوري والقاعدة الجماهيرية ، وهما لم يوجدا اطلاقا في المراحل السابقة . نضيف الى ذلك التحرر من قيود النظرة الحضارية القومية الخالصة ، وبدايات تجاوزها نحو الشعور الاممي . هكذا نفهم كيف أن القوى المتقدمة ايديولوجيا تؤكد أن الكفاح الفلسطيني والثورة العربية هما جزآن من حركة التحرر العالمية .

*** كيف برزت هذه الطبقات الشعبية الدنيا كقوة فاعلة ، وكيف ؟**

ـ من المناداة بتحرير الفلاح ( عبد الناصر ) الى الاعتماد على الجماهير والعودة اليها ( جورج حبش ) : حلقة كاملة . هذه الطبقات ، أو هذه القوى التي صعدت لم تصبح بعد ذات فاعلية ايجابية . ما تزال امكانيات ، تم الاعتراف بها ، بشكل نهائي . هكذا صار ثقلها ، بحد ذاته ، حاسما . ولم تنبثق بعد قيادة من عمال وفلاحين وجنود ، لكننا حتما نسير نحوها . من طبيعة ظهور هذه القوى على المسرح أن تؤدي الى التجاذب والتصارع بينها وبين القوى المسيطرة . فنحن الآن في مرحلة تتصارع فيها ثلاث قوى : التقليدية ، الاصلاحية ( الانظمة ) ، والثورية ( الجماهير الشعبية ) .



*** اذا نظرنا الآن الى المركب الاجتماعي العربي الحاضر ، فهل نرى فيه حركة جماهيرية يمكن تسميتها ثورية بالمعنى الصحيح ، وتعد بتغيير جذري ؟**

ـ طبعا ، لا . الاطار الوحيد الذي خرجت من ضمنه قيادات ثورية مرتبطة ارتباطا عضويا بالجماهير هو الاطار الفلسطيني . هناك ، خارج هذا الاطار ، أي في العالم العربي كوحدة ، تحركات وتململات . مرة تعبر عنها النقابات العمالية ( كما في المغرب مثلا ) ومرات تعبر عنها حركات جماهيرية عفوية . لكنها ما تزال كلها ( ما عدا حركة المقاومة الفلسطينية ) خاضعة ، مباشرة أو مداورة ، للقوى المسيطرة في البلدان العربية . هذا دون أن ننسى العلاقة الجدلية التي أصبحت اليوم واضحة ، بين الانموذج الذي تمثله حركة المقاومة الفلسطينية والتململ أو التحرك الجماهيري في العالم العربي .

*** ما هي المعاني أو الابعاد التي تراها في هذه العلاقة الجدلية ؟**

ـ ان مصير الحركة الجماهيرية يتوقف ، الى حد بعيد ، على تطور حركة المقاومة الفلسطينية . اذا تصاعدت هذه الحركة ، وقدرت أن تحول العمل الفدائي الى حركة شعبية بالفعل ، فمعنى ذلك أن القدرة على التبلور في حركات

جماهيرية حول قيادات ثورية تصبح أكثر احتمالا وامكانا عندئذ منها اليوم • لكن اذا فشلت حركة المقاومة أو استطاعت القوى المعادية أن تحتويها أو أن تقضي عليها ، فمن المنتظر ان يركد التململ الجماهيري الذي نلمسه اليوم ، بحيث لا يعود من المستبعد انطفاء اللهب الثوري الذي كان آخذا بالتصاعد في جميع أنحاء العالم العربي • ان نتيجة التناقض بين الوضع الجماهيري والوضع القائم مرتبطة ، بتعبير آخر ، خلال السنوات المقبلة ، والى حد بعيد ، بمصير حركة المقاومة الفلسطينية •

*** لكنك قلت ان للتململات الجماهيرية في العالم العربي جذورها الطبقية والاجتماعية • وهكذا يمكن أن نتساءل عن السبب الذي يدعوك الى أن تضفي على حركة المقاومة الفلسطينية هذه الاهمية الثورية الحاسمة ؟**

ـ انني أتحدث عن الظرف التاريخي الراهن • ومحور الاقتران السياسي والايديولوجي القائم في العالم العربي ، في هذا الظرف ، هو العمل الفلسطيني ، لا غيره • طبيعي أن الثورة الاجتماعية الجماهيرية القائمة على التصادم الطبقي والمنبثقة منه ، موجودة دائما في الامكان ، في المستقبل • غير أننا نكون نظريين، تجريديين اذا اعتقدنا أن الثورة العربية الاجتماعية يمكن أن تقوم في اطـــار تاريخي مجرد : طبقات ساحقة مستغلة ، طبقات مسحوقة مستغلة ، وسيأتي يوم تتفجر فيه التناقضات وتحدث الثورة • مثل هذا التفكير يمت الى القرن التاسع عشر والمجتمع الصناعي • أما في مجتمعنا اليوم فان المحرك الثوري هو المجابهة مع الاستعمار والامبريالية ، ومن خلالها مع القوى القائمة على الدعم الامبريالي والقوى الاخرى غير القادرة على التحرر من السيطرة الامبريالية غير المباشرة أو التي تجد نفسها مضطرة للتهادن معها • بهذا المعنى ، ومن هذه الزاوية ، أضفي على حركة المقاومة الفلسطينية التي تضع العالم العربي كله وجهـــا لوجه مع الاستعمار والامبريالية ، تلك الاهمية الحاسمة •

*** كيف تقيم ، بهذا المقياس ، ثورة الجزائر ؟**

ـ ايديولوجيا ، فشلت كثورة اشتراكية • لـــكن ، لكي نفهم الثـورة الجزائرية فهما موضوعيا ، يجب أن نشدد على خصوصيتها التاريخية : الصبغة الدينية في بداية انبثاقها ، عدم وجود الرؤية الفكرية الواضحة لمعنى الثورة أثناء الثورة ، تأخر قيام قيادة حزبية مبنية على مفهوم اشتراكي صحيح ، قيـــام نخبة قيادية غير منسجمة ، تحول الثورة بعد نجـــاح حرب التحرير الى نظام عسكري يعاني معظم التناقضات التي تعانيها الانظمة الانقلابية في العالم العربي• مع ذلك ، تتفرد الجزائر بخميرة من التراث التحرري الشامل ، من أجل الحاضر والمستقبل ، غير متوفرة لدى أي من الانظمة الانقلابية العربية الاخرى •

*** جوابك هذا يطرح مسألة تطور النظرة الى الاستعمار • فما هو الفرق**

**بين النظرة الى الامبريالية سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٧٠ ، والنظرة اليوم ؟ وما هي أهمية المرحلة الحاضرة ـ وبشكل أخص ، أهمية المثل الذي تقدمه فيتنام ؟**

ـ كانت الامبريالية في مرحلة ما بين الحربين شيئا ، وبعد زوال الاستعمار صارت شيئا آخر • كذلك تغيرت المواقع التي كنا ننظر منها في العشرينات والثلاثينات تغيرا جذريا عن المواقع التي نظرنا منها في الستينات وننظر منها في السبعينات • أما المعنى الاساسي للامبريالية حاليا فهو أنها تمثل نظاما عالميا مترابطا ذا قيادة واضحة هي قيادة الولايات المتحدة الاميركية • من هنا أهمية فيتنام لنا ، وللعالم الثالث أجمع • ان فيتنام ، شعبا وثورة ، تمثل تجربة يمكن أن يعانيها أي شعب أو أي ثورة في العالم الثالث ، في مجابهة الامبريالية الجديدة • وقد دل الشعب الفيتنامي ، بسبب انتصاره ومقدرته على الثبات في وجه أقوى دولة في العالم حربيا واقتصاديا ، على الطريق الممكن الوحيد للتخلص من الاستعمار بمعنى الاحتلال والسيطرة وأكد قدرة الشعوب الفقيرة المسحوقة على التحرر الوطني الكامل • يمكن أن نقول ، بتعبير آخر ، ان النظرة التي ما تزال تقول بها بعض القوى الوطنية وبعض القادة « الثوريين » من أنه لا يجوز الدخول في مبارزة مع الولايات المتحدة ، ومن أن هناك حدا تجب عنده مهادنة الغرب ، هي نظرة نفتها فيتنام بحرب تحريرها ، وبرهنت على نقيضها •

*** نعود الى ايضاح مسألة أهمية الثورة الفلسطينية • هل ترى مثلا في المراحل التي اجتازتها ، منذ ثورة ٣٦ ، بما رافق هذه المراحل من ردات الفعل والتحركات ، ما يجعلها اكثر أهمية من أية حركة ثورية عربية ؟**

ـ ان تاريخ الاختبار الفلسطيني خلال نصف قرن يعكس ويلخص بآن واحد المراحل التي مرت فيها الشعوب العربية الاخرى ، خلال هذه الفترة ذاتها أي خلال النصف القرن الاخير • في المرحلة الاولى ، أي في العشرينات والثلاثينات كانت قيادة الحركة الفلسطينية قيادة تقليدية ، أي دينية وعائلية واقطاعية ، حددت مصالحها أهداف المرحلة الخطيرة من بدء الغزو الصهيوني • ثم تلتها مرحلة تلقحت فيها تلك القيادات التقليدية بعناصر أخرى بورجوازية وطنية ، قامت على نظرة قومية شوفينية طبقية ذات أهداف حددها اطار مصالحها • ولم تنبثق قيادة شعبية حقيقية في الوسط الفلسطيني الا بعد عشرين سنة من الانسحاق في المخيمات والمنافي • وكانت هذه قيادة تمثل ، للمرة الاولى ، الارادة الجماهيرية والمصلحة الجماهيرية ، وتقدر للمرة الاولى على التعبير ، ايديولوجيا ، عن محتوى هذه المصلحة وهذه الارادة ، وعن هدفها وأسلوبها • في هذا ما يجعل حركة الثورة الفلسطينية اكثر أهمية من أية حركة ثورية عربية أخرى •

*** ومن هنا كذلك الصعوبات التي تواجهها • واذا تركنا جانبا الصعوبات التي تجابهها على الصعيد العربي ، وعلى الصعيد الاستعماري الامبريالي ، فان**

**ثمة صعوبة ناشئة على الصعيد الاممي الاشتراكي ، وتتمثل في كيفية تفسير موقف الاتحاد السوفياتي ، رائد الثورة الاشتراكية ورائد ازالة الاستعمار ، من القضية الفلسطينية ...**

ـ ينبغي ان نقرر أولا هذه الحقيقة وهي أنه لولا مساعدة الاتحاد السوفياتي للانظمة العربية ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة ، حربيا واقتصاديا ، لانهارت هذه الانظمة ولتمت السيطرة الصهيونية على المحيط العربي ولقضي على المقاومة . غير أن الاعتراف بهذه الحقيقة وهو مما يدين به العرب للاتحاد السوفياتي الصديق لا يجوز أن يمنعنا من ملاحظة أنه لا يصل في دعمه لحركة الثورة الفلسطينية الى تأكيد منطلقاتها وهي تحطيم الكيان الصهيوني الاسرائيلي وتغيير المجتمع العربي تغييرا جذريا ، على جميع المستويات . ان ذلك لا يمنعنا ، بتعبير اخر ، من القول ان دور الاتحاد السوفياتي في العالم العربي ما يزال سياسيا أكثر منه ثوريا . فهو يتبع ، على الصعيدين العالمي والعربي ، سياسة دفاعية هدفها ، من ناحية ،دعم معارضة الدول المتخلفة للسيطرةالاميركيةوعدم التعرض للمجابهة المباشرة مع أميركا ، من ناحية ثانية . هذه القاعدة السياسية فرضت على الاتحاد السوفياتي خطا منعه من أن يدعم ، بشكل مباشر وكلي حركات التحرر الوطنية والثورية . هكذا يقف اليوم وراء الانظمة التقدمية العربية التي تقف موقفا حياديا تجاه الغرب مع الرضى بالاعتراف بمصالحه ، دون دعم الثورة الفلسطينية وأهدافها التحررية ، بلا قيد أو شرط كما يفترض في أول ثورة ودولة اشتراكية وكما ينتظر جميع الثوريين .



*** ما هو ، في هذا كله ، دور المثقف العربي ؟ هل هو مساند وحسب ، أم أنه قوةفاعلةقدتشكل هي نفسها الطليعة ، أي يشارك فعليا ، بالاضافة الى مشاركته النظرية ، خصوصا أن المثقفين هم أكثر قابلية على التحرر من غيرهم ؟**

ـ ان نظرة سريعة على التحركات الاساسية الجذرية في العالم العربي ، ومن ضمنه الحقل الفلسطيني ، تظهر لنا أن ناصية قيادتها هي في أيدي المثقفين ، ومعظمهم من طبقة البورجوازية الصغيرة . ومما لا شك فيه كذلك أن كل تبلور ايديولوجي للتيارات الثورية انما يصوغه هؤلاء المثقفون . السؤال الاساسي هو : هل يمكن لحركة ثورية أن تستمر وتتصاعد وتصل الى أهدافها من ضمن العلاقة السلبية الحاضرة بين الجماهير والفئات البورجوازية الصغيرة القيادية ؟ والجواب هو أن الثورة لا يمكن أن تستمر وتتصاعد وتصل الى أهدافها الا اذا تجذرت في الجماهير ، وتجذرت قيادتها في عناصر منبثقة حياتياونفسيا وفكريا من القاعدة الجماهيرية .

*** اذن ، يجب أن ننتظر طويلا جدا لكي تقوم الثورة العربية ...**

ـ ربما ، لست أدري . ان الجيل المثقف الذي تنتمي له القيادات

الراهنة ، جيل مستعمر حضاريا ، ويحتاج هو ، كذلك ، الى التحرير . الثورة ، بهذا المعنى ، ليست فقط ضد الاستعمارين القديم والجديد ، بل انها كذلك ضد أشكاله الاكثر رسوخا وقوة والمرتكزة في الذهنية والمنظورات والمفاهيم والقيم التي تميز نظرة المثقف العربي بكافة الوانه . ان المثقف العربي ما يزال أسير ثقافته واختباراته وتطلعاته التي هي كلها مكونة في ظل المثال الغربي وسيطرته الحاضرة والغائبة ، المحسوسة وغير المحسوسة على السواء .

*** كيف يجب ، في هذه الحالة ، أن يثوّر هذا المثقف نفسه ، أو كيف تنشأ في رأيك الثقافة الثورية ؟**

ـ أولا ، يجب أن نعترف بأنه ليس عندنا ثقافة ثورية . اليسار السياسي العربي اليوم يسار طفولي بأبشع معاني الكلمة ومختلف هذه المعاني ، وليس بالمعنى الذي عناه لينين وحسب . والمفاسد والاخطاء التي تظهر امامنا يوميا في قطاعات اليسار العربي لا تحتاج الى اسهاب . ثانيا ، اليسار الفكري في العالم العربي ، وبخاصة في لبنان والعراق وتونس والمغرب ، قطع أشواطا بعيدة في تثبيت ايديولوجية ثورية ، أو تفهم الايديولوجية الثورية ، الغربية والشرقية . « الحرية » ، « دراسات عربية » ، « الهدف » ، « مواقف » تشكل نبراسا نظريا ساطعا فيمعالجاتها وتحليلاتها للتراث الثوري . وقدقدمت خـلال السنوات الاخيرة المصطلحات والمفاهيم والتقييمات والاساليب النقدية المنبثقة من التراث الثوري ، بحيث جعلت الكلام على النظرية الثورية والخوض فيها أمرا ممكنا ، لاول مرة في العالم العربي . ونحن اليوم قادرون ، بفضل ذلك ، أن ندخل في حوار عقلاني حول قضايا اجتماعية وسياسية ، بمفهوم ثوري جديد ذي أبعاد أممية . ثالثا ، لم يجد اليسار الفكري بؤرة طبيعية لتطوره في علاقة جدلية مع الممارسة الثورية الا في الوسط الفلسطيني ، ومن ضمن التجربة الفلسطينية . لذلك نستطيع القول ان الثورة الفلسطينية هي تربة الفكر الثوري الجديد ، وقاعدة الثقافة الثورية ومصدرها الصحيح . ولذلك يتوقف مصير الثقافة الثورية على مصير الثورة الفلسطينية . وانني أرى في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية ، المنطلقين الاساسيين في العالم العربي القادرين على خلق الاطارات التي يمكن لليسار العربي ، من ضمنها ، أن يصحح نفسه ، ويجـد طريقه ، ويتغلب على مصاعبه الراهنة .

*** ذكرت الجبهتين بشكل يوحي أنهما متميزتان ، لكل منهما ايديولوجيتها المتميزة ، وهذا نقيض الواقع ، وبخاصة على الصعيد النظري ...**

ـ اكثر ما يؤلم هو عدم تمكن الفصائل الفلسطينية من التوحد ، وهو ، بشكل خاص ، الانفصال غيرالمتوقع بين هاتين الجبهتين ، لانهما تمثلان كلا واحدا وتنتميان الى بذرة واحدة . ان ثمن هذا الانفصال تدفعه الثورة الفلسطينية

واليسار العربي بأجمعه ، لانه لا يخلق جوا تصادميا فيما بينهما وحسب ، وانما يمنع كذلك مواهب عند الطرفين ، من أن تتعاون وتركز انهماكاتها في أشياء ايجابية بدلا من الخصومات السلبية • لا شـك أن لدى الجبهة الشعبية الديموقراطية أصفى مثل للفكر الماركسي ــ اللينيني في العالم العربي ( أشير هنا بشكل خاص الى « الحرية » ) ، بينما تتحلى الجبهة الشعبية ، بالاضافة الى نقاوة فكرها الثوري ، بصفة فريدة هي اندماجها المتواصل المتزايد بالجماهير • فهي تمثل اليوم التعبير الاقرب لما نسميه بالمصلحـة الجماهيرية • وأحب استطرادا ، أن أوضح أننا اذا نظرنا الى الجبهتين من خلال قادتهما ، نجد أن الدكتور جورج حبش قد يمثل ، في خطبه وكتاباته وآ رائه ، التعبير الاقوى والاكمل لما يمكن ان نسميه الماركسية العربية الجديدة • فقد استطاع أن يعرّب بشكل حياتي ، النظرية الماركسية الثورية وأن يضع بذلك القواعد لنشوء فكر ثوري عربي مستقل •

**※ كيف تنظر من هذه الناحية ، الى موقع « فتح » ؟**

ــ لولا « فتح » لما استطاعت الثورة الفلسطينية أن تنمو وتصبح القوة التي هي اليوم • ميزة « فتح » الاساسية هي في مرونة وصلابة سياستها التي تمكنت بوساطتها حركة المقاومة أن تتجاوز أزمات عديدة • و « فتح » هي التي تمثل اليوم والى زمن طويل القوة الضاربة في الحركة • لذلك ، ورغم رفض قيادة فتح الالتزام بعقيدة سياسية أو اجتماعية ، تبقى العمود الفقري للثورة بكاملها • هذا مع العلم أن في « فتح » تيارات أصبحت واضحة ، تتجه نحو بلورة فكر ثوري يساري • وأنا أعتقد أنه عندما تصل حركة المقاومة الى مرحلة الثورة الشعبية ، فان تنظيم « فتح » السياسي لا بد أن يدخل ضمن الاطر الايديولوجية التي وضعتها القوى الفكرية الطليعية •

**※ ما هي ، في رأيك ، أهم الاخطار التي تجابهها المقاومة ؟**

ــ ان أكبر خطر تجابهه المقاومة الفلسطينية هو تنافـرها أو تناقضها مع الجمهورية العربية المتحدة • فهذه ، على المستوى العسكري ، تكون محور المجابهة مع اسرائيل ، والحليف الاكبر للعمل الفلسطيني والحرب الشعبية الممكنة • وتكوّن الناصرية ، على المستوى الشعبي العام ، أكبر حليف للمقاومة الفلسطينية في العالم العربي ، ولهذا فان قبول الجمهورية العربية المتحدة للحل السلمي يشكل أكبر خطر على استمرار المقاومة في خطها التصاعدي • ان مستقبـل المقاومة تقرره ثلاثة عناصر : الاول والملح مدى تأثير الموقف الناصري على التحرك الجماهيري في العالم العربي تجاه المقاومة • فعندما تصبح مصر والناصرية في موقف عداء للمقاومة ، تحرم المقاومة من الحمايتين السياسية والجماهيرية • الثاني ، موقف النظامين السوري والعراقي ، تجاه المقاومة وتجاه الجمهوريـة العربية المتحدة • الثالث ، موقف النظامين الاردني واللبناني ، وقدرتهما على

انعمل العسكري القمعي ضد المقاومة وحلفائها •

*** هل تشاركنا الرأي ، بناء على هذه الملاحظات والتحليلات ، وبناء على الواقع الذي نعيشه ، على صعيدي الممارسة والنظرية ، أننا لم نصل بعد الى الظروف الموضوعية ولا الذاتية لقيام ثورة عربية ، بالمعنى الحقيقي للكلمة لا بالمعنى اللفظي السطحي ؟**

ــ تماما • فالشيء المفجع هو ، على وجه الدقة ، رضوخ عبد الناصر للضغط الدولي في هذا الظرف التاريخي بالذات ، وقبوله بالبديل السياسي • اذ ان المقاومة وحلفاءها ، الآن ، على المفترق الذي كان من الممكن ، خلال سنة أو سنتين أن يؤدي الى القفزة الثوريةالتي يتوقف عليها تحول المقاومة الى ثورة شعبية •

*** في حال تطويق المقاومة والقضاء عليها ، هل تأمل بقيام بذور ثورية منها ذاتها ، أو من تحركات عربية أخرى ، كالتحركات القائمة الآن مثلا في الخليج العربي ؟**

ــ أنا شخصيا أتفق في الرأي مع موقف أحد شبان الجبهة الشعبية الذي أخذت منه حديثا في صيف ١٩٦٩ ، قبل استشهاده في أثناء عملية عبر الاردن ، « ان القضاء على المقاومة الفلسطينية وقبول الحل السلمي سيؤديان الى القضاء الكلي ، في جيلنا ، على الوضع الثوري في العالم العربي ، والى تثبيت الاوضاع الراهنة في البلدان العربية كلها ، والى قمع أية حركة جماهيرية ثورية ، والى قبول الاستعمار الصهيوني والى التعاطف مع الامبريالية الجديدة • »

**هشام شرابي**

حليم بركات

# الكاتب العربي والسلطة

## أ - مسألة علاقة الكاتب بالسلطة

أعتقد ان التحديدات المغلقة لدور الكاتب وعلاقتـــه بالسلطة تسيء الى الكتابة ، بالاضافة الى كونها تعميمات سطحية وغير صحيحة · أشير هنا الى تلك التحديدات المطلقة الجازمة التي تفترض وجود بديلين لا غير ، أحدهما ايجابي والاخر سلبي · أشير بكلام اخر ، الى تلك الاستنتاجات القاطعة التي لا تأخـذ الاوضاع القائمة بعين الاعتبار مما يوحي بأنها تنطبق في كل مكـــان وزمان · يمكن أن نعتبر أن نظرية الفن للفن تحديد مغلق اذ ترسم دائرة واضحة الحواجز ترى ما يقع ضمنها ايجابيا وما يقع خارجها سلبيا · وتكون نظرية الالتـــزام مغلقة بقدر ما تحدد الموضوعات التي يجب أن يهتم بها الكاتب وبقدر ما تجزم أن موضوع الالتزام قد حسم الموضوعات التي يجب أن يهتم بها الكاتب وبقدر ما تجزم ان موضوع الالتزام قد حسم « ولم يعد صالحا للحوار والنقاش » · هناك بحسب هذا المفهوم نوعان من الكتابة لا ثالث لهما : كتابة الفن للفن ، وكتابة الفن للحياة · أولهما سلبي وثانيهما ايجابي · وتضيق دائرة الالتزام حين توحي بأن الكاتب يجب أن يهتم بالضرورة بقضايا المجتمع كما تحددهـا السلطة أو الحزب أو الرأي العام · وتتسع دائرة الالتزام بقدر ما تترك للكاتب الحق والحرية في تحديد قضايا المجتمع المهمة من زاويته الخاصة نتيجة لتفاعله الوثيق مع المجتمع ومؤسساته وفئاته ، وبقدر ما تؤكد أن الكاتب ، حتى حين يهتم بقضايا المجتمع كما تحددها السلطة أو الحزب أو الرأي العام ، لا يعني هذا انه ملزم بتبني وجهة النظر نفسها لهذه القضايا · حين لا تتسع دائرة الالتزام بهذا المقدار ، يصبح الكاتب ، بحسب هذا المفهوم ، ملزما بقضايا مجتمعه كما تحددها الدولة أو الاحزاب القائمة أو حتى ما يسمى الغالبية الصامتة · مثل هذا الاتجاه السلطوي في مفهومنا لعلاقة الكاتب بالسلطة يحرم الكاتب مـن

حرية البحث والتعبير ويلغي الاكتشاف ويمنع التفاعل بينه وبين المجتمع ، بينه وبين المستقبل ، وحتى بينه وبين نفسه ٠

## نماذج من آراء الكتاب

وقد اهتم بعض كتابنا بالعلاقات التي يجب أن تقوم بين الاديب والدولة وخرج معظم الذين تمكنت من الاطلاع على وجهة نظرهم بتحديدات مغلقة ٠ يرى ميخائيل نعيمة أن العلاقة المثلى بين الاديب والدولة هي الا يكون هناك علاقة ، فقد كتب عام ١٩٥٣ يقول ان عدم اهتمام الدولة بالادب ليس « من سوء طالع الادب » بل من حسن طالع الادب ان يحيا بحيوية فيه لا في الدولة ٠ وهناك أدباء ينعون على الدولة اهمالها للادب ٠ فهم يريدون منهـــا ان « تشجعهم » بابتياع قسم من نتاج أقلامهم ، أو باسناد وظيفة اليهم ، أو بتسخير أبواق الدولة للاشادة بمواهبهم ٠ لقد ساء ما يبتغون فهم من حيث لا يعلمون يبتغون لاقلامهم الرق ٠ فالدولة ما عدت كونها هيئة مؤلفة من رجال ذوي أغراض وذوي مطامع ٠ حتى لو تنزه كل رجال الدولة عن الاغراض والمطامع الشخصية بقيت للدولة أغراضها ومطامعها ٠ انه لمن الخير للادب أن يبقى طليقا من شباك الدولة وبعيدا عن الاهواء التي تعصف بسياستها وبرجالها من حين الى حين » ٢ ٠ لا أعتبر هذا المفهوم مغلقا لانه يفضل علاقة اللاعلاقة ، بل لانه يلغي احتمال وجود أية علاقة ايجابية مع الدولة ، فدون تعيين أي مكان أو زمان ودون أي تمييز بين أنواع السلطات المختلفة يخرج نعيمة باستنتاج جازم يؤكد أن على الاديب « ان يبقى طليقا من شباك الدولة » ٠

ويتحدث رئيف خوري عن وجود تعارض صميمي بين الاديب والدولة بعد أن يذكرنا بالحوار الذي جرى بين الاسكندر المقدوني وديوجين حين سأل الاول الاخير أن يعرض عليه حاجاته ، فأجابه « خل بيني وبين الشمس » ٠ ويستخلص رئيف خوري انه « ليس ينتظر الادب في كنف الدولة الا ما ينتظر الزهـر اذا قطف من الحقل ليوضع في آنية بين أربعة جدران ٠ لا يصح للادب أن ينكس رايته ليسعى تحت راية الدولة ولو نقشت على الرايتين ، في وقت من الاوقات ، شعارات واحدة ٠٠٠ ينبغي للادب ، أيا كان الحال ، ان لا يتعطل من منبر نقد صارم للدولة ٠٠٠ ان الادب لا ينبغي له أن ينسى ان بينه وبين الدولة تعارضا صميميا » ٣ ٠ الانغلاقية في هذا المفهوم هي ذاتها كما في مفهوم ميخائيل نعيمة بالرغم من الاختلاف في الحل الذي يقترحانه ٠ هنا ، كذلك احتمالان لا غـير أمام الاديب ، والاحتمال الايجابي هو ان يكون ناقدا للدولة أيا كانت الحال ٠ ليس هناك تصور لاحتمالات عدة بامكان الاديب أن يختار من بينها مما لا يتعارض معه كأديب ، أو تصور لوجود أنواع مختلفة من السلطات من هذه الناحيـة ، بالاضافة الى أن استنتاجه صيغ بشكل ينطبق على أي مكان وأي زمـــان دون استثناء ٠

ولا يختلف مفهوم فؤاد الشايب عن المفهومين السابقين من حيث ميله نحو الانغلاقية في وصف علاقة الاديب بالدولة • من تعليقاته الجازمة قولـــه ان « المفكرين والعلماء والادباء ورسل الفن انما يمثلون وحدهم طموح الاستمرار في كل ما هو جميل وحق وحقيقة » ٤ • وهو يتحدث عن « الحقيقة والجمال » على أنهما « قيم غير اجتماعية » لانهما - ينشدان لذاتهما » • لقد دلل علم الاجتماع على خطأ هذا المفهوم ، ونقض هذا المبدأ الذي يعتمده الشايب ليتوصـــل الى استنتاج قاطع بأن الدولة يجب أن تترك مناطق التفكير حرة ، والاديب وشأنه « فهو لا يريد أن يعطي شيئا ولا أن يأخذ شيئا ، انه يمارس الحب عبادة ، وكلما شعر بظل الدولة خفيفا على حريته ، شعر بأن ثمة شيئا يملأ رحاب الشمس » ٥ •

هذه المفاهيم ترى الدولة مؤسسة ثانوية في حياة المجتمع ويمكن تجنبها كما كان يراها المفكرون السياسيون الاحرار في القرن التاسع عشر في اوروبا • وقد برهن الزمن خطأ هذه النظرية كما سنرى في قسم لاحق من هذه الدراسة • هنا أرى ان بحث مسألة علاقة الكاتب بالسلطة يجب أن يبدأ بمحاولة تفصيلية لمعرفة أنواع العلاقات المختلفة التي يمكن أن تقوم بين الكاتب والدولة وكيف تختلف هذه العلاقات باختلاف الزمان والمكان ، والاوضاع السائدة في المجتمع ، وطبيعة النظام القائم • أرى أن نأخذ هذا كله بعين الاعتبار ، لاننا قد نفضل نوعا من العلاقة بين الكاتب والسلطة في زمن ومكـــان معينين وتحت ظروف خاصة ، ونرفض هذا النوع في فترة تاريخية مختلفة •

في هذه الدراسة سأحاول أولا أن أصنف بعض العلاقات الممكنة بـين الكاتب والسلطة من زاوية كل منهما مستعينا بأمثلة مستمدة من الواقع العربي تتعلق بمواقف السلطات العربية من الكاتب ، ومواقف الكتاب العرب من هذه السلطات • ثم أصنف الكتاب العرب في الوقت الحاضر بحسب بعدين مهمين هما مدى التزامهم بالقضايا العربية العامة ومدى قبولهم باتجاهات السلطـات وقيمها السياسية • ثم أتحدث عن دور الكاتب العربي الثائر وطبيعة علاقتـه بالسلطة •

## ب - العلاقات الممكنة بين الكاتب والسلطة

هناك علاقات عدة يمكن أن تقوم بين الكاتب والسلطة •

ما هي بعض أنواع العلاقات الممكنة بين الكاتب والسلطة من زاوية كل منهما ؟ ما هي المواقف التي يمكن للكاتب أن يقف ازاء السلطة ؟ كيف يتمثل كل ذلك في المجتمع العربي وما هي العلاقات والمواقف التي يمكن أن نفضلها في الوقت الحاضر ؟

يمكننا ، كما أرى ، أن نميز العلاقات والمواقف التالية على الاقل :

**(١) علاقة اللامبالاة :** قد تسود في مجتمع ما علاقة اللاعلاقة بين الكاتب والسلطة • في هذه الحالة لا تهتم السلطة بالكاتب ، ولا يبدو أن الكاتب يقوم بمحاولات جادة لردم الهوة الفاصلة بينه وبين السلطة او حتى لاقامة جسر بينه وبينها ، فتقتصر علاقتهما على النواحي الثانوية وبطريقة غير مباشرة • طبعا ، بامكاننا أن نجادل ان اللاعلاقة أمر مستحيل ، لكن ما نقصده هنا هو غيـــاب محاولات متعمدة لاقامة علاقات بين الطرفين • واذا ما أبدت السلطة شيئا من الاهتمام بين فترة واخرى فيكون ذلك صدفة او لغاية اخرى غير متعلقة بمهمة الكتابة ، واذا ما رغب فريق من الكتاب في هذا المجتمع أن يلعب دورا فعالا في الحياة السياسية اكتشف أن الطرق مسدودة ومجالات التواصل غير متوفرة • وحين يجري أي نوع من الاتصال ، أو حين تبدي السلطة شيئا من الاهتمـــام يكون ذلك صدفة أو لغاية أخرى غير متعلقة بمهمة الكتابة ودورها في المجتمع •

## الكاتب اللبناني والدولة

يتمثل هذا النوع من العلاقة الى حد بعيد بموقف الدولة اللبنانية مـــن الكتابة وبتجاوب الكاتب اللبناني مع هذا الموقف • لا تهتم السلطات اللبنانية بشؤون الكتابة وقضاياها ولا تتأثر بها ، ولا تتدخل بشؤونها • ويشعر الكاتب نتيجة لذلك ان بامكانه أن يعبر عن آرائه بحرية ودون أي ضغط مصطنع • المجال فسيح أمامه للتحدث حول القضايا التي يريد • واذا ما تدخلت السلطة بشؤونه فيكون ذلك بضغط من ارادة خارج ارادتها • في الحالات القليلة التي تعرضت فيها الدولة اللبنانية للمفكرين أو لانتاجهم ، كما حدث تجاه عبد الله القصيمي وصادق العظم وليلى بعلبكي ، لم تكن الدولة هي المبتدئة بل انهـــا فعلت ذلك بضغط من قبل فئات داخلية وخارجية يصعب على الدولة ان تغضبها• وفي جميع هذه الحالات النادرة أو معظمها وجدت الدولة اللبنانية نفسها في حرج شديد ، وحاولت جادة أن تطمس المشكلة أو تتجنبها أو تماطل في تأجيلها استعدادا للانسحاب من منطقة التصادم التي تجد أن لا مصلحة لها فيها • ان الدولة اللبنانية تجد نفسها بمأمن بقدر ما تترك للمفكر الحرية لينفس بالكلام عن كربه وغضبه ومعاناته فيختبر حالة من حالات « التطهر » ويصبح بذلك أكثر استعدادا نفسيا لمعايشة مصادر شكواه ومعاناته •

كذلك تجد الدولة اللبنانية نفسها تكرم الكتاب أو تشجعهم صدفة أو لغايات أخرى لا علاقة لها بالكتابة كما حدث مؤخرا بالنسبة الى المهرجانات التي أقيمت لجبران • أطلق فكرة مهرجان جبران عدد من أساتذة اللغة الانكليزية وآدابها في الجامعة الاميركية فاهتمت بها وزارة السياحة واستخدمتها لاغراض سياحية فاذا بالمؤسسات التي تمرد عليها جبران تمتصه وتستعمله لاهدافها الخاصة •

وما هو موقف الكاتب اللبناني من هذه اللامبالاة ؟ انه في مجمله موقف

لا مبالاة كذلك ، وان بدأنا نلمس أخيرا محاولة تدخل بشؤون الكاتب كما يبدو من مشروع الهرم الثقافي ومحاولة تململ عند الكتاب • ورغم ان الكاتب اللبناني ينعم بحرية لا ينعم بها بقية الكتاب العرب ويسر لانه غير مضطر للتعامل مع الدولة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية ، فانه بدأ في الوقت ذاته يشكو من عدم قدرة الدولة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية ومن عجزه عن الاسهام في تغيير المجتمع • وبذلك يمكن القول ان قلة من الكتاب تقف موقف الناقد الذي يكشف ضعف الدولة وتناقضاتها ، وقلة القلة تقف موقف الثائر الذي يريد أن يغير النظام اللبناني تغييرا أساسيا • بل ان فكرة التغيير الجذري للنظام اللبناني تبدو فكرة مخيفة وهدامة لعدد كبير من المثقفين اللبنانيين •

واذا ما عدنا الى آراء ميخائيل نعيمه ورئيف خوري وفؤاد الشايب ، نجد أن كلا منهم يفضل أن تقف الدولة موقف اللامبالاة تجاه الكاتب فلا تتدخل في شؤونه • ويبدو واضحا ان ميخائيل نعيمة يفضل أن يبادل الكاتب الدولة اللامبالاة ، فيما يفضل رئيف خوري أن يقف الكاتب موقف الناقد • وليس واضحا ما يريده فؤاد الشايب للكاتب في هذا المجال مع انه يبدو أقرب الى ميخائيل نعيمة منه الى رئيف خوري •

ان علاقة اللامبالاة هذه توفر الحرية للكاتب ، ولكنها لا تفسح له المجال للتأثير في الحياة السياسية • فاذا كان هذا العصر هو عصر السياسة ، يكون الكاتب اللبناني منهمكا بما لا علاقة له بروح العصر وبعيدا عن التأثير في حياتنا المعاصرة •

**(٢) علاقة الاضطهاد :** هذه العلاقة هي عكس علاقة اللامبالاة في كثير من اتجاهاتها ومناحي تصرفها • انها علاقة تصادم بين الكتاب والسلطة مما يجعل هذه الاخيرة تلجأ الى ممارسة الاضطهاد عن طريق السجن والنفي ومراقبة الكتب والمجلات والصحف ومنع الافكار التي تتعارض مع أفكار الدولة • مثل هذه العلاقة قائمة في معظم الدول العربية ، يعاني صعوباتها الكثير من الكتاب العرب مباشرة ومداورة • وتزداد الدول العربية حذاقة في أساليب الاضطهاد فلا تعمد الى أساليب العنف الظاهر بل الى أساليب دقيقة جدا تهدف الى عزل الكاتب وتهديم شخصيته واسكاته •

وانني أميل الى الاعتقاد ان الاضطهاد ، وخاصة ذلك النوع العنيف المباشر ، يمارس في الدول العربية الرجعية أكثر مما يمارس في الدول العربية التقدمية التي تلجأ الى الاضطهاد غير المباشر والى الوصاية كما سنرى في القسم اللاحق من هذه الدراسة • ان الدول الرجعية أكثر ميلا لاستعمال الاضطهاد المباشر لاسباب عديدة من أهمها ان هذه الدول أقل قدرة على كسب تأييد المفكرين من الدول التقدمية • والسبب الاهم هو كون المفكرين أكثر الفئات امكانية على التحرر من مصالح الطبقات التي ينتمون اليها وأشدها رغبة في

تغيير المجتمع ومساندة الحركات اليسارية • يرى عالم الاجتماع الالماني كارل مانهيم ان المفكرين لا يؤلفون طبقة ، وتنقصهم مصالح خاصة مشتركة أكثر من أي فئة اخرى • ان المفكرين المتحدرين من طبقات برجوازية هم أقل تأثرا بطبقتهم من بقية فئات أو أبناء هذه الطبقة • ذلك يعود ، كما يقول مانهيم ، الى أن المفكرين بسبب نوعية ثقافتهم وتدريبهم قادرون على مواجهة مشكلات العصر الحاضر من عدة زوايا وليس من زاوية واحدة وحسب •

بامكان المفكر أن يغير رأيه لانه قادر أن يختبر في الوقت ذاته جوانب عدة ومتناقضة من مشكلات عصره • ان تعرضه لاوجه مختلفة من أوجه المشكلة يجعله أقل اندفاعا في محالفة طبقته من الشخص الذي يرتكز تفكيره واختياره على أوجه قليلة ومختارة من المشكلة ذاتها • « ان المفكر الحديث •• لا يقصد ان يقيم تصالحا أو يتجاهل وجهات النظر المختلفة •• بل هو يبحث عن الازمات ويشترك في قطبيات مجتمعه • ان المفكر الحديث دينامي الاتجاه وهو على استعداد لتعديل وجهات نظره ، وأن يبدأ من جديد لانه يملك أشياء قليلة وراءه ، وكل شيء أمامه » ٦ •

لم تتمكن الدول العربية الرجعية من كسب المفكرين ، بل وجدت نفسها مضطرة ان تلجأ الى الاضطهاد خوفا على نفسها وحفاظا على مصالحها ومصالح المؤسسات والفئات والطبقات المتحالفة معها • لذلك وجد المفكرون المتحررون أنفسهم في معركة غير متعادلة القوى مع الدولة والدين والعائلة والطبقات الاقتصادية المستفيدة من الاوضاع القائمة والتي تسيطر على وسائل النشر والاعلام من كتب ومجلات وصحف واذاعة وتلفزيون ومدارس • وأظهر الكثير من الكتاب العرب مقاومة للاضطهاد فكان نصيبهم السجن والنفي والحرمان من الحقوق المدنية والموت البطيء • وفضل بعض الكتاب الرضوخ أو الصمت أو النفي الاختياري • من ميزات الكتابة في الدول العربية المحافظة ، وخاصة في العراق في الخمسينيات ، ان الكتاب يلجأون الى الرمز في التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم ، ويميلون الى تأليه الشعب والكتابة عن آلامه وحرمانه • لذلك بلغ أدب العراق في تلك الفترة درجة فنية رفيعة ، وليس صدفة أن الشعر العربي الحديث انطلق بزخم من أرض العراق على يد أدباء عانوا الاضطهاد كبدر شاكر الشياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري •

ان الاضطهاد العنيف المباشر في الدول المحافظة التقليدية لا يقضي على الادب • على العكس ، يبدو انه عامل مهم في نموه • ما حدث في العراق سبق ان حدث في روسيا القيصرية وفي فرنسا قبل الثورة • وربما كانت هذه العصور تمثل قمة النضج الادبي في المجتمعات المذكورة •

**(٣) علاقة الوصاية :** فيما تمارس الدول العربية الرجعية الاضطهاد ، تمارس الدول العربية التقدمية الوصاية ازاء معظم الكتاب وخاصة أولئك الذين

يؤيدونها أو يشاركونها أهدافها كما تمارس الاضطهاد في حالات نادرة ازاء الكتاب الذين يناهضونها والذين ينتمون الى أحزاب تعمل سرا لتعديل الحكم أو تقويضه • انما الطابع العام للعلاقة القائمة في الدول العربية التقدمية كمصر وسوريا والجزائر والعراق، هو طابع الوصاية• تحتضن هذه الدول معظم الكتاب وتؤسس لهم الاتحادات والنوادي والمجلات وتمنحهم مخصصات وجوائز وتوظفهم في مناصب مهمة وتسبغ عليهم نعمها • مقابل ذلك يضع الكتاب الذين يقبلون بالوصاية أنفسهم وأدبهم تحت تصرف الدولة ، فاذا الكاتب الذي يكتب عن الحرية يعمل في الرقابة والذي يكتب عن القومية العربية يسهم في منع دخول المجلات والكتب من الدول العربية الاخرى فيمنع التواصل الضروري للقضاء على الحواجز التي تفسخ المجتمع العربي •

طبعا ، لم تتمكن الدول العربية التقدمية ان تقيم وصايتها على جميع الكتاب فيها • هناك الذين اختاروا النفي الى الخارج ، والذين اختاروا العزلة في الداخل ناذرين أنفسهم الى فنهم ، والذين اختاروا الصمت والموت البطيء ، والذين اختاروا أن يناهضوا السلطة والاتجاهات السائدة سرا فكان مصير بعضهم الاضطهاد المباشر العنيف واللامباشر النفسي • وقد تحولت علاقة الوصاية في بعض الحالات الى علاقة اضطهاد فانتقل البعض من صف الفئة المرغوب بها الى صف فئة المغضوب عليها • الواقع ان علاقة الوصاية هي أكثر العلاقات قدرة على تقسيم الكتاب الى فئتين متنافرتين • حتى أولئك الذين يؤمنون بما تؤمن به الدولة ويشاركونها أهدافها قد يجدون أنفسهم في مأزق يصعب الخروج منه بعد مدة من قبولهم بوصاية الدولة اذ يدركون أن الاهداف شيء والممارسة شيء اخر ، وأن الطرق المتبعة لا تؤدي الى الغايات المنشودة • عند ذاك يمرون في فترة أزمة وجدانية قد تطول ولكنها لا بد أن تنتهي اما بتسويغ الواقع ومحاولة الانسجام معه واما بالخروج الى صف الفئات المغضوب عليها • ويبدو لي ان الغالبية تلجأ الى التسويغ • وقد يجد هؤلاء أنهم هدموا أنفسهم ككتاب لانهم لم يتمكنوا من ابقاء شعلة الحرية والفن متقدة في حياتهم • هذا ما حدث لبعض الكتاب الحزبيين الذين سلموا أنفسهم لاحزابهم وخاصة في حال وصول هذه الاحزاب الى الحكم • ومن الامثلة المهمة على ذلك ما جرى في الاتحاد السوفياتي ، فقد أظهر لينين ومن بعده ستالين ، عكس تروتسكي ، احتقارا للكتابة الطليعية الاختبارية المتطرفة فنيا فماتت هذه الكتابة بانتحار ماياكوفسكي وبقي هذا الوضع سائدا حتى الخمسينيات على الاقل • ان الادب الطليعي يتحمل الاضطهاد أكثر مما يتحمل الوصاية • فيما يلجأ الكتاب الذين يعانون الاضطهاد الى الرموز والى الشعب ويجدون خلاصهم فيه ، يلجأ الكتاب الذين ينعمون بالوصاية الى السلطة ومؤسساتها والى لغة العمل المباشرة ولو باسم الشعب • من أجل كل ذلك أميل الى الاعتقاد أن الوصاية أكثر خطرا على الكتابة من الاضطهاد •

## الاوضاع التي تخلقها الوصاية

ما هو ، اذن ، وضع الكاتب العربي تجاه السلطات التي تمارس الوصاية؟ ما الدور الذي يلعبه فعلا ؟ هنا لن أتحدث عن أولئك الذين رفضوا وصاية الدولة وانصرفوا الى فنهم أو الذين اختاروا النفي أو الصمت أو مناهضة الدولة • سيقتصر حديثي على الذين قبلوا بوصاية الدولة • ما وضع هؤلاء ؟ في رأيي انهم يتصفون بالامور التالية مع اعترافي بوجود تفاوت بينهم وبوجود حالات خاصة :

أولا ، انهم موجَّهون لا موجِّهون • يتبع الكتاب الذين قبلوا بالوصاية تعليمات السلطة ويتصرفون تجاهها تصرف الموظف والمذيع • انهم عاجزون لا يسيطرون على أدواتهم ومضطرون أن يقبلوا بعجزهم ، وذلك لان المفكرين في معظم البلاد العربية لا يجدون وظيفة الا في مؤسسات الدولة •

ثانيا ، يتصف الكتاب الذين قبلوا بوصاية الدولة بالازدواجية في التعبير عن آرائهم • هناك الفكر المطروح كتابة ، وهناك الفكر المطروح شفهيا ، الفكر المعلن والفكر الباطن ، الفكر العام والفكر الخاص • ويكاد الفكران يتناقضان وخاصة اذا ما جرى الحديث الشفهي مع أدباء من خارج بلدهم • انني لا أتحدث هنا عن النفاق ، كأن يتحدث الكاتب مع كل فئة بلغتها ، ويسمعها ما تتمنى أن تسمع • هذه صفة فردية في أساسها • ما اتحدث عنه هو تلك الازدواجية في التفكير التي تأتي نتيجة لطغيان الجهاز السلطوي •

ثالثا ، في الدول التي تمارس الوصاية لا يتمكن الكتاب من انشاء اتحادات أدبية من تحت ، فهي تنشأ من فوق ويعين المسؤولون عنها تقريبا ، بشكل رسمي ، وليس اختيارهم من قبل الكتاب أنفسهم الا شكليا • وكثيرا ما يكون هؤلاء المسؤولون دخلاء على الكتابة أو كتابا من الدرجة الثانية أو الثالثة •

رابعا ، يعاني حتى الكتاب الذين يقبلون بالوصاية مآسي الرقابة المفروضة في معظم الدول العربية ، وقد يأتي الضغط من قبل بعض الكتاب أحيانا اذ انهم لا يكتفون بممارسة الرقابة حسب التعليمات التي يتلقونها من فوق بل انهم يحرضون الدولة في بعض الاحيان ضد بعض زملائهم • لذلك يعاني جميع الكتاب العرب حواجز مصطنعة تحد من الاتصال الفكري عبر حدود الدويلات القائمة • ولذا تتكرر مقررات مؤتمرات الادباء العرب منذ المؤتمر الاول الذي انعقد في بيت مري بين ١٨ و ٢٦ أيلول ١٩٥٤ حتى اليوم ، دون أن تنتقل الى حيز الواقع • من بين مقررات هذا المؤتمر مثلا ما يلي : المطالبة « بضرورة النص على ضمانة حرية الفكر والتعبير عنه في دساتير الدول العربية وتشريعاتها والغاء كل ما يعطل هذه الحرية » و « بالا يضطهد انسان بسبب ارائه الحرة »

و « بحرية انتقال الكتاب العربي وسائر المطبوعات العلمية والادبية وتسهيل ذلك » .

خامسا ، هناك ازدواجية في نظرة الدولة التي تمارس الوصاية الى أهمية الادب . تؤكد هذه الدولة على أهمية الادب وتشك في الوقت ذاته بجدواه تجاه المجتمع فتتصرف أحيانا وكأن الادب والادباء مجرد وسيلة من الوسائل التي تستعملها للحفاظ على وجودها وتحسين صورتها وكسب ولاء الشعب . تعلن عن استعدادها للاستفادة من أفكاره ولكنها في الوقت ذاته تعتبره خياليا مجردا لا صلة له بالواقع وخاصة في زمن الازمات . ولا يبدو الادباء الذين يقبلون بالوصاية أكثر ايمانا برسالتهم من السلطة أو لا يناضلون في الاوقات المناسبة من أجل تجاوز عجزهم وتثبيت دورهم الفعال ، بل قد يؤيدون السلطة حتى حين تكون السلطة ضد الثقافة .

**(٤) علاقة المشاركة :** هناك أخيرا علاقة المشاركة الحرة التي يمارس فيها الكاتب دوره الفعال في تقرير مصير المجتمع وفي انماء طاقاته الفنية دون رهبة من قصاص أو اعتداء على حقوقه المدنية . قد يتعاون الكاتب مع الدولة دونما الزام خارجي ، وقد ينقدها ويكشف تناقضاتها دون أن يتعرض للاضطهاد . هناك ، بكلام اخر ، مناخ عام يساعد على قيام حوار حر دائم بين السلطة والكاتب . الدولة ليست لا مبالية تجاه الثقافة والفكر ، بل ترى من مهماتها الاساسية رفع مستوى الثقافة العامة ونشر العلم ومساعدته عن طريق توفير المدارس والجامعات ومؤسسات الابحاث وتسهيل التبادل الثقافي مع المجتمعات الاخرى . كذلك ترى من واجباتها توفير مجالات الاتصال الدائم بالتيارات الفكرية والاستفادة من ارائها ، والمحافظة على حقوق المفكرين وحريتهم أكانوا مؤيدين أو معارضين .

تجاه ذلك ، يشعر الكاتب انه ملزم بقواعد داخلية يحكم على الاشياء في ضوئها ويحتفظ لنفسه بحق تفسير الامور ورؤيتها من زاويته الخاصة والتعاون مع الدولة أو الثورة عليها . الواقع انه لا يرى بالضرورة وجود احتمالين ، التعاون أو النقد . قد يكون النقد نوعا من التعاون اذ يساعد في كشف التناقضات والدوافع التي تعيق سير المجتمع . انه يحرص على اعلان الحقائق والمعلومات بموضوعية . ان دوره الاهم هو البحث عن الحقائق واعلانها .

هل تتوفر هذه العلاقة في البلاد العربية ؟ هل تتوفر في أي بلد اخر ؟ واذا كانت غير متوفرة في أي بلد في العالم ، الا يعني ذلك انها مثال وهمي لا يمكن تحقيقه ؟

في رأيي ان هذه العلاقة غير متوفرة في أي بلد عربي ، فالمقصود بعلاقة المشاركة ليس ذلك التعاون المؤقت في الفترات العصيبة التي تمر بها الامة كأن تكون مهددة من الخارج كما هو الحال في الدول العربية فيرتضي الكاتب ان يتنازل عن حقوقه مؤقتا . في البلاد العربية علاقات وصاية واضطهاد ولا مبالاة

وليس هناك علاقة مشاركة حرة حقيقية •

## هل التعارض بين الكاتب والسلطة حتمي ؟

قد يقال ان مثل هذه العلاقة غير موجودة في أي بلد في العالم • ربما يكون ذلك صحيحا ، انما يمكننا القول ان هناك بعض المجتمعات التي تمكنت ان تقترب أكثر من غيرها نحو هذا المثال • انه من التشاؤم الكلي أن نعتبر ان طبيعة الدولة وطبيعة الكتابة تجعلان التعارض الصميمي بين الكاتب والسلطة أمرا حتميا • يرد رئيف خوري في مقالته المذكورة هذا التعارض الصميمي الى طبيعة الدولة ( التي يكاد يعتبرها غريزة كما يعلن ) والى طبيعة الادب • في رأيه ان الدولة أولا ، « أداة ضغط وتقييد واكراه •• لمصلحة قسم من المجتمع » وانها ، ثانيا ، « أداة تقنين » تأخذ بالضرورة بالتفكير العملي • مقابل ذلك تطلب طبيعة الادب الحرية وأن يكون للجمهور ككل « وتتسع آفاقه في وقت واحد لكل ما يعني الشعور البشري » •

أعتقد أن هذا المفهوم لطبيعة الدولة مفهوم مغلق لا يرى سوى احتمال واحد حتمي هو أن تكون الدولة دائما أداة اكراه لمصلحة قسم من المجتمع • ان مدى تمثيل الدولة لفئات المجتمع ككل قد يكون مستحيلا انما هناك امتداد واسع بين قطبي التمثيل الكلي والتمثيل الجزئي • بكلام اخر قد يمكن تطوير الدولة بشكل يكفل تمثيلا واسعا ان لم يكن تمثيلا كليا • من هنا كان دور الكاتب المشارك مهما لانه ينقد حتى ثورته ، ويسهم في تغيير المجتمع والدولة وتحويلها نحو المثال المنشود • ومشاركة الكاتب في عملية التحويل هذه لا تعني بالضرورة انه سيفقد حريته حتما ، بل ربما ليس بامكانه أن يحصل على الحرية الا من خلال المشاركة والتفاعل فهو لا يسعى نحو تلك الحرية التي يتصور البعض انها يمكن أن توجد خارج المجتمع وفي الفراغ • ان علم الاجتماع وعلم الاجتماع النفسي يجمعان كما أعتقد على القول بأن الانسان لا يستطيع أن يكون شخصيته وعقله وذاته الا في المجتمع ، ومن خلال تفاعله مع مؤسساته • هذا التفاعل لا يعني بالضرورة التفاعل الانسجامي التعاوني بل يعني كذلك التفاعل الثوري النقدي • ان طبيعة الانسان والمجتمع ومؤسساته على درجة عالية من الليونة ، وامكانية تحولها ربما لا حد لها • لذلك اعتبر ان أعلى درجات التشاؤم هي ان نعلن عجزنا عن خلق مستقبل لم يعرفه الواقع الانساني حتى الان •

## ج - تصنيف الكتاب العرب بالنسبة الى مدى التزامهم بالقضايا العربية ومدى قبولهم بالسلطات القائمة .

اذا كانت علاقة المشاركة هي العلاقة الفضلى بين العلاقات الاربع التي

ذكرت ، فلا بد من مزيد في التفصيل حول دور الكاتب العربي الحاضر والمواقف التي يجب أن يقفها من الدولة والمجتمع • ان ظروفا عدة قد تمنع قيام علاقة المشاركة هذه • انما الهدف هو الاقتراب منها بقدر الامكان • هل يقترب منها الكاتب العربي ؟ ما هو دوره وموقفه ؟ ما يجب أن يكون دوره وموقفه ؟

تجاه كل ذلك ، هل يمكن تصنيف كتابنا بأي شكل من الاشكال ؟ طبعا ، بالامكان تصنيفهم حسب ابعاد ومستويات عدة • بالنسبة للموضوع الذي نعالج ، أرى ان نصنفهم بحسب بعدين مهمين • هما مدى التزامهم بالقضايا العربية العامة ومدى قبولهم بالنظم السياسية القائمة • فيما سبق صنف الكتاب العرب بحسب بعد واحد هو مدى الالتزام بالقضايا العربية فكثر الحديث حول نظريتين في الادب وصنفين من الادباء : نظرية الالتزام ونظرية الفن للفن ، أو الاديب الملتزم والاديب غير الملتزم • لقد آن لنا أن نخرج من هذه الانغلاقية ونصنف الكتاب بالاضافة الى ذلك حسب بعد اخر هو مدى قبولهم بالنظم السياسية القائمة والقيم والاتجاهات الاجتماعية السائدة وخاصة كما تتمثل بالسلطة وتصرفها •

قبل أن نصنف الكتاب حسب هذين البعدين أرى أن نوضح ما نقصد بهما • الالتزام بالقضايا العربية العامة يعني الاهتمام بتلك المشكلات والازمات العامة التي تؤثر في مجرى حياتنا تأثيرا بالغا حتى ليتوقف مصيرنا على نوع استجابتنا لها • ولست ممن يؤمنون بتعداد هذه القضايا وفرضها على الكتاب • للكاتب نفسه أن يحدد ما يعتبره قضايا مهمة ومصيرية وما يعتبره قضايا ثانوية • انما أؤمن أن الاديب يجب أن يقوم بمحاولات جدية لتحديد هذه القضايا • قد يرى البعض ان قضية فلسطين هي القضية الاهم ، وقد يرى البعض الاخر ان سيطرة الدين على حياتنا هي القضية الاهم ، وقد ترى فئة ثالثة أن قضية الطبقات واستغلال الانسان للانسان هي القضية الاهم • لا بأس ان تتنوع الاراء • المهم ان ننطلق من رؤية خاصة لحياة المجتمع تقوم على تحليل دقيق وجدي للمشاكل التي تؤثر في مصير المجتمع ، ولا نكتفي بالتعبير عن مشاعر وآراء ذاتية قد يشاركنا اياها عدد غير قليل من الافراد ولكنها لا تتصل بنوعية الحياة التي نحياها • وأود أن أذهب أبعد من ذلك فأقول ان الكتاب قد يهتمون بقضية واحدة مثل قضية فلسطين ، انما من الضروري ان تكون للكاتب رؤيته الخاصة فيأتي نتاجه متفردا ومميزا عن أي نتاج آخر حتى ذلك النتاج الذي يدور حول الموضوع نفسه • لذلك اعتبر ان الادب المهم هو الادب الذي يتناول القضايا العامة من خلال القضايا الخاصة أي كما نعانيها ــ والعكس صحيح • هنا تنهار الحواجز بين القضايا العامة والقضايا الخاصة • هنا قد يتفوق الفن حتى على العلم لانه أكثر قدرة على هدم هذه الحواجز • بكلام اخر ، بينما يحاول الفن هدم الحواجز بين القضايا العامة والقضايا الخاصة عن طريق المعاناة الذاتية ، يحاول العلم أن يضع حواجز بين هذين النوعين عن طريق الدعوة الى التحرر من الذاتية •

## اربعة أنواع نموذجية

بعد أن حاولت ايضاح ما عنيته بالقضايا العامة ، أود أن أعود الى مسألة تصنيف الكتاب العرب بحسب البعدين المذكورين : مدى الالتزام بالقضايا العامة ومدى القبول بالنظم السياسية القائمة •

اذا ما أخذنا هذين البعدين بعين الاعتبار ، يبدو لي انه بامكاننا ان نميز أربعة أنواع نموذجية يقترب الكتاب العرب منها أو يبتعدون بدرجات متفاوتة •

أولا ، هناك الكاتب المنعزل ، وهو غير الملتزم بالقضايا العربية وغير المبالي بالنظم السياسية القائمة فيبدو انه يتناول قضايا جد ذاتية أو قضايا فرعية أو قضايا لا علاقة لها بمشكلات المجتمع والقوى التي تقرر مصيره • قد ينسحب من المجتمع حتى بالمعنى الحسي وينفرد في مكان بعيد عن صخب الحياة محاولا أن يقصر علاقاته مع الاخرين بقدر ما يمكن للانسان أن يفعل ذلك • يستمد موضوعاته من التفكير التأملي الغيبي وليس من تجاربه في المجتمع وتفاعله مع الاخرين • انه غير متصل بالحياة العربية وبأنظمتها بشكل مباشر • وبعض هؤلاء أكثر اتصالا بالمجتمعات الاخرى بالرغم من أنهم يعيشون في البلاد العربية •

ان الكاتب المنعزل مشمّع ضد الحاضر العربي لا يعاني أزماته الاجتماعية ـ السياسية وغير مصاب بالالام التي تنبع منها • قد يكون ، من حيث المزاج ، مطمئنا ، متفائلا ، سعيدا بالعيش ضمن صدفته • يبحث عن الغبطة في ممارسة فنه ويتصرف كأن مملكته ليست من هذا العالم • ينفصل عن الجمهور ويتعالى عليه ان لم يضع نفسه في موقف معاكس له • لم ينهض في الدول العربية من يفلسف هذا الدور ( وان كان البعض يزاوله ) كما جرى في اوروبا • لقد كتب الكاتب الاسباني الشهير اورتيغا أي غاتسيت يدعو المفكرين الى عدم الخوض في المشكلات الاجتماعية • وقد ساعد المفكر الفرنسي جوليان بيندا ( ١٨٦٧ ـ ١٩٥٦ ) في كتابه « خيانة المفكرين » بنشر فكرة عدم الاشتراك في الحياة الاجتماعية ـ السياسية • وقد كتب الكاتب الروائي جورج اوريل كتابا مهما ـ « داخل الحوت » ـ هاجم هذا الاتجاه وخاصة كما يتمثل بالكاتب الاميركي هنري ميللر •

يشغل الاديب المنعزل نفسه باهتمامات نظرية ويستمد غبطة من ممارستها • انه غريب عن الميول السياسية ويدعو مع غوتيه الى ترك السياسة للدبلوماسيين والجنود • انه من عبدة الجمال وأقرب ما يكون الى دي فينشي الذي لامه مايكل انجلو لعدم اهتمامه بقضايا فلورنسا فأجابه « الاهتمام بالجمال احتل قلبي كله » •

ثانيا ، هناك الكاتب المتمرد وهو غير ملتزم بالقضايا العربية العامة ، ولكنه يظهر في الوقت ذاته ميلا واضحا لرفض القيم والاتجاهات التي تقوم

عليها النظم السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع • انه فردي يرفض الانتماء الحزبي ويثير موضوعات يعتبرها في أساس الوجود ومعنى الانسان • انه أكثر حرارة من الكاتب المنعزل وأكثر تعاطيا مع وضع الانسان في المجتمع ، ولكنه يرفض أن يخوض في المشكلات العامة لانه فردي أكثر منه اجتماعي • ويأتي رفضه للنظم السياسية نتيجة لاحساسه بضغط هذه النظم على الفرد • انه ناقد للمؤسسات الاجتماعية أكثر منه للمؤسسات السياسية ، لانه يعتبر هذه الاخيرة مظهرا من مظاهر تلك • وهو يميل الى التشديد على التجديد في جميع مناحي الحياة • ويتحدث بلغة جديدة ويستمد غبطة نادرة من فنه • وكثيرا ما يكون شديد الانفتاح الذهني على الحضارة الحديثة في العالم فيعاني مشكلاتها • لذلك يكون مزاجه بعكس مزاج المنعزل فيميل في حياته ونتاجه الى القلق والاغتراب والتشاؤم والتصادم مع نفسه بقدر ما يتصادم مع السلطة والاخرين • ومن منابع مزاجه هذا انه يضع نفسه موضع التعاكس مع جميع المؤسسات وكثيرا ما يكون غير ملزم بالقضايا العامة لانها كثيرا ما تكون قضايا حددتها المؤسسات نفسها وأعطتها حجمها وعمقها وطبعتها بخاتمها الخاص • فاذا ما تناول هذه الموضوعات يصبح تابعا في نظر نفسه ينشغل بأسئلة لم يسهم في اثارتها • انه ، باختصار ، فردي يثير أسئلته الخاصة ويولع باثارتها أكثر مما يولع بالاجابة عنها ، وينكر أهمية التقاليد ملحا على ضرورة اختبار أي شيء مهما بدا متناقضا مع أفكارنا المسبقة • وهو لذلك يؤكد على العفوية واللاوعي لانهما جوهر فرديته ومصدر تميزه •



## الالتزام والثورة

ثالثا ، هناك الكاتب الملتزم ، وهو ملتزم بالقضايا العربية العامة ومؤيد لنظام سياسي معين ضد نظام اخر • انه بشكل عام مرتبط بنظام أو أكثر من النظم التقدمية في البلاد العربية ومناوىء للسلطات الرجعية والقوى الاستعمارية • انه يرفض الفن من أجل الفن والعلم من أجل العلم ويهتم بتلك المعرفة التي يمكن تطبيقها فتدفع المجتمع الى الامام • يطالب بأن يتفاعل الكاتب مع مجتمعه ويكون مسؤولا تجاهه • ولكي يتمكن من تأدية دوره الفعال يميل للكتابة بوضوح وبلغة تقليدية التركيب والصور فتتمكن الجماهير من التجاوب معه • لغته هي لغة الدعوة للعمل وبالتالي لغة تتجنب التجريد والرموز الغامضة وتقوم على الكلام المباشر • ولان أحداث الماضي وصوره تثير المخيلة ، نراه يلجأ الى الماضي يستعيد منه كل ما يبعث في نفس الجماهير الاعتزاز بنفسها وتاريخها ويقوي معنوياتها في مواجهة الحاضر • انه فخور بالتراث وينطلق في معظم الحالات من أطر متوارثة تجعله أكثر قدرة على الاتصال بالجماهير حتى ليبدو أحيانا انه يريد أن يغير الحاضر باتجاه الماضي لا باتجاه المستقبل •

ومن مزايا كتابته كذلك انه مولع بالفكرة لدرجة يبدو عندها بانه لا يهتم

بالناحية الفنية الا عرضا • كذلك يمتاز بميل شديد نحو الاهتمام بالاحداث والقضايا الانية دون ربطها بالقضايا الاساسية ذات المدى البعيد وبالاوضاع الاجتماعية – الاقتصادية – النفسية التي تؤثر في نوعية استجابة العربي لتحديات العصر • انه يصنف الاشياء ولا يحللها • واذا ما فسرها أعطاها تفسيرا ضيقا ومال الى رفض التفسيرات الاخرى •

قد يكون الكاتب الملتزم حزبيا وقد لا يكون • وكثيرا ما يكون الكاتب الحزبي ملتزما ، انما ليس من الضروري أن يكون كذلك وانما تدل التجارب في البلاد العربية على أن الكتاب الحزبيين غير الملتزمين بالمعنى الذي وصفناه كثيرا ما يصطدمون مع جهاز الحزب •

أما مزاج الكاتب الملتزم فيميل الى الحماسة وعدم التسامح والغضب والتفاؤل والاستبشار بأي انتصار مهما كان بسيطا والميل الى نسيان أسباب الانكسارات السابقة •

رابعا ، هناك الكاتب الثائر ، وهو كاتب ملتزم بالقضايا العربية ، ولكنه في الوقت ذاته رافض للنظم السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع العربي• علاقته مع السلطات القائمة التقدمية منها والرجعية هي علاقة رفض وتجاوز فهو لا يرى بين الدول العربية القائمة دولة واحدة ثورية بالمعنى الذي يريد • الثورة بالنسبة اليه تهدف الى تغيير المجتمع العربي تغييرا جذريا يتناول البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كما يتناول القيم والمبادىء التي تقوم عليها • انه شغوف بتغيير اللغة وأطر التفكير وأساليب الحياة والتربية وعلاقة الانسان بالدين والعائلة والمدرسة وغيرها من المؤسسات بقدر ما هو شغوف بتغيير الحياة السياسية الراهنة • من هنا ينشأ اصطدامه بالنظم العربية التي تريد أن تتجاهل كل ذلك بحجة مواجهة قوى خارجية معادية • أقول بحجة مواجهة قوى خارجية لانها اثبتت انها حتى سنة ١٩٦٧ على الاقل لم تكن في الواقع تعد لمواجهة هذه القوى الخارجية • ربما كانت تعد لذلك ، ولكنها لم تكن تملك الاسس التي تؤهلها لمعرفة التحدي • وهذا الكاتب الثوري يهتم بالاسس التي بدونها لا يكون المجتمع قادرا على مواجهة تحديات العصر الحديث •

الثوري ، بكلام اخر ، يشارك الملتزم اهتمامه بالقضايا العربية العامة وربما ينتمي مثله الى حزب أو جماعة وربما يتعاون في الفترات العصيبة مع بعض الدول العربية التقدمية ، لكنه يختلف عنه بأنه يهتم بوجه خاص بالقضايا الاساسية التي تشمل الدين والعائلة والجنس والتربية بالاضافة الى السياسة • وهو يشدد على أن التحرر الحقيقي هو تحرر العقل على جميع المستويات • وهو يشارك المتمرد اهتمامه بالتحرر من التقاليد ورفض القيم السائدة والتأكيد على فرديته في وجه القوى والمؤسسات التي تسعى لقولبته • وهو مثله كذلك من حيث شغفه بفنه وبتغيير اللغة واطر التفكير ، ولانه يتحدث بلغة جديدة وينطلق من اطر غير تقليدية ، قد لا يصل انتاجه الى عامة الشعب ، ولكنه أكثر صلة به

من المتمرد لانه من حيث المضمون على الاقل مهتم بالقضايا العامة التي تشغل بال الشعب وان كان له تفسيره الخاص . انه ، بذلك ، يجمع بين الملتزم والمتمرد في الوقت ذاته . من أجل هذا نراه يتصف في حياته وفي انتاجه بأنه يملك مزاجا خاصا تتصارع فيه قوى الفرح والحزن ، التفاؤل والتشاؤم ، الحماسة والبرودة ، الشك والايمان ، الخ . انه يعيش في عالم التوتر والازمات ، أي عالم التقاء جميع الاضداد والمتناقضات .

ولانني أعتقد ان الثائر هو النموذج الافضل كما اعتبر علاقة المشاركة هي العلاقة المثلى ، سأعمد في القسم الاخير من هذه الدراسة الى وصف دور الكاتب الثائر وموقفه من السلطة بمزيد من التفصيل .

## جـ - دور الكاتب الثائر وموقفه من السلطة

بما أن غاية الكاتب الثائر هي ان يغير الواقع تغييرا أساسيا يشمل البنى الاجتماعية - السياسية - الاقتصادية والقيم والمبادىء التي تقوم عليها هذه البنى من أجل خلق مستقبل جديد ، أرى انه يجب أن يتصف بالصفات والنزعات التالية :

أولا ، على الكاتب الثائر أن يهتم اهتماما حقيقيا وغير عابر بالسياسة ، وهذا ما يجمعه بالكاتب الملتزم . ان تغيير الواقع يتطلب ذلك ، فالثورة كما يحددها عدد من دارسيها هي لحظة سياسية في التاريخ تتغير فيها البنية السياسية بسرعة وعنف فيتغير بالتالي اتجاه التاريخ ٧ . ومما يزيد من ضرورة الاهتمام بالسياسة أن نفوذ الدولة يزداد بالنسبة الى غيرها من المؤسسات في المجتمعات الحديثة حتى ليتعذر تغيير أية مؤسسة دون تغيير البنية السياسية . ومن المنتظر أن يزداد نفوذ الدولة في المستقبل ، لانه أصبح من المستحيل أن نحلم بمجتمع متخلف يريد النمو دون قيام دولة مركزية قوية . ان انماء المجتمع وتغييره من مرحلة الى مرحلة عملية معقدة تتطلب رسم مخططات بعيدة المدى ويحتاج تنفيذها الى وقت طويل وجهد متواصل وأموال طائلة وتنسيق بيروقراطي . لقد حلم كل من مفكري اليسار واليمين في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن بحكومات لا مركزية أو مجرد ادارية تملك أقل ما يمكن من النفوذ والسيطرة على المؤسسات الاخرى . غير ان مهمات هذا العصر ومشكلاته أدت الى عكس ما حلموا به ، فاذا بالدولة تزداد نفوذا وسيطرة بدل أن تضعف أو تتلاشى .

ربما من أجل ذلك شدد جورج اورويل على أن هذا العصر « هو عصر سياسي .. وليس بامكاننا تجنب ذلك . عندما نكون على ظهر باخرة تغرق ، ستدور أفكارنا حول الغرق .. ان غزو السياسة للادب كان لا بد ان يحصل . بل كان يجب أن يحصل .. لاننا أدركنا هول الظلم والبؤس في العالم ،

وأصابنا الشعور بالذنب • ان واحدنا يجب أن يفعل شيئا من أجل الخلاص من ذلك ، مما يجعل الاهتمام الجمالي المجرد نحو الحياة أمرا مستحيلا • ٨ »

تجاه هذا التيار يتعذر على الكاتب الذي يهتم بالتغيير أن يقف موقف اللامبالاة تجاه الدولة • لا بد من علاقة ، فلتكن هذه العلاقة علاقة مشاركة لا علاقة اضطهاد أو وصاية •

وعلاقة المشاركة ، كما سبق أن ذكرنا ، لا تعني بالضرورة أن الكاتب سيسلم نفسه للسلطات وينتهي ككاتب مبدع • بامكان الكاتب أن ينتمي الى أحزاب أو حركات سياسية وأن يقيم علاقة مشاركة مع الدولة دون أن يفقد طاقته الابداعية • لقد تبنى ماياكوفسكي الثورة الروسية فكانت بالنسبة اليه تجربة عميقة وحقيقية • كذلك هجر اراغون السوريالية الى الشيوعية دون أن تقضي على نفسه كشاعر • ولم تعق العقيدة الشيوعية مكسيم غوركي او بيكاسو من تحقيق نفسه كفنان أصيل طليعي يحب الاختبار والتلاعب بـــاعادة تركيب الاشياء •

وفي البلاد العربية لم تعق الانتماءات الحزبية وغيرها ابداع شعراء من أمثال أدونيس وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وخليل حاوي ومحمد الماغوط ومحمود درويش وسميح القاسم • بل على العكس من ذلك ، ربما كانت هذه الانتماءات هي التي وفرت لهم منطلقات جديدة دون ان تحد من حريتهم وابداعهم •

لم يتخل هؤلاء الذين ذكرت وغيرهم ، أكان في الغرب أو البلاد العربية ، عن فرديتهم ، بل ربما شعروا نتيجة لتجاربهم السياسية والحزبية ان فرديتهم أكثر عمقا وكثافة وصلة بمنابع الخلق في العالم • لقد تمكنوا أن يجمعوا بين الملتزم والمتمرد في الوقت ذاته •

وكما قد تغني الحركات السياسية الكاتب ، كذلك يغني الكاتب هـــذه الحركات ويسهم في جعلها حية دائمة الحركة والتجدد • الواقع ان المفكر مؤهل الى حد بعيد لان يسهم في جعل المؤسسات أكثر قابلية لاستيعاب الحقائـــق الجديدة ومعايشتها وصهرها في بوتقتها ، وبالتالي ، للتجدد الدائم وتجاوز الحاضر نحو المستقبل • انه مؤهل لان يلعب هذا الدور ليس لان مهمته تتعلق بالابداع وحسب ، بل لانه أكثر امكانية من غيره للتحرر من خلفيته الطبقيـــة والدينية والاتنية والسياسية وغيرها كما أظهرنا في قسم سابـــق من هذه الدراسة • ان المفكر ، بفضل اهتماماته الثقافية وتعرضه للنظريات والاتجاهات الفكرية المختلفة ، يكون أكثر قابلية من غيره للتحرر من خلفيته ورؤية الحقائق بموضوعية متجردة •

ثانيا ، على الكاتب الثائر أن يكون ناقدا للمجتمع ، وخاصة في هـــذه الفترة التحولية من حياتنا • انها ليست فترة عصيبة ، بل هي مرحلة عصيبة يستغرق تجاوزها مدة طويلة من الكفاح والتضحيات والتجارب • اننا نواجه

تحديا كبيرا يهدد أصول وجودنا مما يجعلنا مضطرين أن نختار بسرعة بين أن نستجيب لهذا التحدي ونواجهه بكل قوانا وبين أن نتجاهله ونستمر في السير وراء التاريخ بدل أن نسهم بشكل مباشر في صنعه • ومن خلال استجابتنا لهذا التحدي وممارسة الكفاح سنجد أنفسنا ، رضينا أم أبينا ، نتساءل حول القيم والمبادىء والمؤسسات السائدة في المجتمع العربي فننقدها ونأخذ ما يلائم كفاحنا ونرفض ما يعيقه • من أجل ذلك يخطىء العرب حين يظنون أنهم يؤدون خدمة للفلسطينيين وفلسطين ويتناسون أن قضية فلسطين هي التي تؤدي خدمة للعرب لكونها المطهر الذي سيخرج العرب منه أنقياء بقدر ما يمكن للانسان أن يكون نقيا • بهذا المعنى تشكل الثورة الفلسطينية منطلقا للثورة الاجتماعية والسياسية في البلاد العربية كلها •

ان مشكلة العربي الاساسية في الزمن الحاضر هي انه لا يتمكن من مواجهة الخارج دون أن يتحرر من الداخل ، ويصعب عليه التحرر من الداخل دون مواجهة الخارج • ان عملية التحرر بشقيها يجب أن تكون قضية مهمة من قضايا المفكر العربي ، لا بد أن يكون للنظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله علاقة مباشرة بالحاضر المأساوي الذي نعاني منه وعدم قدرتنا على مواجهة تحديات العصر بالقدر الذي نريد •

مهمة الكاتب ، اذن ، لا تقتصر على فهم الواقع الاجتماعي ووصفه ، بل تتعدى ذلك الى نقده وتغييره • ليس بامكانه أن يقيم هدنة أو صلحا مع الاوضاع والمؤسسات التي تعطل امكانيات الانسان وتمنعه من تحقيق حياة أكثر انسانية• ليس بامكانه أن يتجاهل الدين والعائلة وهما المصدر الاهم للقيم والمبادىء التي تسيّر حياتنا • لقد تجاهلت الدول العربية التقدمية العائلية والتربية والدين ، ولذلك لم تتقدم كثيرا ولم تستحق لقب الثورية • والكاتب العربي ، مهما كان ارتباطه بهذه الدول ، لا يجوز أن يتجاهل مصادر القيم في مجتمعه • انه رائد ثوري بقدر ما ينقد حياتنا ويسهم في تحررنا من القيود والقوالب الاجتماعية والاستغلال والتعصب والظلم والاستبداد وغير ذلك مما يحرمنا من نعمة التحرك والنمو • من هنا ينشأ التصادم بين الكاتب العربي الثائر والسلطات التقدمية حتى ليشعر أحيانا ان الفوارق بين الدول العربية التقدمية والدول العربية الرجعية تتضاءل لدرجة قد تتوحد عندها ضده وضد الثورة • لذلك ، ورغم الحرص على عدم افتعال أزمات بين الحركة الثورية والدول التقدمية ، لا بد من الاشارة الى أن مصير الكاتب الثائر مرتبط بالوقت الحاضر بالثورة الفلسطينية • غير ان ارتباطاته بهذه الثورة أو بالدول التقدمية لا يجوز أن تمنعه من نقدها ورفض التراث بقدر ما يتعارض مع المستقبل • ان من تقاليد الكاتب الثائر أن ينكر قدسية التراث ويلح على التأمل بكل شيء ويرفض ما يتناقض مع الحقائق الجديدة •

ثالثا ، على الكاتب الثائر أن يرفض أية محاولة لتدجينه اجاءت تلك المحاولة من قبل السلطة أو الحزب أو غيرها • يفعل ذلك بالرغم من معرفته

بوضع العرب المفكك وفقدان النظام والنظامية في حياتهم وسلوكهم العام والخاص · ليس بامكانه كفنان طليعي أن يتخلى عن الفردية ، فعندما يفقد فرديته يبطل أن يكون فنانا طليعيا · لست هنا في معرض التأكيد على وجود تصادم صميمي بين الفرد والمجتمع أو السلطة بل في معرض التأكيد على ضرورة تفرد الكاتب وحريته في رؤية الاشياء من زوايا متعددة · عندما يرفض الضغط والطغيان والقولبة والتدجين ، لا يفعل ذلك لانانية ومصلحة خاصة ، بل لاقتناع عميق بضرورة الابداع والتغير · علينا أن ندرك أن العربي لا نظامي ويميل نحو الفردية الانانية ليس لان مؤسساتنا وقيمنا تعلق أهمية كبرى على الفرد وحريته وتميزه ، بل لانها ، على العكس ، تحاول سحقه تحت وطأتها باسم فضيلة الطاعة والاحترام للسلطة · ان فردية العربي الانانية هي على الاغلب ردة فعل للطغيان ومحاولة للتأكيد على وجوده تجاه محاولات عدة لالغاء هذا الوجود ·

والكاتب العربي الثائر يهتم بفرديته لاسباب اجتماعية ولاسباب فنية · انه ، كالمتمرد ، مهتم بفنه أكثر مما يهتم الكاتب الملتزم · انه مسؤول تجاه فنه الى أبعد الحدود · وقد يكون من الضروري أن نوضح هنا ان مسؤوليته تجاه فنه لا تتناقض مع اهتمامه بالسياسة وبنقد المجتمع والحياة بل بامكانهما ، عند الفنان الحق ، أن يكونا متكاملين · ان الكاتب الثائر يؤمن بالممارسة والتعرض لمشكلات العصر فلا يبحث عن السلامة والاحتماء والاطمئنان · الميل نحو الانزواء ، في رأيه ، محاولة للعيش في الفراغ · بقدر ما ينزوي الكاتب يتقلص من الداخل وتشح مصادر الوحي عنده فتتكرر أفكاره وصوره ومصنوعاته وأساليب الفن عنده ، وتصبح ممارسته للفن ممارسة نرجسية ·



رابعا ، على الكاتب الثائر أن يكون مستقبليا ومأخوذا بحلم جديد يعطي العالم والحياة ابعادا جديدة · كل ثوري مستقبلي ، وان لم يكن كل مستقبلي بين الكتاب ثوريا · لقد اتجه بعض الكتاب والفنانين المستقبليين في اوروبا الى اليسار كما فعل ماياكوفسكي ، واتجه بعضهم الاخر كما حدث في ايطاليا والمانيا الى اليمين المتطرف المتمثل في النازية والفاشية · وبرغم ذلك ، فان الكتاب والفنانين الطليعيين أكثر ميلا من غيرهم للتعاطف مع الاتجاهات اليسارية والثورية الدائمة · هذا ما حدث في اوروبا في الثلاثينات ، وما يحدث في الولايات المتحدة الاميركية في الوقت الحاضر · ويبدو ان النزعة نفسها تتبلور في المجتمعات النامية كالمجتمع العربي ·

وقد يكون ضروريا أن نشير هنا الى أن للرغبة في تغيير الحاضر خطرها في الحياة العربية المعاصرة · فربما تحرك الثورة في مرحلتها الحاضرة في البعض ميلا نحو تمجيد الماضي ومنجزاته ، والاعتزاز به ومحاولة بعثه من جديد · لقد لاحظ كل من بودلير وماركس ، رغم التفاوت الواسع بينهما ، هذا الميل في المراحل الاولى من الثورة واعتبراه تزييفا للثورة · هذا ما لاحظه بودلير في ثورة ١٨٤٨ ، فعجب للطريقة التي تمكنت فيها الثورة أن تحرك مخيلة الشعب لخلق الكثير من الطوباوية والرومنسية والحنين الى الماضي · وقد كتب

ماركس في « الثامن عشر من بريمير » حول ثورة ١٨٤٨ يقول : « في هذا الوقت بالذات الذي ينخرط الناس فيه بعملية تثوير أنفسهم والاشياء وبخلق شيء لم يوجد من قبل ، تماما في هذا الوقت بالذات من حياة الازمة الثورية تراهم يتجهون برغبة جامحة نحو بعث أرواح الماضي يستعيرون منه أسماءهم ، وشعارات معاركهم ، وأزياءهم • » لذلك يؤكد ماركس ان الثورة الاجتماعية في القرن التاسع عشر « لا تستوحي شعرها من الماضي ، بل من المستقبل فقط • انها لا تبدأ قبل أن تجرد نفسها من كل خرافات الماضي » ٩ •

خامسا ، لان الكاتب الثوري مستقبلي ومهتم بفنه الى أبعد حدود الاهتمام، عليه أن يكتب بلغة جديدة • كما ان غاية الثورة أن تهدم نظاما وتقيم نظاما بديلا ، كذلك غاية الكتابة الثورية ان تهدم لغة وتنطق بلغة جديدة • ان الثورة الحقيقية ثورة على جميع المستويات وفي نواحي الحياة المختلفة ، فالثورة الفنية متصلة اتصالا وثيقا بالثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، ومحاولات الفصل بينها تزييف للثورة •

اللغة عند الكاتب الثوري لا تنفصل عن محتواها ، فهي ملتصقة به وصادرة عنه • وبقدر ما يكون المحتوى ثوريا ، تكون اللغة ثورية • الكاتب الثوري لا يمكنه أن يردد شعارات الماضي أو شعارات السلطة دون أن يفقد سحره وفعله في تغيير المجتمع والعالم والحياة حقا • ان للغة قيمة تفجيرية ، فلا يجوز أن نقولبها ونوقعها في الرتابة التي تفقدها قوتها التفجيرية • اللغة التي لا تحرر نفسها ، ليس بمقدورها أن تحرر الناس حقا • ومما يؤسف له ان معظم أدبنا الذي يدعو للمقاومة والجهاد يكتب بلغة تقليدية وبشكل مباشر فيستنفد نفسه في وقت قصير ويزول بزوال الاحداث العابرة التي يدور حولها• انه أدب يبشر ولا يوحي ، ولغته منفصلة عن الواقع لا تتفاعل معه • هو في معظمه لغة مجردة لا علاقة لها بالحياة الحاضرة قائمة بحد ذاتها وجاهزة قبل تكون محتواها • على العكس من ذلك ، الادب الثوري يوحي أكثر مما يبشر ولغته ـ بمفرداتها وتراكيبها وصورها ـ منبثقة عن الواقع ومتصلة بالحياة وتجاربها • انها لغة متحركة نامية مشعة لانها جزء من الحياة •

سادسا ، على الكاتب الثوري أن يكون ثائرا ليس بالمعنى الاجتماعي والسياسي والفني فحسب ، بل بالمعنى الميتافيزيقي كذلك • انه لا يقصر اهتمامه على علاقة الانسان بالسلطة والدين والعائلة وغيرها من المؤسسات ، وعلاقته بنفسه ومحيطه والجماعات والافراد الذين يتعامل معهم • بل هو مهتم بغربة الانسان في الكون وتجاه الله والطبيعة ووجوده • انه مهتم بمعنى وجوده وكفاحه ومصيره • انه متمرد ضد الحدود المضروبة حوله بسبب طبيعة تكوينه وطبيعة القوانين المتحكمة بموت الانسان وحياته • انه مهتم بتغيير الحياة والوجود ومعناهما • بذلك لا يرفض الكاتب الثائر نيتشه ودوستوفسكي وكامو وغيرهم بل يجعلهم جزءا من تراث الفكر الثوري في العالم •

## ٥ - كلمة ختامية حول علاقة الكاتب الثوري بالسلطة

اذا ما اتصف الكاتب الثائر بالصفات والنزعات الست التي ذكرت يكون بالفعل قد جمع بين الكاتب الملتزم والكاتب المتمرد ٠ انه يشارك الكاتب الملتزم اهتمامه بالقضايا السياسية العامة ، كما يشارك المتمرد نزعاته نحو نقد المجتمع ورفض التدجين والاتجاه نحو المستقبل والكتابة بلغة جديدة والاهتمام بالقضايا الميتافيزيقية ٠ كل ذلك لا يمنعه من اقامة علاقة مشاركة مع السلطة ٠ انما لا بد من التأكيد على صعوبة اقامة مثل هذه العلاقة ٠ ان اهتمام الكاتب بالسياسة يفترض احتمال وقوع خلاف في الرأي مع السلطة ٠ غير أن علاقة المشاركة المثلى بين الكاتب والسلطة لا تنكر الخلاف في الرأي بل تؤكد عليه من أجل قيام حوار حقيقي ينشأ عنه تبلور للاهداف والقيم والسبل التي يجب أن يتبعها المجتمع كما تنشأ عنه مناعة ضد الجمود والتحجر ومقدرة على استيعاب الحقائق الجديدة والاستمرار بالنمو والتحرك بحرية ٠ وعندما لا تتسامح الدولة بوجود خلاف بالرأي فتحاول الحد من حرية الكاتب ، تتحول علاقة المشاركة الى علاقة اضطهاد أو وصاية ٠ في مثل هذه الحالة يرفض الكاتب الثوري الاستسلام ولا بد له من النضال والتأكيد على حريته ، فهو ضد السلطة بقدر ما تقف ضد ثقافة عربية متنوعة وبقدر ما تحد من ممارسته لدوره ٠

كذلك قد تكون نزعة الكاتب لنقد المجتمع سببا في قيام تصادم بينه وبين السلطة ، فربما تتدخل السلطة بضغط من قبل مؤسسات اخرى كمؤسسة الدين فتحد من حرية الكاتب بالنقد بحجة انها لا تريد أن تفتح جبهة جديدة في الوقت الذي تواجه تناقضا أهم ٠ ماذا يفعل الكاتب في هذه الحالة ؟ في رأيي ، ان الكاتب الثائر لا يسكت عما يعتبره تعطيلا حقيقيا لامكانات الانسان ولا بد له من متابعة كفاحه حتى ولو أدى ذلك الى قيام تصادم بينه وبين السلطة ٠ اما تعليلي لذلك فهو انه ليس صحيحا ان الدولة بالضرورة أكثر ادراكا من الكاتب لماهية الاولويات ولما يجب بحثه ٠ لماذا تكون الكلمة الاخيرة للسلطة وليس للكاتب في اختيار موضوعاته ؟ ان الكاتب الثائر لا يتنازل عن حقه باختيار موضوعاته ، ولا بد له من تحمل مسؤولياته والنضال من أجل تدعيم حقه ٠ ان أية محاولة لقولبته وتدجينه هي انتقاص من علاقة المشاركة التي يرضى بها ٠ لا بد له من الحفاظ على فرديته في رؤية الامور من وجهة نظره الخاصة ٠

الكاتب الثائر لا يجد تعارضا صميميا بالضرورة بينه وبين السلطة ويرضى باقامة علاقة مشاركة معها ، ولكنه ليس مستعدا في أي حال أن يسلم نفسه ويقبل بالاضطهاد او الوصاية ٠ غاية الكاتب العربي الثوري أن يغير النظام السياسي - الاجتماعي - الاقتصادي والقيم التي يقوم عليها هذا النظام ويقيم مكانه نظاما جديدا ٠ انه يتعاون مع السلطات بقدر ما تعمل من أجل هذا الهدف ٠

ليس في المجتمع العربي سلطة واحدة ثورية بهذا المعنى ، والكاتب

الثوري نادر الوجود . لذا نجد أن العلاقات القائمة في الوقت الحاضر بين السلطة والكاتب هي علاقة لا مبالاة أو اضطهاد أو وصاية ، لا علاقة مشاركة في خلق مستقبل جديد .

رغم ذلك يرفض الكاتب الثوري أن يرى المستقبل العربي مظلما .

حليم بركات

### مصادر البحث


١) راجع خيري حماد ، « الادب العربي بعد الخامس من حزيران » ، مؤتمر الادباء العرب السابع ، لجنة الاعلام ، نيسان ١٩٦٩ ، ص ٥ .

٢) ميخائيل نعيمة ، « الادب والدولة » ، **الاداب** ، السنة الاولى ، العدد الثاني ، ١٩٥٣ ، ص ٤ .

٣) رئيف خوري ، « الاديب : ناقد الدولة » ، **الاداب** ، السنة الاولى ، العدد الثالث ، ١٩٥٣ ، ص ٥ ـ ٧ .

٤) فؤاد الشايب ، « الاديب والدولة » ، **الاداب** ، السنة الرابعة ، العدد العاشر ، ١٩٥٦ ، ص ١٠٨ .

٥) المصدر ذاته ، ص ١١١ .

٦) Karl Mannheim, Essays on the Sociology of Culture, Routledge and Kegan Paul, 1962, p. 105.

٧) Jacques Ehrmann, « On Articulation : The language of History and the Terror of Language, » Yale French Studies, Literature and Revolution, 1967, p. 9 - 28.

٨) George Orwell, « Writers and Leviathan », in George B. de Huszar (ed.), The Intellectuals : A Controversial Portrait, Free Press, 1962, p. 268.

٩) كما وردت في : Richard J. Klein, « Baudelaire and Revolution : Some notes », Yale French Studies. Literature and Revolution, 1967, p. 94.

الياس مرقص

# نقد الفكر المقاوم * :
# عفوية النظرية في العمل الفدائي

تقول خلاصة كتاب « حول العفوية والنظرية في العمل الفدائي » :

« خلاصة القول ان الحركة الثورية الفلسطينية لا بد أن تحول دون خدمتها للثورة المضادة ولا بد أن تسير في طريق الثورة ، وذلك عن طريق جبهة الثورة الفلسطينية :

● جبهة الثورة الفلسطينية المقاتلة ضد الامبريالية العالمية والرأسمالية اليهودية وبقايا الاقطاع والبورجوازية العميلة في فلسطين .

● جبهة الثورة الفلسطينية المتحدة في نضالها مع جبهة الثورة العربية المناهضة للامبريالية العالمية ــ تقودها الولايات المتحدة ــ والرأسمالية اليهودية وبقايا الاقطاع والبورجوازية العميلة في الوطن العربي .

● جبهة الثورة الفلسطينية القائمة على أساس النضال المسلح ضد الرأسمالية اليهودية وقواتها القمعية ، العدو الاكثر عنفا في تسلطه في هذه المرحلة .

● جبهة الثورة الفلسطينية القائمة على أساس تحالف العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة وقطاع من البورجوازية الصغيرة وقطاع من البورجوازية الوطنية .

---

* « نقد الفكر المقاوم : عفوية النظرية في العمل الفدائي » هو عنوان كتاب لالياس مرقص يصدر الشهر المقبل عن « دار الحقيقة » في بيروت . الفصل الذي ننشره هنا هو الفصل الاخير في الكتاب وخلاصته . والكتاب ينقد ، بشكل خاص ، آراء الجبهة الشعبية الديموقراطية كما تعبر عنها في كتاب « حول العفوية والنظرية في العمل الفدائي » .

● جبهة الثورة الفلسطينية القائمة على أساس القيادة المطلقة لتحالف العمال والفلاحين في حزب ثوري يسترشد بايديولوجية الطبقة العاملة « الماركسية ـ اللينينية » ، والفهم المادي الجدلي لظروف مجتمعنا » ( ص ١١٥ )

وتقول خلاصة كتاب « عفوية النظرية في العمل الفدائي » :

١ ـ ان « نظرية » العمل الفدائي للجبهة الشعبية الديمقراطية تنطلق من مقولة « فلسطين » ـ الواقع « الاجتماعي » ومقولة « الثورة الفلسطينية » · في نظرها فلسطين « مجتمع » كسائر المجتمعات ، مع بعض التعديل ، والثورة الفلسطينية ثورة كسائر الثورات ، مع بعض التعديل · والتعديل ، في نهاية الحساب ، ينخفض ويتقلص الى ما يقرب من لا شيء ·

ان ماركس والماركسيين لم يسحبوا مخطط الثورة البرجوازية على الثورة البروليتارية · ولينين ، انطلاقا من تعاليم ماركس وانجلز ومن الواقع الروسي والعالمي ، صاغ للثورة الروسية نظرية أصيلة · وماوتسي تونغ لم يسحب نظرية الثورة الروسية على الثورة الصينية ، رغم القواسم المشتركة الجوهرية ( اجتماع ثورتين ، التحول ، نظرية الثورة الدائمة اللينينية ) ، لقد أخذ بعين الاعتبار الصفة القومية للثورة الصينية المناهضة للامبريالية ، والواقع الصيني والواقع العالمي المتجدد · هوشي منه لم يسحب نظرية الثورة الصينية على الثورة الفيتنامية ، رغم القواسم المشتركة الجوهرية المتزايدة ( قومية ، ديمقراطية ، اشتراكية ) · كذلك كاسترو والثورة الكوبية · لو أن القادة الماركسيين الحقيقيين سحبوا نموذجا سابقا ، لما استطاعوا أن يحققوا ما حققوه ، لما كانوا ماركسيين حقيقيين ·



والحال ، ان الاختلاف بين نماذج الثورات الآنفة أقل بكثير من الاختلاف بين الثورة الفلسطينية وأي من هذه النماذج على انفراد ، وكل هذه النماذج مجتمعة : الاستعمار السكاني ونتائجه ، اسرائيل ـ الدولة ـ المجتمع ـ الجيش ( جيش المجتمع ومجتمع الجيش ) · ان عدم أخذ هذا الاختلاف ، كاملا ، بعين الاعتبار ، في المنطلق ، بدءا من المنطلق ، وفي نظرية كفاح وثورة جوهرها العنف ، لا عنف « الثورة » بل عنف الحرب * ، الحروب ، يؤدي فورا وحكما الى الانفصال بين الاقوال والافعال ، بين النظرية والممارسة ، بين الاهداف والنتائج، بين حساب الحقل وحساب البيدر · هذا الانفصال ليس الاختلاف الطبيعي المعقول بين العمل والنظر ، بين الممارسة ودليلها ، ليس التناقض الجدلي القائم بينهما والذي يدفع على الدوام طرفي التناقض الى الامام ، الى وحدة جدلية مادية أرقى ، بل هو انفصال ، وتباعد متزايد ، وتعارض ، وطلاق جوهري ·

---

* « الحرب الثورية » كما يقول البعض وكما نقول · غير اننا بخلاف هذا البعض ، نشدد على **الحرب** وليس فقط على « **الثورية** » ·

## الدوغمائية الاقتصادية

٢ ـ هذه الطريقة في رؤية الامور طريقة دوغمائية « اقتصادية » مكيفة فلسطينيا ، أي بالتالي مضاعفة أضعافا ، بالغة أبعادها القصوى ٠

ولا بد أن نواجه هنا صفات أصيلة في هذه « الاقتصادية » ، صفات يفرضها الواقع الفلسطيني حتى المشوه « اجتماعيا » أي « اقتصاديا » ٠ أصحاب النزعة الاقتصادية الفلسطينيون لا يستطيعون أن يضموا الى ترسانتهم الفكرية نظرية الطبقتين التقليدية ( الطبقة العاملة والباقي المسمى بشكل ما برجوازية ـ بمعنى الطبقة أو الطبقات « المنتهية » ـ ) ٠ في فلسطين ، في العالم العربي ، في غالبية أقطار العالم الثالث ، لا نشهد تحركا عماليا اضرابيا طبقيا كاسحا كما في روسيا حوالى سنة ١٩٠٠ ٠ « الاقتصادية » عليها اذن أن تدفع ثمنا للعالم الثالث ، لماوتسي تونغ ، لكاسترو ، لجياب ، لفانون ، لبيتلهايم ، لباران ، لتروتسكي ، للينين ٠٠٠ وعليها أن تكون بالدرجة الاولى ـ في الحقبة التاريخية الاخيرة ، بعد انكشاف خرافة الطريق الرأسمالي الوطني المزعوم وهزال تنظيره شبه الماركسي ، وانكشاف فساد مقولة « دولة الديمقراطية الوطنية » التي سوغت من قبل أعلى مرجع ماركسي عالمي في ١٩٦٠ ـ ، « اقتصادية يسارية »، بالغة « اليسارية » ، أي ان تصل الى الوطن العربي عبر أفكار « الاقتصادية الامبريالية » لعام ١٩١٦ وبعده ( بياتاكوف ، بوخارين ، راديك ، وطائفة من الماركسيين الثوريين الامميين الحقيقيين والجيدين ـ عدا هذه الخطيئة ! ـ في كل قطاعات حركة العمال الدولية أو تقريبا ) ٠

ومن الطبيعي ، في البيئة العربية والفلسطينية ، أن يتعزز الطابع الكاريكاتوري لهذه الافكار « الاقتصادية الامبريالية » ، ما دام في جوهرها انكار المسألة **القومية** والجنوح المثالي القاصر نحو الدراما العالمية بين البروليتاريا والجماهير الكادحة **والشعوب** وبين الامبريالية ٠ من الاسهل اسقاط المسألة القومية والاكتفاء باطلاق شعارات البروليتاريا وثورتها ، في روسيا واوروبا ١٩١٦ ، منه في الوطن العربي وفي فلسطين اليوم ! غير ان « الاقتصادية الامبريالية » العربية والفلسطينية تتحدى الصعوبة ، تتخطى العقبتين منذ الانطلاق : الاولى أهمية المسألة القومية ، محوريتها ، بروزها كمسألة **قومية** بشكل مضاعف ( سواء التجزئة والوحدة ، أو فلسطين ) ، والثانية ضعف البروليتاريا ـ الطبقة ـ الحزب ـ الحركة ( بالمقارنة مع روسيا واوروبا ١٩١٦ ) ، عدم وجود او تقريبا عدم وجود « الحزب » ( + بشكل أوسع : عدم تبلور الطبقات الاجتماعية المختلفة في أحزاب سياسية مختلفة ، الا بشكل محدود ) ٠

ومع تركنا جانبا المستوى الثقافي لاصحاب التيار العربي الجديد ، لا نستطيع أن نترك جانبا واقع ان غالبية هذا التيار تألفت وتتألف من ماركسيين

مستحدثين جدد ، أتوا الى الماركسية من جهات « قومية » ويدفعون ثمن خطيئة الماضي بخطيئة الحاضر ·

ولسوف نرى ، في كتاب لاحق ، ان الجناح اليساري الشيوعي العراقي ( جماعة « القيادة المركزية » ) الذي « تعتمده » مجلة « الحرية » كاحدى القوتين الثوريتين الحقيقيتين في العراق يتجنب ( قد تجنب حتى الان ) السقوط في خطيئة العدمية القومية * ·

بل ان القوة الثورية « اليسارية » الاخرى التي « تعتمدها » مجلة «الحرية» في العراق ــ نقصد الجناح « اليساري » من حركة القوميين العرب ( = الحركة الاشتراكية العربية ) ــ تتفادى السقوط في دعوة الرفاق الفلسطينيين واللبنانيين ضد « الجيوش النظامية المحترفة » ، بل تدعو الى تعزيز هذه الجيوش وتنسيق هذا الدفاع « النظامي » ( ولعل هذا يعود **جزئيا** الى جو الشيوعيين العراقيين ، الذين كانوا على امتداد ٣٠ سنة ، أكثر شعبية وأكثر ماركسية ، من الاحزاب الشيوعية في سورية وجوارها الغربي والجنوبي ) · هذه الامور واضحة تماما في البيانات التي نشرتها « الحرية » والصادرة عن الجماعتين العراقيتين اليساريتين » ** ·

## الصواب والخطأ

٣ ــ في كتاب « العفوية والنظرية في العمل الفدائي » ، تتخذ «الاقتصادية ــ الامبريالية » شكلا كاريكاتوريا لا شبيه له كشكل كاريكاتوري في التجارب السابقة في تاريخ حركة العمال الماركسية · اننا لا نعرف افكار ونصوص بياتاكوف والاخرين الا من خلال مناقشة لينين لهذه الافكار والنصوص · ولكن هذه المناقشة التفصيلية تسمح لنا بالقول ان الكاريكاتور الذي قدمه شباب « اليسار » الامي ( الامي فعلا ولكن بشكل غير منسجم ! ) في ١٩١٦ صورة سوية بالمقارنة مع الكاريكاتور الذي يقدمه « الاقتصاديون الامبرياليون » العرب·

* ( بل انه في ادانته لخط الحزب اليميني في سنوات ١٩٥٨ وما بعدها لم يسقط في ادانة وحدة ١٩٥٨ كوحدة ، كوحدة ولو برجوازية ، وأخذ على الحزب **معارضته** للوحدة حتى البرجوازية · لا يبدو بالتالي انه يؤقنم الممارسة ، وينتهي الى قول من نوع : الوحدة العربية يستحيل أن تتقدم فعلا الا بعد سقوط القوى غير البروليتارية ! )

** « الحرية » العدد ٤٦١ ، ٢٨ـ٤ـ٦٩ · برنامج لجبهة تقدمية في العراق ، أصدرته الحركة الاشتراكية العربية في العراق · نقرأ : « السياسة العربية : (···) ٣ ــ تحقيق أقصى درجات **التنسيق والتعاون السياسي والعسكري بين الاقطار العربية المتحررة** · (···) لذا (···) تعمل من أجل : (···) ٣ ــ تقوية طاقات العراق العسكرية **النظامية** و (···) » ·

يا رفاق ، لا ريب أنكم تفسرون هذا الاختلاف بينكم وبين رفاقكم العراقيين ، باختلاف خصوصيات التجارب القطرية !! بعد الوحدة « القومية » لحركة القوميين العرب ، يأتي انفلات الاقطار في هذا « اليسار » المنفلت من عقال « الامية » الطبقوية !

ان لينين يأخذ على بياتاكوف انسيابه اللفظي ، عمومياته ، « توحيدا ته » ـه * ، « طلعاتـ » ـه ضد « الامبريالية » ، « عـــدو الشعوب **اللدود** » ( او المميت Mortel ) ، مقطعا منسابا متسيبا ( « يشبهه لينين بلغة طلاب حوانيت البيرة في المانيا » ) ، الصرخات اليسارية الثوروية • في كم صفحة من هذا الكتاب العربي ( وبالاحرى من الكتابين اللاحقين ) ، لا نجد هذا كلـــه وسواه وبشكل مضاعف !

هذا هو أيضا الثمن العربي والفلسطيني للاقتصادية الامبريالية • ليس بدون هذا العقاب ـ الفرق في الكلام ـ يتأقلم التيار الروسي ـ الاوروبي شرقيا وبالحري عربيا وبالاحرى فلسطينيا •

ولكي لا نظلم الحقيقة باغفـال أحد جوانبها نقول : لئن كـان الانحراف البدائي عن الماركسية لا يظهر لاصحابه وأنصارهم تماما في حقيقته كانحراف بدائي كامل ** ، فان هذا مرده ، في جملة اسباب ، الى « ثورة » الشباب على واقع ان الحزب البروليتاري الحقيقي لم يتكون حتى الان ، بعد مضي نيف ونصف قرن على ثورة اوكتوبر ، والى الايمان بضرورة انشائه ، والتأكيد الدائم : بروليتاريا ، أمبريالية ، برجوازية ـ صغيرة ، الخ ، أي التأكيد الدائم على الصفة البروليتارية للحزب ، على استقلالية البروليتاريا ، الخ ••• *** •

وما دام همنا الرفاق وقضية الحزب ، فاننا نقول بصدق : أنتم على صواب• وأنتم على خطأ • ولكنكم بالدرجة الاولى على خطأ • القضية لن تدفعوها خطوة واحدة الى الامام بهذه الطريقة • لسنا لا في روسيا ١٨٩٠ ولا في اوروبا ١٩١٩ ولا في صين ١٩٢١ • تأكيدنا استقلالية البروليتاريا بدون النظرية ( المعادية للاقتصادية ! ) بدون المسألة **القومية** ( صنو الثـورة الديمقراطية لروسيـــا الاسكرا وأسلافها الماركسيين الاوائل ، في ظرفنا العربي ) ، بدون الامة ( صنو الشعب ـ النارود ) وطبقاتها ودولها والخطوط ، يصبح صفرا وبالحقيقة أقل من الصفر ( شيئا سلبيا معيقا ومخربا لمهمة انشاء الحزب البروليتاري ) •

---

* وينقل لينين قول انجلز ضد دوهرنغ حول « النظرة الموحدة » ، وضرورتها : « تستطيع أن تجمع فرشاة حذاء الى وحدة الحيوانات الثديية ، ذلك لن ينبت لها أبزازا » • نظرية العمل الفدائي « توحد » الانظمة القائمة في الوطن العربي ، توحد « المجتمع » « العربي » ، توحد «فلسطين»، توحد فلسطين وفيتنام وكوبا ( سنرى في الكتابين اللاحقين ان « الطريق الفيتنامي والكوبي » وحدة ـ لفظية ـ لا تقبل الانفصام ) •

** أمامي العدد الاخير من « الشرارة » ، آذار ١٩٧٠ • أقرأ العنوان الكبير : « طريق واحد لتدعيم وتطوير القيادة الموحدة • الاتفـــاق على برنامج عمل ••• تقدمي وواضـــح ••• وبعيد عن العموميات » • نعم ، صدق أو لا تصدق : « وبعيد عن العموميات » • هناك اذن في الساحة عموميات أعم من عموميات الجبهة الشعبية الديمقراطية ! ربما • واماركسيتاه !

*** ولكن ، عند هذه النقطة ، لا بد من الاشارة الى ان الجبهة تتحدث دائما عن « العمال والفلاحين » عن « الفقراء » ، عن « قيادة العمال والفلاحين » لحركة التحرر الوطني ، عن قيادة « الجماهير الكادحة » للثورة • هذا أيضا ثمن الشرق والجهل ، وثمن تركيبهما : الجهل الشرقي أو الشرقية الجاهلة : في الماركسية ـ اللينينية ، القيادة الطبقية لطبقة ، وليست للسديم الاجمالي •

## المسألة القومية

٤ ـ ان لفظ « الامبريالية » يتردد على لسان وتحت قلم رفاقنا «اليساريين» أكثر مما يتردد على لسان لينين وبياتاكوف وروزا لوكسمبورغ مجتمعين ٠

والامبريالية ـ بدون مزدوجين ـ هي المنطلق الاول ، القاعدة الصلدة للينينية ، التي هي ماركسية عصر الامبريالية ٠ الخطيئة **الاولى** للماركسية العربية التقليدية ، للاحزاب الشيوعية ، أنها لم تر هذا الامر ، لم تنطلق في فهمها وتشخيصها وتخطيطها ، من الامبريالية ٠ نقول : الخطيئة الاولى ( ونعتقد ان هذا ما قلناه سابقا ، وفي أكثر من كتاب ) ٠ العجز عن فهم المسألة القومية ( المسألة القومية بشكل عام والمسألتين القوميتين العربيتين بشكل خاص : الوحدة ، فلسطين ) ، الفصل بين الثورتين البرجوازية الديمقراطية والاشتراكية البروليتارية ، الستراتيجية اليمينية البرجوازية « الوطنية » ( وفي فترة ١٩٥٦ وما بعدها : أوهام الطريق البرلماني ) ، النوبات اليسارية الدورية في التاكتيك، ذلك كله يأتي بعد ، يقوم على هذا الاساس ، والكل شبكة مترابطة متفاعلة على أرضية مفهوم فلسفي مادي مبتذل مناهض للديالكتيك ( « يحول التاريخ الى فيزياء مرفوعة الى مرتبة ميتافيزياء » ، الى علم طبيعة مرفوع الى مرتبة ما فوق الطبيعة ، الى لاهوت طبيعي للتاريخ ) ٠ غير أننا أرفقنا دائما أو أتبعنا دائما بالامبريالية المسألة **القومية** ، مسألة الامم ٠

نرجو الرفاق « اليساريين » أن يفتحوا كتاب لينين الكلاسيكي الاشهر « الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية » ، الذي وضعه لينين في فترة الحرب الامبريالية العالمية ، وأن يقرؤوه ( أو أن يقرؤوه مجددا ) من الصفحة الاولى ، من المقدمة أو المقدمات ، الى الفهرس الاخير ٠ ـ نترك اذن بحوث لينين في تلك الفترة نفسها ١٩١٥ ـ ١٩١٦ والتي تحمل عناوين من نوع « البروليتاريا الثورية وحق الامم في تقرير مصيرها » ، « الثورة الاشتراكية وحق الامم في تقرير مصيرها » ، الخ ، أي اذا نقلنا هذه العناوين الى مناقشاتنا الحاضرة : « البروليتاريا الثورية والمسألة القومية » ، « الثورة الاشتراكية والمسألة القومية العربية » الخ ، نترك مجادلات لينين مع بياتاكوف (كيفسكي) وروزا لوكسمبورغ (يونيوس) ، رده على راديك ، الخ ٠ ـ نكتفي بالكتاب الاشهر ، الذي وضعه لينين والذي نتخذه (ويتخذونه ، على ما نرجو) قاعدة الانطلاق الاولى ٠ ماذا نجد في هذا الكتاب ؟ ما هو الضوء الذي يلقيه على مشاكلنا ومناقشاتنا ؟

لينين يقول ، في المقدمة ، ان كتابه مكرس حصرا للاساس الاقتصادي ( « للناحية الاقتصادية » ) ، بدون الوجه السياسي للامور ٠ ومع **ذلك** ، هذا الكتاب الاقتصادي ، هذا الكتاب في علم الاقتصاد ( **السياسي** ) لا يخلو أبدا من **الامم** ، من الامم المستغلة والامم المستغلَة * ، ولا يخلو من « السياسة » ٠

* هذا ـ الامم ، انقسام العالم الموحد الى أمم متناقضة ـ ليس جزءا من تشخيص الامبريالية وحسب، بل جزءمنفهمها ، من فهم **الاقتصاد** العالمي ٠

( ولينين ينقل في هذا الصدد ــ **الأمــم** ــ مقاطع عن السلف ، عن هوبسون الاشتراكي الليبرالي وهيلفردنغ الماركسي الوسطي صديق كاوتسكي ، وفي مجادلته ضد كاوتسكي ) ·

وستالين في تلخيصه المبسط ، الجيد والسيء ( الجيد في فصوله الاولى ، السيء في عمومياته « البروليتارية » ، في حديثه عن الحزب ــ الحزب وتطهير الحزب وتعزيزه بالتطهير ) لم ينس **من البداية** ان يذكــر في تناقضات العصر الامبريالي الثلاثة تناقض **الأمم** المستغَلة والمستغلة ، المضطَهدة والمضطهدة ، مع التناقض بين العمل ورأس المال ، والتناقض فيما بين الدول (الأمم) والامبريالية، ( ولم ينس تخصيص فصل للمسألة **القومية** ) ·

غير ان الامور تجري عندكم وكأن التناقض بين العمل ورأس المال ، يذوّب « الأمم » ، أي كأن وجود الطبقات المستغلة والمستغَلة داخل الامة المستغَلة يلغي وجود « الأمة » ، أي كان تناقضا يطرد الآخر ، أو كأن المسائل « انحلّت » في « الصراع الطبقي ــ العالمي » · تلك ، على وجه التحديد ، صيغة « اجمالية » تذيب الحدود ، على صعيد المعرفة الاولية ، وتبخر المطلوب ــ القبض ــ عليه في النظر والعمل الماركسيين ، قصدنا : المفاصل ، التمفصلات ·

ان واقع كلمة « أمة » طُردت أو تقريبا من القاموس العربي « الثائر » ، واقع أن « حركة التحرر الوطني » قد حلت على طول الخط محل الحركة القومية، وحركة الشعوب والثورة الكولونيالية محــل الثورة القومية ــ الكولونيالية ( عندكم وفي بعض مراجعكم العالمية ) ، ليس واقعا تافها لا قيمة له ولا دلالة · أن يكون في هذا الواقع أيضا ضرب من التمرد الانفعالي على الماضي « القومي » أو القوموي ، لا يغير شيئا من خطر هذا الموقف ، ولا يلغي على صعيد نهاجيــة المعرفة الماركسية ، أصوله « الاقتصادية » ( « الاجتماعية » ، « الطبقية » ) ·

## العالمية والمحلية

٥ ــ في تلمس الامبريالية العالمية وأهدافها في المنطقة العربية حصرت نظرية العمل الفدائي نظرها في موضوع واحد هو النفط · النفط العربي ، أهميته ، بالارقام والجداول · ومهما أكدنا و « بالغنا » في التأكيد على هذه الأهمية ، فاننا لن نتخطى الحقيقة · لا الماركسيون ــ اللبنانيون العرب ، ولا أحد من القوى التقدمية العربية ــ على حد علمنا ــ ، أغفل هذه الأهمية أو أجحف هكذا بحق « الثروة الدفينة » في « المنطقة العربية » ·

ولكن يجب أن تعطوا هذا التعبير الصحيح ــ « المنطقة العربية » ــ مدلوله كاملا ، مدلوله الجغرافي ــ السياسي ·

ان نفَس الفهم اللينيني ، نفَس الماركسية ، قد حمل **دائما** فكرة الهيمنة

**العالمية** للدول ، للدول الرأسمالية ــ الاستعمارية ــ الامبريالية ، بريطانيا ــ العظمى ، دول الاتفاق ( الحلفاء ) ، صراع الدول واحلاف الدول من أجل الهيمنة العالمية • هذا جزء لا يتجزأ من فهم الامبريالية اللينيني ، بل جزء من فهم ماركس لعصره ( وماركس يهتم بسعي روسيا القيصرية **التي لم تكن رأسمالية في عهده** وراء السيطرة في أوروبا ، في آسيا ، في فارس ) •

على درب هذه الهيمنة العالمية ( فرنسا ، بريطانيا ، ألمانيا ، الخ ، الولايات المتحدة والامبريالية العالمية الحاضرة ) ، نجد « المنطقة العربية » ــ طريق الهند ، مفصلة الغرب والشرق الشرقية ، بوابة آسيا وافريقيا بالنسبة لاوروبا ، منطقة الممرات ( جبل طارق ، السويس ، باب المندب ) ــ التجزئة العربية ، الصهيونية وفلسطين •

ان الماركسي ، وبالاحرى الماركسي العربي ، لا يستطيع أن ينسى هذا الواقع • أفضل أن يرى الانسان هذا الواقع التاريخي السياسي وأن لا يرى مؤلفات ماركس ولينين في المادية التاريخية وعلم الاقتصاد وستراتيجية الثورة، من أن يرى هذه المؤلفات وان يغمض عينيه عن هذا الواقع التاريخي السياسي • والأفضل أن يرى الاثنين : هذه المؤلفات وهذا الواقع العربي •

وحين نرى الاثنين ، حين نرى مع الماركسية ــ اللينينية هذا الواقع العربي، فان ماركسيتنا ولينينيتنا ، ماديتنا التاريخية الجدليـــة ونظريتنا في الثورة الاشتراكية العالمية ، تكتسب لونا عربيا « محليا » ، وعالميا فعلا ، كونيا فعلا Universel ، ماديا فعلا ، يضع لحم الواقع في الهيكل العظمي الاساسي ، ويحول بذلك دون تحوله الى هيكل عظمي فارغ ، **أي ميت** •

## الواقعة التاريخية وتابعها الفلسطيني

٦ ــ ان كتاب « العفوية والنظرية » لا يقيم وزنا لواقعة تاريخية بالغة الدلالة الا وهي تحالف الدول بقيادة بريطانيا العظمى ضد الوحدة العربية ، ضد الوجود المصري في سوريا ( ١٨٤٠ ) وابقاء على الغنيمة العثمانية السائبة • كان ذلك في فترة زخم الانقلاب الصناعي الاوروبي الغربي ، وزخم الاستعمار البريطاني ، والارهاصات الاستعمارية الاولى لسلسلة من القوى الجديدة المرشحة لاخذ حصتها من الغنيمة العالمية • كان ذلك في فترة ليس فيها لا بترول ولا بروليتاريا وماركسية وثورة بروليتارية ، لا في المشرق العربي ولا في النطاق العالمي • كان هناك ــ في المشرق العربي ــ فقط تقدم برجوازي ــ **قومي** في غلافات وعلى أسس شرقية استبدادية •

واذ لم ير الكتاب هذه الواقعـــة التاريخية ، فانه لم ير ايضا **تابعهـــا** الفلسطيني • ففي الوقت الذي ضربت فيها بريطانيا العظمى الوحدة العربيـــة البرجوازية ــ الاستبدادية على رأس حلف الدول العالمي ، أو عقب هذه الضربة

مباشرة ، ظهر في عقلها الامبريالي ( والعلمي ، المادي ) مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين الذي بقي في درج وزارتي الخارجية والمستعمرات الى ان انتقل الى مرحلة التنفيذ في عصر الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، عصر هرزل ووايزمان وبانرمان وبلفور · ان مذكرة بانرمان ( وأبحاث مؤتمر خبراء الدول الاستعمارية ) في العقد الاول من القرن العشــرين شاهد آخر على هذه « التاريخية المــادية » ، وعلى الارتباط الوثيق بين قضيــة فلسطين والوحدة العربية ·

ان المنهج « الاقتصادي » الفلسطيني الذي يحمل في منطلقاته نسيان هذا الموضوع * يبقى دون مستوى المعرفة الشعبية التاريخية ( نكاد نقول الغريزية )، وبشكل خاص المعرفة الشعبية لشعب فلسطين : فقد ظلت فلسطين طيلة فترة ما بعد ابراهيم باشا مركزا للدعوة العربية الوحدوية ، وبقي شعبها حافظا للحلم القومي الكبير ·

ان هذا المنهج « الاقتصادي الامبريالي » « اليساري » الثائر الذي يردد ألفاظ « استغلال كدح الجماهير » « نهب جهد الشعوب الفقيرة » ، يفشل أيضا في فهم آلية الاستغلال الراهنة · ان ظاهرة أساسية من نوع تدهور حدود التبادل في السوق العالمية ( رغم ألفاظ « السوق العالمية » الخ ) قد أفلتت من حقل نظره · والحال ان انخفاض أسعار الخامات بالمقارنة مع أسعار المصنوعات في التجارة العالمية ترتبط بميزان القوى الذي يتوقف ، في جملة أشياء ، ( على المدى الطويل والآني ) ، على أوضاع التناثر والتقارب بين أقطار المجموعتين ، وبالتالي على التجزئة والوحدة العربية أيضا · هذه التجزئة والوحدة العربية ليست فقط عامل ضعف وقوة اقتصادية للعرب ، بل هي تحكم الى حد كبير أوضاع افريقيا السوداء غير المكونة قوميا ، والواقفة « خلف » الوطن العربي **القومي** ( لغة مشتركة ، وارادة وحدوية حقيقية عند جماهير الشعوب ) ·

## خطر الرؤية الجزئية

٧ ــ على صعيد المعرفة العامة ، ان المنهج « الاقتصادي » يحمل معه خطر رؤية جزئيــة ومشوهة لمخطط عمــل الامبريالية العالمية وبخاصة الامبريالية الاميركية ·

في الوقت الراهن ، ومنذ سنوات غير قليلة :

تستطيع الامبريالية الاميركية ان **تتراجع** عن عدد من المصالح الاقتصادية،

---

* في مناقشتنا لبرنامج الحزب الشيوعي اللبناني ، بينا التناقض بين ــ حــركة التحرر العربية ــ الفصل الثاني ( الذي ركز على وثيقة بانرمان ومضامينها وعلى قضية الوحدة العربية ) والفصل الاول ــ العالم ــ الذي تمحور على « المفهوم العلمي الطبقي » ، بالحقيقة « الاقتصادي » التقليدي !

عن استغلال جهد بعض الشعوب او بعض الاقاليم استغلالا مباشرا ، أن **تتراجع** عن نهب ثروة دفينة **ظاهرة** ومستثمرة هنا أو هناك ، ( مثلا في بعض دول أميركا اللاتينية ) ، أن تسلم بتأميم هذه الثروة او تلك في هذا القطر أو ذاك ، ان تسلم بصعود هذه الطبقة نصف الكادحة او تلك الطبقة ثلاثة ــ ارباع الكادحة في هذا القطر أو ذاك ــ في مخطط الهيمنة العالمية بالذات • تستطيع أن تضرب بعنف وأن تضحي بمليارات الدولارات ، وبعشرات الالوف من جنودها ، في بلد لن يدر عليها ربع أو عشر ما تنفقه ولا يمتاز باتساع الثـروات الدفينة ( فيتنام ) • وتستطيع أن « تترك » حكومات ثورية في أقطار افريقية صغيرة لسنوات • أو أن تتدخل على الفور • هذه أمور لا تقررها المصالح الاقتصادية كما يفهمها المنهج « الاقتصادي » لليسار الفلسطيني • الولايات المتحدة الاميركية لا تحكمها وول ستريت وحسب ، بل تحكمها أيضا وكالة المخـابرات المركزية ، ولجنة الامن القومي ، والبنتاغون ، « الدولة » ، قوة القمع اللينينية ــ الماركسية ، والدولة آلة التضليل والربط الاجتماعي الكبرى • تلك هي الرأسمالية اليوم ••• تلك هي **الامبريالية** ، لينينيا ( ولينينيا فقط ، لا « ماركسيا ــ يساريا ــ عاما » ) •

في كتاب « العفوية والنظرية » ، الامبريالية ( الاميركية ) هي رأسمالية وقمع • ( والكتاب لا يبخل بألفاظ القمع والعنف والعنف المضاد ) • في نظرنا ، هي رأسمالية وقمع ووعـــي • **بين** « الاقتصاد » والعنف : « السيـــاسة » • و « السياسة » ليست مرادفة للديبلوماسية ، انها أوسع بكثير • الديبلوماسية عنصر ، أداة • و « السياسة » : وعي ، خطوط ، حســاب الخطوط والدول والاحزاب والامكانات والمراحل والتقـدم والتراجع • « الطبقات » داخلة في « الاقتصاد » ، في « المجتمع » • وهي موضوع للوعي ، للحساب • انها الاساس • ولكن الامبريالية لا « تتعامل » مباشرة مع هذا الاساس ، لا تعالج مباشرة هذا الاساس * •

٨ ــ ان نظرة « النظرية » الى الامبريالية الاميركية ــ العالمية في العالم وفي العالم العربي نظرة جزئية •

وكذلك نظرتها الى « الصهيونية العالمية » •

« الصهيونية العالمية » تغدو « التطور الاقتصادي في فلسطين » ، « التطور الرأسمالي في اسرائيل » •

الهجرة ، الاستعمار الاسكاني ، تصبح خادمة لهذا « التطور » • يقدم المؤلف أرقاما عن الهجرة اليهودية قبل تأسيس الدولة ( هذه الدولة ، دولة « الرأسمالية اليهودية » لم تقم من لا شيء ، هناك اذن هجرة سبقت قيامها ) ولكن الموضوع يختفي من الحقبة اللاحقة ، يغرق في سديم الادراك والذاكرة ،

---

* أساس ــ بنية تحتية ــ اقتصاد ــ علاقات انتاج ــ طبقات • فوق الاساس البنية الفوقية ولا سيما السياسية • البنية الفوقية ليست محض دبلوماسية وقمع •

في شكل « انخفاض الهجرة » ، ربما في شكل تدهور متدرج طويل ينتهي الى توقف في عامي ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ • هذا الخطأ أو الصواب غير واضح • المؤلف امتنع عن اعطاء أرقـــام ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦ • أي أنه امتنع عن دراســـة الظاهرة السكانية البالغة الشأن ، وغير المتدرجة ، وبالتالي عن تلمس احتمالات المستقبل•

في هذا المنظور الخاطيء ، المتعارض مع حقيقة فلسطين وحقيقة الامبريالية وعصرها ، المعطيات السكانية في خدمة المعطيات الاقتصادية بدلا من ان تكون المعطيـــات السكانية والاقتصادية وســـواها في خدمة« الوحـدة الـــكلية » La Tatalité • هذه النظرة « الاقتصادية » التي يدينها كبار الماركسيين كانحراف عن الماركسية ، تبلغ ذروتها كانحراف وتشوه وهذيان في المثال الفلسطيني •

بعد قصة اغلاق قناة السويس وما يؤول اليه هذا الاغلاق من خسائـر اقتصادية فادحة على ••• الرأسمالية الاميركية وأجهزتها القمعية (!) ، يسير الهذيان « الاقتصادي » قدما : انقطاع رؤوس الاموال عن اسرائيل في ١٩٦٦ ، أزمة اقتصادية خانقة ، **اذن** حتمية العدوان الاسرائيلي ، الهادف بالضبط الى « السلام » والتوسع **الاقتصادي** في البلاد العربية • ينقل المؤلف كاتبـــين صهيونيين و « يلعب » بالنصوص •

تجري الامور وكأن المؤلف يعتقد ان الامبريالية يمكن ان « **تترك** » اسرائيل بهذا الشكل ، ان توقف المعونات ، أو أنها باتت عاجزة تنوء بهذا العبء المالي • تصور خاطيء ، أيا كان • في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أنفقت الولايات المتحدة ( مشروع مارشال ) مليارات على اوروبا الغربية • ومليارات على صين الكومنتانغ • وقد أنفقت **مليارات** على اسرائيل ، **وستنفق** مليارات على اسرائيل •

الكاتب العربي يضخم الازمة الاقتصادية الاسرائيلية ، وفي سير نقـــله للمرجع الصهيوني الاول ( زارحي ) يحذف الجمل ذات الاثر الملطف مستعيضا بنقطتين ـ نفس النقطتين الطباعتين الدارجتين على طول الكتاب ـ ، يدفع الموضوع بالاتجاه « الاقتصادي » مخالفا الكاتبين الصهيونيين ( اللذين هما أقل شطحـــا وأكثر واقعية وعلمية • ) ، جاعـــلا « نفقات الدفاع » ذيلا ملحقـــا بالعلاقات التجارية ، هاربا عن عمد من أخذ الجدول ـ الخاتمة في دراسة شيفر ( الجدول ـ العام ـ المقارن عن خسائر اسرائيل والـــدول العربية في الميادين المختلفة ( تجارة ، أنابيب نفط ، نفقات الدفاع ) الذي يكشف أهمية البند الاخير وضحالة البندين السابقين بالمقارنة معه ) ، **مضخما** ـ رغم أرقامه المنقولة التي تقـــول العكس ـ امكانية وهدف التوسع التجاري للصناعة الاسرائيلية في سوق الدول العربية المتخلفة •

هذه الآلية الكبيرة التي يحكمها المنطلق « الاقتصادي » تسير قدما نحو هدف معروف سلفا : « السلام » ، « التصفية » الوشيـــكة • ان عالم المعرفة « الاقتصادية » هو في الجوهر عالم سلام • بيد أن « الاقتصادي » اليساري انسان متمرد على هذا الواقع • لقد اكتشف السلام الاقتصادي عند زارحي

وشيفر ، أي في جوقة الدعاية الاسرائيلية « اليسارية » المحبة للسلم قبيل العدوان • وبدلا من تفكيك آلية العدو يبني آليته الخاصة عليها ، كرد مزعوم ، كـ « نقيض » وهمي •

زارحي ، شيفر ، وآخرون ، يبينون ان النـــزاع بين الدول العربيـــة واسرائيل خسارة اقتصادية بالغـــة للطرفين ( وهي كذلك قطعـــا : خسارة « **اقتصادية** » بالغة • ولكن الصهيونية كسبت الارض والسياسة والاقتصاد ) ، وعلى هذا الاساس « الاقتصادي » ، « يبينون » ان الســـلام لصالح الطرفين ، **ويسترسلون** ( زارحي بشكل خاص ـ عنوان وموضوع دراسته : أهمية السلام بالنسبة للاقتصاد **الاسرائيلي** ـ ولكن الجميع ! ) في « تبيـــان » أنه لصالح **اسرائيل** بالذات •• بتعبير آخر : غاية اسرائيل هي السلام ، السلام ، السلام • دائما قالوا ذلك • ولكنهم يقولونه **بشكل خاص** ، في جوقة كبيرة منسقة ، في فترة تمهيد العدوان الثالث ، في مجلة سارتر ، في باريس ، للرأي العام العالمي ، والعربي • والجبهة الشعبية الديمقراطية تأخذ قولهم ، حجة تأخذها من الخصم وتعكسها ضد الخصم • بالحقيقة ضد الخصم الآخر : الانظمة العربية المتقدمة المتراجعة المحبة للسلام = الجمهورية العربية المتحدة ، عبد الناصر •

والحال ، هذا العكس انعكاس وصدى • الفرق بين النقيض الاسرائيلي اليساري السلمي والنقيض العربي اليساري الحربي الثوري كالفرق بين كرسي أبيض وكرسي أسود ، على صعيد الفهم **ونتائجه** • ( الفرق « الاساسي » هو في « حسن نية » الناقل العربي • وهذا الفـــرق « الاساسي » = صفر ، عمليا ، موضوعيا ) • الناقل العربي يدعو الى صرف الجيوش النظامية المحترفة ، لانها تحمل « بذور هزيمة جديدة » ( حرفيا ) • الاصل الاسرائيلي يدعو الى تخفيف نفقات الدفاع • الناقل العـــربي يدعو الى صرف الجيوش **العربية** النظـــامية المحترفة ، حبا بحرب التحرير الشعبية • الاصل الاسرائيلي يدعو الى السلام • والحال ، في الوقت الذي تتحقق فيه دعوة الجبهـــة الشعبية الديمقراطية ، « للسلام » (!) سيدخل من الباب الواسع ، شيئا أكبر بكثير من توسيع الصناعة الاسرائيلية في السوق العربية •

في مسيرة الاقتصادية الناقلة « العاكسة » * الهاذية ، لم يمتنع الكاتب عن ذكر « نفقات الدفاع » ، لم يمتنع عن « اضافة » هذا البند في ذيل العلاقات التجارية والترانزيت وأنابيب النفط : « يضاف الى ذلك ان تصفية قضية فلسطين ستتيح للبرجوازية العربية والرأسمالية اليهودية التقليل من نفقات الدفاع التي تخصصها لبناء جيوشها النظامية المحترفة » • انه لا يرى اذن ان هذه الحجة تنسف بنيانه عن « التصفية » من الاساس • الجيوش النظامية ـ التي ليست جيوشها ، جيوش البرجوازية العربية ـ هي التي تحكم في غالبية الدول العربية • ولقد نسي اليسار الماركسوي ـ الطبقوي مقولته المحببة ، « البرجوازية

* العاكسة ، في الحدود المبينة آنفا •

الصغيرة » ، نسي ان في منطقه بالذات ليست البرجوازية بل البرجوازية ــ الصغيرة هي الحاكمة ، ونسي ان الجيش في هذه الدول المتقدمة ليس جيش هذه الطبقة الحاكمة بقدر ما ان هذه الطبقة الحاكمة هي طبقة هذا الجيش ( عدم رؤية هذا الوجـه الثاني والهام في العـــلاقة هو بالضبط جـــزء من التصور « الاقتصادي » ) •

وقد فاته في جملة ما فاته من أمور انه اذا كانت اسرائيل في ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ تسير قدما نحو الاختناق ، واذا كانت في الاشهر الاولى من ١٩٦٧ قاب قوسين من الانهيار الاقتصادي ــ الإجتماعي او أدنى ، فان هذه الحقيقة ( المضخمة بدرجة لا بأس بهـــا ) تدين ، على وجه التحـــديد ، ديماغوجية الركض وراء « التحرير » ( وراء الحرب ــ الهزيمة ) الذي سار عليها قطاع واسع متنوع من اليسار العربي ( في مقدمته قادة الجبهة الشعبية الديمقراطية الحاضرة ) على امتداد الحقبة المذكورة ، واستطاع ان يفرضها • واندفاعات اليوم لدى هذا اليسار ــ الاندفاعات المنظرة مجددا في مفاهيم وألفاظ الاقتصادية الامبريالية ، كاريكاتور الماركسية اليساري ــ ما هي الا امتداد لاندفاعات الامس القريب •

## الواقع الاجتماعي ــ السياسي في اسرائيل

٩ ــ ليس هنا موضع نقد تصور الصهيونية « الاقتصادي » العام الدارج في أوساط ماركسيي الوطن العربي والعـــالم ، والذي يتخذ اشكالا متنوعة ومتجددة : الربط « الاقتصادي » « الطبقي » « الحـــكم » بين الصهيونية و « الرأسمالية اليهودية » ، بين « الصهيونية » و « الاستعمار » ، تجاهل أهمية الجزء الخاص ــ الصهيونية ــ في الكل العام ــ الامبريالية ــ ، تتبع « التطور الاقتصادي » الصحيح والخاطىء ، رفض وادانة كل محاولة لتلمس العناصر الايديولوجية ، رفض مسألة اليهودية كدين * ، اعتبـــار الايديولوجيا ظاهرة ذيلية عديمة الفعل والاثر Épiphénomène ، فصل الصهيونية عن «فلسطين» أي عن اعتبارات الهيمنة العالمية للامبريالية • هذا موضوع طويل سنتناوله في حينه ** •

لنلاحظ الآن ان هذا الموقف المعرفي « الاقتصادي » يبلغ قصوره الأكمل في كتاب « العفوية والنظرية » • « الصهيونية العالمية » تتقلص الى « التطـــور الاقتصادي في فلسطين » ، « التطور الاقتصادي في اسرائيل بعد ١٩٤٨ » ، « العلاقات التجارية » ( المكنة ! ) بين اسرائيل والدول العربية ، وخـــطر

---

* مع ان على الماركسيين أن يواجهوا وان يدرسوا هذه المسألة انطلاقا من نصوص ماركس وانجلز ، من « المسألة اليهودية » ومن نصوص ١٨٥٣ حول الشرق والعرب والاسلام •

** مكانه عند دراسة عماد نويهض ، جلال صادق العظم ، ابراهام ليـــون الخ ••• ناجي علوش ، حمدي عبد الجواد الخ•••

« التصفية » الوشيكة و « السلام » الدائم ، و « الرأسمالية اليهودية » واتمامها القمعي ٠

ومع ان هذا التصور « اقتصادي » ، فانه لا يرى أبدا ولا يلتفت الى صورة **المجتمع** الاسرائيلي ٠ ليس فقط ان الظاهـــرة الديموغرافية ( السكانية ) ــ الهجرة ، الاستعمار الاسكاني ــ خادمة لـ « التحليل الاقتصادي » * ، بل ان هذا التحليل الاقتصادي لا يصب عند المجتمع **وطبقاته** ٠ آتيا من فهم « اجتماعي » و « طبقي » للكون ، هذا أمر يلفت الانتباه ٠ آتيا من نظرية تنقب في « الواقــع الاجتماعي الفلسطيني » العربي ، لتجعله قدر الامكان واقعا اجتماعيا ــ طبقيا خالصا ( خالصا من الباقي : توزع جغرافي ، لاجئين وغير لاجئين ٠٠٠ ) وأساسا لستراتيجية الثورة « الفلسطينية » ، هذا أمر يفقأ العين ٠

وهو أمر « مفهوم » ٠

لقد رسم لينين صورة مجتمع الطبقات ــ الاحزاب في روسيا القيصرية ، لوحة روسيا الاجتماعية ــ السياسية : الاقطاعيون** ( جماعة المئة الســـود والاحزاب « القومية » ) ، الاقطاعيون ــ الرأسماليـــون ( الاوكتوبريـــون ) ، البرجوازية الليبرالية ( حزب الكاديت ) ، الفلاحون ( الاشتراكيون ــ الثوريون ، الشعبيون ، الشغيليون ) ، العمال ( الحزب الماركسي بجناحيـه : بولشفيـك ومنشفيك ) ٠ المجتمعات الاوروبيـة ــ الغربية ايضا مبلورة اجتماعيا ــ سياسيا ، طبقيا ــ حزبيا ( على نحو مختلف ) ٠ مجتمع الولايات المتحـــدة الرأسمالـي الامبريالي يختلف ( لا يوجد « حزب عمال » ، تسعة اعشار العمال يصوتـون للحزبين المتناوبين على الحكم ) ٠ المجتمعات العربية المستعمرة وما بعد المستعمرة ، على امتداد القرن العشرين ، هي ايضا في وضع مختلف ( في غالبية الاقطار ، العمال لا يصوتون لحزب عمالي خاص ٠ لا يوجد حزب فلاحي او شبه فلاحـي كما في روسيا ٠ لا يوجد انقسام سياسي وتبلور حزبي في الطبقـــة الحاكمـة التقليدية ، بين اقطاعيين ورأسماليين ــ اقطاعيين ، وبرجوازيـة كمبـرادورية ، وبرجوازية وطنية الخ ) ٠

في المجتمع اليهودي الاسرائيلي ، هذا التبلور الطبقي ــ الحزبي **موجـود** الى حد كبير ، في شكل خاص ، اسرائيلي ٠ هذا الشكل الاسرائيلـــي **يشبـه** الوضع الاوروبي الغربي بوجه عام ، **يشبه** الوضع الانكليزي بوجــه خــاص ٠

---

* خادمة قاصرة مبتورة تقف عند سنة ١٩٤٧ وظهرت سابقا في شكل «**محاولات** استعمار اسكاني»، في الفصل الاول ــ الامبريالية العالمية ــ ، كمحاولة من المؤلف غير واعية او واعية لاغراق الاستعمار الاسكاني الفلسطيني « الخاص » في المفهوم العام « العالمي » ٠ الاستعمار الاستيطاني موجود بالفعل في بقاع مختلفة من المناطق المستعمرة ذات المناخ المعتدل ٠ ولكن نتائجه في فلسطين ، ارتباطه بالعصر الامبريالي وستراتيجية الهيمنة العالمية ، أهميته بالنسبة لنظرية تسمي نفسها نظرية العمل الفدائي والمقاومة والكفاح المسلح والحرب الخ !!!

** نبسط هنا بعض الشيء ، ونستخدم ألفاظا يفهمهــا ويستخدمها الرفـــاق « اليساريون » ٠ ( تطرقنا الى هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا « نظرية الحزب عند لينين ٠٠٠ » ) ٠

هناك طبقة عمال واسعة ، وطبقة برجوازية رأسمالية ومراتب برجوازية ـ صغيرة • يمكن القول اننا من بعض الوجوه ( من وجوه اساسية في النظرة الماركسية الكلاسيكية ) أمام نموذج المجتمع البرجوازي المعاصر رغم الكيبوتز ، ورغم عدم وجود صناعة ثقيلة وصناعة استخراج ( الا في نطاق ضيق ) •

هناك عمال يصوتون لاحزاب اليمين ( الاحزاب الدينية : مزراحي ، آغورات اسرائيل ، لها تنظيمها العمالي ) ولكن هذه حالة **نادرة** لا تتخطى حدا ضيقا للغاية • نسبة العمال الذين يصوتون لحزب المحافظين في بريطانيا او للحزب الكاثوليكي ( الاجتماعي المسيحي ) في بلجيكا أو للاحزاب غير العمالية في فرنسا ، في ايطاليا ، اكثر بكثير من نسبة العمال الذين يصوتون لاحزاب « اليمين » الديني او « الوسط » البرجوازي الليبرالي في اسرائيل • **٩٠٪ من العمال يصوتون لاحزاب العمال** ، أحزاب العمل ، الشغل ، الاشتراكية » ، : الماباي ( قيادة الحكومة على امتداد الوجود الاسرائيلي ) ، المابام الذي على يساره والذي يتبنى « الماركسية » و « الماركسية ـ اللينينية »، من فضلكم ، آحدوت هاعفودا ، رافي ( الجناح « اليميني » للماباي ، انشق عنه لفترة • ولعل **كل** هذه الاحزاب هي الان حزب واحد ) • الكيبوتز موزعة بين مابام وماباي وآحدوت هاعفودا •••

باقي السكان ، باقي الطبقات والمراتب الاجتماعية تعطي اصواتها للاحزاب الاخرى : الحزبين « البرجوازيين » الليبراليين ، رافي ( في حال وجوده ) ، احزاب « اليمين » الديني وحزب حيروت ( سابقا ، جماعة ايرغون الارهابية ) ، وأيضا للماباي •



كل هذه الاحزاب صهيونية ، توسعية ، معادية للعرب • المابام ـ وهو « أفضلهم » (!) ـ تولى بنفسه مهمة اقامة الكيبوتز في الجولان • دعا الى « السلم »، يدعو دائما الى « السلم » ، تصدر ( ربما يتصدر ) « انصار السلام » والوفد الاسرائيلي اليهودي ـ العربي في مؤتمرات « انصار السلام » العالمية • يتجادل مع شقيقه في « اليسار الاقصى » آحدوت هاعفودا لان هذا الاخير عدواني ضد العرب • ذات مرة ، ( او مرات ) ، أدان شعار عدم التراجع عن اي شبر من الارض ، وأصدر مجلة نيوآوت ـ لوك المختصة « بالسلم والتعاون » اليهودي ـ العربي والتي لها ( وله ) الباع الكبير في مجموعة « من الفكر الصهيوني المعاصر » السلمية ـ اليسارية السابقة للعدوان •

الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) لا ينال الا اصواتا قليلة من اليهود، تقرب من لا شيء • ولعل قوته الضعيفة القريبة من لا شيء بين اليهود هي أضعف في وسط العمال منها في الوسط الاخر • ( والحزب « الشيوعي » الاخر ( الصهيوني ) هو ايضا هزيل بين اليهود ) • جماعة ماتزبن افراد •••

حزب العمال البريطاني ينال اربعة أخماس اصوات العمال الانكليز وهو ليس حزبا ثوريا او ماركسيا او ما شابه • بل حزب اصلاحي ، « امبريالي » •

يمثل طبقة عاملة مستفيدة اقتصاديا • أدانه لينين مرارا • كما أدان لينين وماركس وانجلز الطبقة العاملة الانكليزية ، ادانة عامة • ومع ذلك ، ابان عدوان السويس ، حدث شيء : تحرك العمال الانكليز ، حزب العمال الانكليز ، نقابات العمال الانكليز •

لم يحدث ، لا يحدث ، ولن يحدث ( على الاقل في الظرف العربي الراهن ، المادي والفكري ) شيء ما بين العمال اليهود الاسرائيليين ، في صفوف احزاب العمال الاسرائيليين في قواعد الهستادروت اليهودية الاسرائيلية •

في الولايات المتحدة الاميركية ، العمال يصوتون لحزبي الرأسمال الامبريالي ومجتمعه • واتحاد نقابات العمال الاميركان فاسد في القيادات والقواعد ، انه مؤسسة رأسمالية وامبريالية • ومع ذلك ، في الطبقة العاملة الاميركية ، في المجتمع الاميركي تحدث تحركات **جماهيرية** ضد حرب فيتنام ، واختمارات اولية غامضة وعنيفة •

تلك ليست الحال في اسرائيل • « اليهود الشرقيون » ؟ نصف او اكثر من نصف المجتمع الاسرائيلي • مضطهدون مستغلون في « المجتمع » الاسرائيلي؟ نعم ! في « المجتمع » الاسرائيلي ! في « علاقات الانتاج » الاسرائيلية ! التي هي جزء من « علاقات الانتاج »**العالمية** • الذي هو جزء من « المجتمع » العالمي • اللذين هما جزء من عصر الامبريالية والهيمنة العالمية والصراع العالمي • لا توجد قرينة واحدة تشير الى ان هؤلاء اليهود الشرقيين ( الذين وفدوا من البلاد العربية ) والذين هم تجاه الفريق الاخر من حيث مستوى ( ومعدلات ) الدخل ، والعلم ، والصحة ، في نسبة ١ الى ٢ او الى ٣ ، ومن حيث الوجود في هيئات السلطة والمؤسسة الصهيونية كلها في حالة اسوأ ايضا ، هم أقل تعصبا لاسرائيل واقل عدوانية وتوسعية تجاه الجوار العربي من اليهود الاوربيين • أمثال نسيم رجوان العراقي الاصل ( اذا (!؟) كان صادقا في « سلميته » ، اذا كان « حسن النية » وحسب ) نادرون •

و « أصدقاؤ » نا اليهود لا يخدعوننا أبدا • لم أقرأ شيئا عند ماير فلنر او عند ماتزبن **يقول** العكس • هل قرأتم ؟

في حديث « الصهيونية العالمية » ، في « التطور الاقتصادي في فلسطين وفي اسرائيل » ، في العلاقات التجارية ( القديمة والممكنة !! ) ، في السلام الوشيك والتصفية الدائمة ، في حديث « ما يمكن استرجاعه » من قبل حسين ، في « نظرية العمل الفدائي » ، في نظرية « الثورة الفلسطينية » ، في نظرية « حرب التحرير الشعبية » الفلسطينية والعربية ( مع صرف الجيوش النظامية المحترفة ) ، غابت هذه الحقيقة الجوهرية • هذا السيل العرم « الاقتصادي » « الاجتماعي » تبدد امام هذا الواقع الاجتماعي ــ السياسي • هذه الامواج « الطبقية » و « الحزبية » لم تلطم الموضوع ــ العدو •

لان هذا الواقع الجوهري ينسف المنطلق الفكـري ـ « الاقتصاديـة » ، الماركسية » الكاريكاتورية * ـ وينسف الهدف ـ الهدف الفاري : التصفية لوشيكة ، والهدف الاخر : الهجوم على القاهرة ـ •

لهذا السبب ، لهذين السببين ، تجنبت الجبهة الشعبيـة الديمقراطيـة لواقع الاجتماعي ـ السياسي الاسرائيلي • حتى « تمرر » ** المنهج «الاقتصادي» لمناهض للماركسية ـ اللينينية ، وحتى « تمشي » ** باسم هذا التزييف الكامل لماركسية ـ اللينينية ، عداءها للوحدة العربية ، لوحدة القوى القادرة فعلا على سد العدوان الدائم ، وعلى **شق** الطريق المسدود الى النصر •

## لمقاومة والواقع

١٠ • وهذا الخط الفكري « النظري » ـ « الستراتيجي » ـ «السياسي» الغ الخطورة والخطر •

خطره على الشعب العربي من الخليج الى المحيط • تيار يسعى الى اغراق لعقل تحت سيل الالفاظ • يجهض الاختمارات الثورية الحقيقية عند قطـاع لبير من الشباب المتمرد على واقع تعس وأفكار أتعس • يحبط النشوء التاريخي لحزب البروليتاري العربي الماركسي ـ اللينيني • يخرب المعركـة القوميـة • مارس الابتزاز « اليساري » ، على نطاق لم يشهد له مثيل • يواصل تهويـره لسابق • وبلاط الجحيم مرصوف بالنوايا الطيبة !



خطره على المقاومة الفلسطينية • على العمل الفدائي • على الجبهة الشعبية لديمقراطية •

المقاومة الفلسطينية لا يمكن ان تكون حتى ولا بعد مئة سنـة من التقـدم لحقيقي ، بديلا عن العرب ، عن مصر ، عن القوة العربية الهزيلة ولكن الاقوى من المقاومة الفلسطينية حتى الواعية الصاحية ) • « حرب التحرير الشعبية » لا يمكن أن تكون بديلا عن الجيش النظامي • حتى اذا أغرقنـا الامبرياليـة لاميركية بمليون جندي ( وهذا ليس مستحيلا ** ) ، على جيوشنا النظامية ان تقاتل أولا • وعلى الحرب الشعبية المساندة وربما الباقية اخيـرا وحدها في لساح ان ترتقي الى مستوى الحرب النظامية ، **بفضـل** الضباط والرقبـاء العرفاء والجنود **المحترفين** •

والمقاومة الفلسطينية لا يمكن ـ على صعيد النظرية ، **اذا كانت النظريـة**

---

سنرى الى اية متاهات تقود هذه العدمية القومية أصحابها في ما يسمونه « المسألة الاسرائيلية ». أصحابها الآخرون ! كشلي ليس الا « القطر » • أما « الغيث » فقادم : حواتمه ، العظم •

* على نفسها أولا •

** واللينيني **وكل وطني** لا يستبعد هذا الاحتمال من تفكيره وتخطيطه •

**شيئا ما له قيمة ما** ، اذا كانت **دليلا** للعمل ، لعمل الكفاح المسلح بالذات ، ولو بأصغر مقدار * ـ لا يمكن الا ان **تنطلق** من الواقع العربي الحقيقي ، واقع الطبقات والدول والاقطار والجيوش والخطوط **العملية** والافعال التي ليست الالفاظ ، من الواقع العالمي ، من الواقع الفلسطيني ، واخيرا وليس في المقام الاخير ، الواقع الاسرائيلي ، الموضوع ـ العدو المباشر ٠

في تلمسها لهذا الموضوع ـ العدو المباشر ، ولقواها الحاضرة والمقبلة ، ترتكب حماقة بالغة وقاتلة اذا جعلت الالفاظ تركب الفكر ، اذا استنتجت « ستراتيجية الثورة الفلسطينية » من لفظ « الثورة الفلسطينية » ، من مقولة « الثورة » ونموذج « الثورة » العام ، اذا « سحبت » على حالها فيتنام او كوبا او حتى الجزائر ، اذا استسلمت لاراء الناصحين ، الفاهمين ** لكوبا وبوليفيا والبرازيل ، البعيدين عن فلسطين ، اذا تلهت بلعبة الالفاظ التي تسمي اسرائيل « الرأسمالية اليهودية وأداتها القمعية » ، اذا نسيت ان لعبة الالفاظ ليست للثوريين وبالاحرى ليست للثوريين المحاربين ٠

ان الماركسي ـ اللينيني لا يلعب بالثورة ولا يلعب بالحرب ***. **الجبهة الشعبية الديمقراطية** تلعب بالاثنين ٠ لقد جلد لينين رفاقه اللاعبين ٠ **نحن نجلد خصومنا ورفاقنا اللاعبين** ٠ ان تكون لعبتهم « منظرة » لا يخفف بل يعزز كونها لعبة : « ثورة فلسطينية » ، « واقع اجتماعي فلسطيني » ، وبدون الواقع الاجتماعي الاسرائيلي ، ثم تشريع لمستقبل فلسطين الديمقراطية مع دعوة الى « كافة (!) المتجمعات الاسرائيلية واليهودية » لتأييد هذا « الحل الديمقراطي » وكلمات عابرة ـ مبهمة او صريحة ـ عن تحول اسرائيل من الداخل ( العظم ، عماد نويهض ) ، « ثورة فلسطينية » تتحول صراحة ( في الكتابين اللاحقين ) الى ثورة ضد « النظام الاردني » ٠٠٠ هذا كله سنصل اليه ٠ ولكن ما نتوقف عنده الان التصور « الاقتصادي » الذي يجعل اسرائيل في الاساس والجوهر دولة صناعية مكلفة بغزو **السوق** العربية ، والذي يجانب الجوهر الاساسي في الطابع « **الصناعي** » لاسرائيل ، الجوهر الذي يتصل مباشرة بالصراع التاريخي الراهن بين الشعب الفلسطيني والامة العربية واسرائيل والامبريالية ٠

على الثوريين المحاربين ، بدلا من ان يتناقلوا التصور الاقتصادي لغزو الصناعة الاسرائيلية للسوق العربية الزراعية المتخلفة ، ان يفهموا بأي معنى

---

* وليس حديثا «سياسيا» (؟) مع الذات أو اعلانا «أخلاقيا» الى العالم ( حقنا في الثورة ، نبلنا : الدولة الفلسطينيةالديمقراطية ، فلسطين للجميع ) ٠ بالطبع (!) ، يمكن أن تبقى «النظرية» لـ «السياسة (؟) لـ «العمل السياسي» (!) ، وان تبقى بعيدة عن العمل المسلح ٠ ولكن في هذه الحال ، لنعترف ان قيمتها تبقى محدودة ٠ هذا أقل ما يمكن أن يقال ٠

** ربما !

***وبالاحرى بتركيبهما ، بالثورة-الحرب ، بالحرب الثورية ٠ اللاعبون ، في زمن لينين وعلى طول تاريخ الماركسية ، هم « اليساريون » ، شابر ـ فيليش ، باكونين والفوضويون ، الفوضيون ـ النقابيون ، وصولا الى فرسان الجملة الثورية في ١٩١٨ ٠

اسرائيل هي مجتمع صناعي وباي معنى اسرائيل ليست مجتمعا صناعيا ، ان يفهموا ان الطابع الصناعي الحقيقي الجوهري لاسرائيل يتخذ قيمته الحيوية الحاسمة في **التطبيق العسكري الحربي** بشكل خاص ، وفي **العقل السياسي** بشكل عام ·

اسرائيل لا تملك « صناعة ثقيلة » · ليست قادرة ان تغمر مصر وسوريا ولبنان بالالات والتجهيزات والسيارات او بالمنسوجات وما شابه · ليست مؤهلة لذلك * · وليست مكلفة بذلك · ليس هذا دورها او دورها الاساسي·

ولكن اسرائيل « مجتمع صناعي » بمعنى آخر ، « مجتمع برجوازي » يتمتع بمزايا هذا المجتمع التاريخية الحاسمة ، واحيانا بشكل مكثف :

القابليات التقنية الكامنة المنتشرة في الافراد ، الارتباط العضوي باوروبا وتاريخها وحضارتها ، التنظيم وقابلية التنظيم ( التنظيم ، التخصص ، تقسيم أو توزيع العمل ، تكامله ، التعاون المركب ) · اي ما يسميه البعض الرأسمال الانساني او الرأسمال الدماغي( شريطة ان نفهمه كرأسمال عقلي **اجتماعي** ** · هذا الذي يقف وراء المردود ، وراء الانتاجية *** · هذا الذي حقق انتصار الرأسمالية على الاقطاعية وعلى النظم ما قبل الرأسمالية ، انتصار البرجوازي على الفلاح ونصف ـ الفلاح وعلى البدوي ، وانتصار الغرب على الشرق · هذا الذي لفت انتباه آدام سميث واقتصاده الكلاسيكي ، اي أحد منطلقات المجتمع البرجوازي الصناعي ، وأحد أصول هيغل والديالكتيك وماركس والماركسية · هذا الذي حقق انتصار انكلترا الصغيرة والحديثة على الهند الكبيرة والعريقة**** وانتصار جنود بونابارت على مماليك مصر ***** وامتهان « الفئة القليلة »

---

* تستطيع أن تصدر بعض السلع الصناعية ( والزراعية ) ، وبعض الخدمات ··· في حالة « السلام والتعايش والتعاون » ، أي « نظريا » ·

** الفرد العربي قد يكون اكثر ذكاء من الفرد السويسري أو الانكليزي أو الالماني · ليس المجتمع·

*** بين « المتقدم » و « المتخلف » ، الفرق في الانتاجية اكبر من الفرق في مستوى « أدوات الانتاج » · هناك اذن مسالة علاقة الانسان والآلة ، وعلاقة الانسان والانسان ومسالة « قوى الانتاج » ككل ) · وهناك بالطبع علاقة الانتاج العالمية ، اي على وجه التحديد التنظيم العالمي الذي تسعى الامبريالية الى تخليده ·

**** هذه المسالة ( بريطانيا ـ الهند ) واسعة المضامين ( « اسلوب الانتاج » الآسيوي ، و ، التكوين القومي ـ اللغوي ـ الطائفي ـ العرقي للهند ) · انظر تحليلات ماركس في كتابنا « الماركسية والشرق » ، دارالطليعة ، ص ٢٠٣ ـ ٢٣٢ ، وبشكل خاص ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ : آلية احتلال بريطانيا للهند وآلية السيطرة البريطانية على الهند · ولا بأس من الاشارة الى ان سقوط الهند تحت الاستعمار بدأ قبل « اختراع الآلة البخارية » بكثير · المسائل الكبرى التي لم يرها الفكر القومي ( ساطع الحصري ) ، لا يراها ايضا الفكر الماركسوي ، قديمه وحديثه ·

*****وبهذا الصدد ، يقول نابوليون ويردد انجلز قوله ( « آنتي دوهرنغ » ، نهاية فصل «تحول الكم الى كيف » ) : « مما لا ريب فيه ان اثنين من المماليك كانوا يبزون ثلاثة من الفرنسيين ، ومئة من المماليك يعادلون مئة من الفرنسيين ، ولكن ثلاثمئة من المماليك لا يعادلون الا مئتين من الفرنسيين ، كما ان ألفا من الفرنسيين قد هزموا بصورة دائمة الفا وخمسمئة من المماليك »· ( وكان جندي المماليك أحسن فرسان العصر ) ·

( اوروبا ) ل « الفئة الكثيرة » ( آسيا والعالم الفسيح ) ب «اذن الله» والتاريخ· هذا الذي استطاعت فيتنام ان تتداركه بمثله ــ المضاد ( وبدون صناعة كبيرة غازية ! ) ، بينما « سقط » العرب أمامه سقوطا ثابتا دائما ، بفشلهم او افشالهم امام وحدتهم القومية ، وامام تحركهم الجماهيري الموحد الاكبر ·

بتعبير آخر : « موضوعة » « اسرائيل مجتمع صناعي » ، نفهمهـا أولا بمدلولها **السياسي ــ العسكري ــ الحربي** · في ضوء وبالارتبـاط مع دور اسرائيل ومكانها في الهيمنة العالمية ·

كل شغل « نظرية العمل الفدائي » المزعومة يذهب ضد الارتقاء «الصناعي» للفلسطينيين وللعرب ، ضد **التنظيم** * ، ضد « العقل » ( الربط ! ) ، ضـد الجدوى والفعالية Efficacité ، ضد الثبات وطول النفس والاستقـرار النفسي · وحين تهاجم « النظرية » المزعومة « الميزات » الفلاحية ، فاننا نقول بأعلى صوتنا : حذار من « الميزات » البدوية ! ان صفتكم البرجوازية ــ الصغيرة الجامعة لا تستبعد بل تتضمن ــ في ظرفنا العربي ــ « ميزتكم » البدوية ·

ومن وحي قانون الكم والكيف ومقارنة جيش الفرنسيين وجيش المماليك على يد الجنرال البرجوازي الامبريالي بونابارت و القائد البروليتاري الماركسي فريدريك انجلز ، نقول :

هناك مجتمعات ( او شعوب ) **تضرب** ( × ) طاقاتها : تلك حال الشعوب التاريخية البرجوازية ، وتلك حال الشعوب الاشتراكية التي انطلقت من التخلف **لتلحق** بهذا أيضا ** ·



وهناك مجتمعات ( او شعوب ) تجمع ( + ) طاقاتها · وهذا أضعـف الايمان · تلك حال شعوب الشرق · فيما عدا لحظات **المحن الكبرى والوعي او الوحي** ·

وفيما عدا لحظات الضياع والتمزق · حيث تقوم بعملية **طـرح** ( ــ ) لقواها ·

العرب ، في الآونة الأخيرة ، قاموا بعملية **قسمة** ( : ) وسموها جمعـا · على هذا أولا ، تحاسب البروليتاريا والامة طبقته « ـها » الاقطاعية ــ البرجوازية، وطبقتها السياسية البرجوازية ــ الصغيرة · وفي الحساب الاخير ، في رأسه : « اليسار » الكاريكاتوري المتنوع ، الذي يسعى اليوم اكثر من اي وقت مضى الى تعزيز القسمة والتناثر والتبعثر ، تحت ستار « صراع طبقات » لا صلة له بصراع الطبقات العالمي والمحلي · غباؤه القوموي الماضي وعي كبير **بالمقارنة** مع

---

* كل عبادة « اليسار » لـ « التنظيم » لا تغير شيئا من هذا الواقع ، ولا تحقق أي تنظيم مجد فعال · تلك بشكل خاص تجربة « الماركسية » المحلية ، قديمها وجديدها ·

** والتجربة تشير الى ان هذا قد لا يكون عمل عشر سنوات ولا عشرين سنة ·

غبائه الطبقوي الحاضر •

و « نظرية العمل الفدائي » ليست الا « القطر » الذي يسبق « الغيث » •

## بلاط الجحيم

١٢ • ان هدف « نظرية العمل الفدائي » يتقلص الى اثبات فكرة التصفية الوشيكة • هذا على الاقل هو الهدف الظاهر المعلن • المقدمات « الاقتصادية » في خدمة هذه الفكرة • « حرب التحرير الشعبية » ، اللفظ العام ، والمعنى المحدد المعلن — صرف الجيوش النظامية المحترفة ( « حاملة بذور هزيمة جديدة » ) — وشبه المعلن — اسقاط الانظمة بواسطة « الاحزاب الثورية » — تدخل في هذا الاطار •

الفصل الاول يقول : نفط ، ارقام الخ « الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة » تريد تصفية قضية فلسطين •

الفصل الثاني يقول : تطور اقتصادي ، تطور اقتصادي ، ارقام أزمة اقتصادية في اسرائيل ← « الصهيونية العالمية » تريد تصفية قضية فلسطين •

الفصل الثالث يقول : علاقات تجارية ، ارقام ← البرجوازية العربية تريد تصفية قضية فلسطين • رحلات سندبادية ← أردن حسين ، مصر عبد الناصر ، يريدان تصفية قضية فلسطين •



الفصل الرابع يقول: الواقع الاجتماعي الفلسطيني ← الشعب الفلسطيني ( باستثناء كذا طبقات ، مع التوسيع الواجب « يساريا » ) يعارض تصفية قضية فلسطين •

الفصل الخامس يقول : عفوية ونظرية ، فتح وسواها ← نحن ( اليسار الماركسي اللينيني الفلسطيني ) نعارض تصفية قضية فلسطين • ( الاخرون قاب قوسين من التصفية أو أدنى ، بحكم رفضهم نظرية مقارعة الانظمة العربية القائمة ، حسن النوايا بلاط الجحيم ) •

**ونحن نقول :**

ضد الفصل الاول : « الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة ، تريد اكثر بكثير ، تريد تصفية — فلسطين ، تصفية الامة العربية كأمة ، الهيمنة العالمية ، اسرائيل « قاعدة » أوسع وأقوى ضد الاتحاد السوفياتي * •

---

**مجتمعا** يحارب **معها** في حال قيام حرب عالمية • لان الحرب العالمية يمكن أن تقوم رغم ارادة السوفيات السلمية • أميركا زاحفة عالميا • في حال قيام هذه الحرب ، وقودها البشرية ستكون في أوروبا روسية واميركية بالدرجة الاولى ، وبشكل مباشر ، وفي الشرق الادنى عربية ويهودية• تلك طبيعة عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، في مرحلته **الراهنة الحاضرة** •

ضد الفصل الثاني : استعمار سكاني ، مجتمع اسرائيل ، ثلاث حروب هيأتها وبدأتها الصهيونية واسرائيل ، عدوان حزيران أعمق وأقدم اعدادا من عام « الازمة الاقتصادية » ، ← الصهيونية العالمية تريد اكثر بكثير من تصفية قضية فلسطين • تريد تصفية ـ فلسطين ، والبنود الانفة •

ضد الفصل الثالث : « الخسائر التجارية » مضخمة ، « خسائر نفقات الدفاع » مهملة «مضافة» ، ولكن حتى هكذا فهي تفيد العكس ، وتنسف بنيان « النظرية » « الاقتصادية » • وهذه « النظرية » ، اذ « تلعب » بنصوص شيفر ، ترجعها وتنزلها الى درك « الاقتصادية » • الحذف يصيب بشكل خاص تمييز شيفر بين « ناحية اقتصادية » و « ناحية سياسية » : لبنان الـذي يكسب **اقتصاديا** من النزاع ، هو الذي يريد « السلام » و « التصفية » •

« التصفية » تتوقف اولا على الفصلين السابقين : الامبريالية العالمية ، الصهيونية العالمية ، الولايات المتحدة ، اسرائيل • بالنسبة لحسين : **اولا** ، هل يمكن « الاسترجاع » ؟

ضد الفصل الرابع : شعب فلسطين يرفض التسليم بوطنه ، اللاجئون يريدون العودة الى ارضهم ( وبنسبة اكبر من الـ ٧٥ ٪ التي ينقلها المؤلف عن نشرة **خاصة** رقم ١٥ ، صادرة عن الامم المتحدة ) هذا نابع لا من « الواقع **الاجتماعي** الفلسطيني » بل من الواقع الانساني ، **الوطني** ، **القومي** للشعب الذي فقد وطنه •

ضد الفصل الخامس : لا النظرية ضد العفوية ، بل عفوية النظرية ، عفوية « نظرية » كم ، من ألف الى ياء • فتح ، منظمة تحرير ، جبهة شعبية ، الخ ، ليست بعيدة عن هذه « النظرية » : نظرية ( ! ) رفض التصفية ، نظرية ( ! ) حرب التحرير الشعبية • انهـا متأخرة عنكم في انها لم تنظر هذه « النظريات » (!) ، بل تركتها في شكل شعارات • هـذا التأخر تفوق ، تقدم ، بقاء العقل • تقدمكم تأخر ، ضياع للعقل **ولاامكانية** النظرية ـ الدليل • اذا تقدمت فتح ، منظمة التحرير ، الجبهة الشعبية ، الصاعقة ، جبهة التحرير العربية ، الخ الخ الخ نحو « النظرية » (!) « المتلاحمة » ـ « الثورة الفلسطينية »، « رفض التصفية » ، « حرب التحرير الشعبية » ، صرف الجيوش النظامية ، انبثاق حرب التحرير الشعبية « العامة » « على امتداد الوطن العربي » من « الثورة الفلسطينية ـ العمل الفدائي ـ حرب التحرير الشعبية الفلسطينية » ، دفن الانظمة المتقدمة المتراجعة بواسطة « الاحزاب الثورية للجماهير » ـ عندئذ ، هذه المنظمات ستدفن نفسها قطعا ( في جميع الحالات ، مهما كانت النتائج الاخرى ) ، وربما **فلسطين** ( لا « قضية ••• » فقط ) ، والامة العربية كامة • وبلاط الجحيم حسن النوايا • حضورنا هنا ـ مع صرف الجحيم الحسن بالتي هي أحسن ـ : **ضد** ربما وقطعا ، في آن •

**الياس مرقص**

اللاذقية اذار ـ حزيران ١٩٧٠

# ١ ــ امرؤ القيس

ضرب امرؤ القيس ، سطح الطاولة بجماع قبضته ، وصاح :

ــ « اليوم خمر ، وغداً أمر ».

وفيما كان رواد المقهى قد اخذوا يشخصون اليه بنظرات زائغة ، رفع كأساً مترعة صهباء ، وجرعها ، ثم كبا على سطح الطاولة ، واغفى ، قبل ان يغير النهار لونه.



في اليوم التالي اندفع صبي المقهى ليعلن انه سيذهب .

قال صاحب المقهى : اين تذهب ؟

قال الصبي : قتلوا أبي .

قال صاحب المقهى : كثيرون يقتلون هذه الأيام .

قال الصبي : امام عيني . قتلوا ابي وعيناي شاخصتان واني سأذهب الآن .

قال صاحب المقهى : انتظر حتى الغد.

قال الصبي : بل الآن . وصورته في عيني .

قال صاحب المقهى : هنالك دائماً وقت للثأر والقتال . انتظر اليوم .

عندها استيقظ امرؤ القيس . رفع رأسه ، ونظر الى الساعة على الجدار ، ثم ضرب سطح الطاولة ، وصرخ : « اليوم خمر وغداً امر . »

وهنا دخل رواد جدد ، لفتتهم صرخة امرىء القيس . فسأل احدهم عنه.

ابتسم صاحب المقهى كدليل سياحي ، وقال : انه امرؤ القيس . الم تقرأ شعر الجاهلية . فراح الجميع يراقبونه ، وهو يرفع كأسه . ولكنه قبل ان يجرعه ، تحول اليهم مذعوراً ، ثم لوّح بطرف عباءته ، وانتضى سيفاً عتيقاً مثلّماً ، وصاح فيهم :

ـ « لماذا تنظرون اليّ هكذا ؟ الم اقل لكم ان غداً امر . » وهدأ قليلاً ، فأغمد سيفه ، واكمل : « هذا وعد » . ثم جرع كأسه ، وامال برأسه على الطاولة ، فيما كان الصبي يخترق الجمع مندفعاً الى الخارج .

وظل الرواد يراقبون راس امرىءالقيس فوق الطاولة . الا انما كان يغرقهم في اسى غامر ، انه كان في كل مرة ووجهه مكب على سطح الطاولة ، يبكي مريراً ، قبل ان يغفو .



## ٢ ـ السندباد البحري

ذات صباح اضطربت عينا السندباد البحري كموج يتكسر ، فسألته امه :

ـ اترحل ؟
ـ البحر يدعوني .
ـ واين تلقي مرساتك ؟
ـ سأربطها الى سنابل الأرض حيث اجدها .
ـ الارض واسعة !
ـ بمقدار ما تتسع احلامي ومحبتي .
ـ سمعت اخاك يقرأ في كتاب ان للارض شكل كرة .
ـ اخي يحب اللعب ، ويعلمونه في المدرسة ان للارض شكل كرة .
ـ وانت !
ـ انا لا اعرف المدرسة .
ـ ولا تعرف شكل الارض ؟!

– للأرض شكل قلب انسان .
– اخاف عليك . قـــد يكون القلب شريراً .
– القلب لا يكون شريراً .
– اعرف ، ولكني اخاف عليك .
– اتبكين ! حدقتاك تضيقان حين تبكين .
– حين ترحل ، وكلما ابتعدت ، ستتسع حدقتاي ، لتكون الأرض فيها . وتكون انت وحيثما اتجهت في بؤبؤي .

هنا سقطت لحظة الوداع في نفس السندباد البحري ، كقطرة كثيفـــة ومالحة ، فخرج دون ان يلوح بمنديله .

ولم تحتمل امه ان تراه يبتعد ،فارتدت عن الباب . وسار السندباد البحري، حتى وصل الساقية في الطرف الآخر من الحقل ، فجلس هناك .

وجاء اخوه يحمل حقيبته المدرسية . فأعطى للسندباد من دفاتره ورقة ، صنع منها السندباد البحري سفينة صغيرة ، وضعهـــا على سطح الماء . وراحت تتهادى ، فرفع رأسه الى السماء . وحين احس بأنه على وشك ان يترك بغداد وراءه ، اغرورقت عيناه بالدمع .ثم اخذت خيالات الارض تتواءض في عينيه، فظل اسير نشوة الارتحال . لولا ان اخاه الذي كان يقف على الطرف الآخر من الساقية ، صاح مقهقهـــاً :

– انظر !

وقبل ان يتنبه وعي السندباد البحري على ما حدث اكمل اخوه :

– انظر ما حدث . الحبر على ورقة سفينتك يختلط بالماء .

ونظر السندباد الى ماء الساقية . فتابـع اخوه :

– قرأت في كتاب التاريخ : ان غزاة رموا بكتب بغداد في النهر ، فظل ماؤه زمناً مختلطاً بالحبر .

واحس السندباد البحري بانكسار . فرفع سفينته المبتـــلة عن الماء . واعتصرها بين اصابعه ، وطرح بها بعيداً ، ثم اطرق ، وظل على حافة الساقية مطرقاً الى المســـاء .

في المساء قطع الحقل ، ورجع الى البيت ، فاستقبلته امه بالغبطة . ورقصت

نظراتها حوله طويلاً ، قبل ان تتركه ينام على زندها .

في اليوم التالي لم يخرج السندباد البحري . وحين عاد اخوه من المدرسة ، تقدم منه ، ورمى بين يديه كتاباً وقال له :

ــ انظر ! لقد كتبوا كتاباً عن رحلاتك السبع .

وبدا الاخ مسروراً فتابع : لقد سعدنا ، كل اطفال الصف بحكايا الرحلات.

وفتح السندباد البحري الكتاب ، ولم يكن يعرف القراءة . فراح بشوق يتفحص الصور . وقد اذهله وجود كل تلك الصور لسفن وقراصنة يضعون على عيونهم اغطية من الجلد ، وحيوانات وافاع وطيور مفزعة لم يرها في حياته ، وحين وصل الى صورة الرخ ، كانت اشواقه قد نضبت تماماً . وبدت له الافاعي والطيور شديدة البشاعة والشراسة . فلم يستطع ان يكمل .

واغلق الكتاب ، ووضعه جانباً ، واحس باكتئاب كبير .

ثم بقي بعد هذا زمناً طويلاً لا يغادر البيت .



## ٣ ــ الراية

اولع الطفل عند دخوله المدرسة بدروس الجغرافيا . واحس ان الكرة الأرضية طابة حلوة يحبها الاطفال ، ولذا يتشبثون بالعيش عليها .

وقد اهداه استاذه من اجل ذلك مجموعة كاملة لاعلام دول العالم . فحملها الطفل بغبطة كبيرة الى البيت . الا ان ما اربكه حين راح يتفحصها ، هو ان جميع الاعلام كانت تتقاسمها خطوط ومستطيلات ونجوم . ولاحظ سيوفاً في بعضها الآخر . فتقدم من ابيه وسأله :

ــ اليست الاعلام تدل على الأرض واهلها ؟

قال ابوه :

- انها لكذلـــك .

فطرح الطفل امام الاب مجموعة الاعـــلام ، وقال :

- انظر ! اين هم اذن ؟

ارتبك الأب ، ولم يستطع ان يجيب . كما ان استاذ الجغرافيا كان بعيـــداً .

وحار الطفل طويلاً ، قبل ان يضع جانباً مجموعة الاعلام . ثم اخذ ورقة واقلاماً وألواناً ، وراح يرسم على الورقة ؛ سنابل قمح مشرئبة ، وعيون اطفال مفتوحة ، حتى ملأ الورقة ، فحملها الى ابيـــه ، وقال :

- انظر ! لقد صنعت راية .

فسأله الاب متضاحكاً : « لأية دولة ؟ » . واحس الطفل بالحيرة فلم يجب. انما حمل رايته ، وثبتها الى عود فوق سريره ، واغمض عينيـــه ، ثم راح يجول العالم .

وكان في كل مساء يثبت رايته المليئة بعيون الاطفال وسنابل الارض ، قبل ان يستلقي ليغمض عينيه .



ثم صار يحب دروس الرسم اكثر .

ايتيل عدنان

# سيكون المطر رصاصا الى الابد *

... وسار الملك ورجاله الى أورشليم الى اليبوسيين
سكان الأرض ...

... ومنّى داود في ذلك اليوم كل من يقتل يبوسياً
وكل من يبلغ الى القناة والى أولئك العرْج والعمي
المبغضين من نفس داود ...

(التوراة، صموئيل الثاني ٥ : ٦)



القلبُ الشرسُ الذي آلمه البردُ تقيأ مصيرنا على اسفلت الطرق الغريبة وملأ السماء بوحل حقدنا

لقد استيقظت يبوس .

أيتها العيونُ الحانيةُ في ليالي باريس أطبقناكِ في حشرجة هذا النسيان ، حظينا برأفةٍ دون رحمة لحبٍ بلا وجه يفعل في جذور مفاصلنا الفقرية فعل الآسيد ،

يبوس النائمة تستيقظ ( كم استفادوا من بطنها ).

جاءت تبكي على مائدة الامم ( يريدون قتلها وهي طفلة ) لقد كبرت في ظل نخلة سوداء.

---

* مقاطع من قصيدة طويلة بعنوان «يبوس» .

يبوس تقودُ موكب الملائكة ، تفتّت أزهار الجيرانيوم التي تغطي قبرها ( أية رائحة من الشرق تغمر العالم ! )

لها عينا صقر ، وفي أحشائها طائرة ، وفي شعرها تنامُ أفاع

يا طائرات الهيليكوبتير المغطاة بالدم ، خبئي وجهك ، لأن رائحة الجثة العربية تحمل الشقاء .

أرسلي لنا مناشيرك : السلام والنابالم !

ازحف على بطنك ، تقدم الى البئر اشربْ تهالكْ اسبحْ في البترول تحت الارض واصعد أسود

ستعود يبوس تعطي الأرض للأرض تغزو القمر بلا سلاح تقتلع الشمس من مدارها وتقلبُ مدارَ الجنس البشري

يبوس ! نخلة بألف غصن

تتغلغل تحت الأرض كربيع امرأة عاشقة ، يبوس عاشقة الأرض العربية تعدّ الأزهار البرّية السائرة الى تدمر ،



يبوس ، استيقظ الحنان المعتم في أحشائك الأنثوية ، ستزهر الصحراء برعد الذين لم يذهبوا بوفاء شعوب كنعان التي كانت قبل داود والتي ستبقى بعد دانيال ،

لقد اختار أبناؤك خيام الوحل ، الأطفال المتورمين ، النساء المحترقات (ولا منفى للأم ...)

ما أسرع البحر تحت خطوات الهاربين .

يبوسُ ،

كستَنك سلالة الأنبياء باللعنات ، لكنك سكنتِ ذاكرتهم ، وأنتِ الدودة التي تقرض عظامهم

ستجيئين بعد آخر الآخرين ، سيّد الاشراق الذي يتحدى الضوء ، وستحرقين جدران تجلياتك ، وسيكون شعبٌ لا يرى كالهواء وأكثر سيولةً

من الماء مسكونٌ بالنار أكثر من إشعاعات الهيروشيمات الجديدة ،

شعبنـــا .

يبوس ! تركونا نتعفّن في ظل نسائنا نخصي رجالنا ونبيـع لحوم أجسادهم بثمن بخس في أسواق لندن

حرقنا شموعاً طويلة حين كان ينبغي أن نقاتل وننشد أناشيد الكفـــاح في كرومنا التي حرقت لأننا خِفنا ،

والعـــدو يأكل كل ما يتحرك ،

جئتم يا سارقي الصلوات تغطون الأرض بالقبور الطرية ، وعلينـــا أن نحرق أسلافكم لـكي نطهّر الليل

يبوس تقول : « ليس لنا سماءٌ ولا جحيم ، بل كواكبُ تدور » .

أجيء من أرض عموديةٍ ؛ أسلافي ولدوا في منابـع الأنهـــار الكبيرة ، استعبدتنا جمعيات المرابين وناقبي التاريخ ولصوص الأعماق الأرضية ، وفينـــا عفنٌ حيٌّ يهيمنُ علينا .

ثمّةَ ربيـعٌ تحت الأرض ، بعث أحياءٍ لا أموات .

وفي نظام يبوس :

التجعـــدات تنتظمُ في البحر ؛ الآلات تتوقف عند صخب الأحصنة ؛ المستشفيات تطـــل على حدائق من النحل ؛ والريح الحلبيّة بدءاً من الرباط تعلن العاصفة ، والأطفال يعرفون الـكاهن البابلي منذ الولادة .

يا مركب الزجاج الكبير

في المحيط الأحمر أضعتَ حدودَ هذا العالم وتهت في اللانهاية ( له أخ أسود ، أول مؤذنٍ للنبيّ ؛ معاً يتهجيّان الثورة ... آه يا رُسل الرسالة ! )

فلسطين ، أيتها الغريقة ، يجب أن تصغي في الليل لتأوهات وديانكِ حيث للأموات هم كذلـــك دموع ، ستشربين كأساً كبيرة من الدماءِ وستُبعثين ، والغثيان في قلبك ،

تقيســـين الأرض بأظـــافرك
أرض كنعان تاجٌ من الشـــوك

يبوس هي العودة التي توزع الأرض تقول : المادة للجميــع .

لـكي نحيا ، هذه الأيام ، يجب أن نتعلم كيف نحصي آلام صرفنــد .
في منحنيات آسيا الغربية عقبان تشكر السماء : الأموات العرب في هذه الصحراء أكثر عدداً من الحصى!

تعلمنا الألم في الجزائر ، عشنا لحظة سعيدة وعلينا أن نبدأ من جديـــد .

يبوس الكنعانية بانيـــة أورشليم تقول للمصلوب : تعذّبتَ ثلاثة أيام ، وتعذّبتُ ثلاثة آلاف سنة

( الفدائيّ كتابـــةٌ تتشبّث بالتربة
يندفع الى الامام جريحاً يلهث ، ويلأم جرح أرضٍ تتثاءبُ
وفي احتضاره يلمح مطراً من النيازك
ينمى في موته أنهم نشّفوا الماء
لـكي نرى السعادة كالموت
... لكننا نقلنا السماء من موضعهـــا
ولا يعرفون أن الريح عصفورٌ يسبح ) .

كان شرف أطفالنا يغوص غامضاً في أنهار هادئة
وفي أعماق مستنقع رأيتُ شعبي وقرعتُ أجراس الحرية
الآن أعلن لـكم :
النابالم ، الجوع ، خدعة العدو ، الطائرات المحلقة على علو منخفض ،
الديناميت في الليل ، التعذيب ،
والموتى أكثر من يرَقانِ مستنقعٍ متعفن
إن جريمتنا هي البراءة .
أعلن كذلك :
عودة الموتى
بنادق يحملها أشباح

نباتاتٌ لا تنبت إلا في الشتـــاء
مركبةٌ مصنوعة من قصب السكر تخترق الجبهة
والجنود من السنة الألفين
الفوضى الخلاّقة هي عنـــادنا الإلهي

في أوائل العالم أُعدمت يبوس
لكن عينيها هما دجلة والفرات ، وسورية أحشاؤها
والأردن ضلعها الجنسي ، وفخذها الطويل وادي النيل
وفي مراكش قدمٌ ، وقلبها ينزف منقوشاً في مكة
وشعرها ما يزال يسترسل على صنين
وبدا تخطيط كيانها في يوم هيروشيما
كالعرق على حائط القدس.

يبوسُ تدّخرنا :
العذاب الذي هو كشفٌ للروح ، العذابُ الذي يوحّد الرفقاء أكثر ممـــا تفعل آليـة الرغبة ، العذاب الذي يصيِّر الناس أشباحاً متداخلة ويعطي للذين فقدوه معنىً لمصيرهم
لكن كيف نعلن الانتقـام والعدو يزدهر ، وكيف نصليّ لله حـين يكون مزدوجاً ولا يلتقط الصوت ومـن نعاقب والسعادة كارثة إلى مـن نشكو الشرّ والناس لا يفعلون غيره . . .

حين لا يبقى للعدو إلا الجراد كي يأكل وتنضب آبار الاسفلت ،
حين ستخبر الأرض موتاها عن مؤامرات الأحياء ،
حين تغتسل القبيلة ببول الجمل وتغتصب النساء في هواء حزيران الحار ،
حين تصبـح رؤى الصبـاح اكثر عدداً مـن رؤى الأصيل وتنمـو شجرة في يوم واحد
حين لا يشحذ احدٌ الغيب ولا الكلاب الـــتي تحرسُ هذا العالم
حينذاك يخرج الأجداد من مراياهم
يسير العرب عراة
ويكون صباحٌ جديد.

أحمل اليكم آلهتكم القديمة
السابحة في تيارات كونية
أحمل اليكم حجارة ستتسلق عليها الأقمار
أحمل اليكم آلهة جديدة من دم ولحم

أحمل اليكم المستقبل المنفتح
وبعث الفقراء
وأحملُ الحرية
إنني بدوية هائمة في هذا الكوكب . . .
في بلادنا الجافة
سيكون المطر رصاصاً إلى الأبد.

( نقلها عن الفرنسية أدونيس )

ايتيل عدنان
(الولايات المتحدة ـ سان فرنسيسكو)

فوزي كريم

## ١ ــ هدأت ، عبر النوم ، والمياه ، والكآبه

( يا بلادَ الظما
والشجيراتُ خلفَ الظما تستريحُ
لم أعدْ سلـَّـــما ،
حاصرتني العيونُ وأوجاعُها، والزمانُ الجريحْ )

هدأتُ ، خاضتْ لغتي في الحزنْ
صار الحزنُ لي
مِظلةً ، أنامُ في ظِلالِهـا
أحلمُ في ظلالها ، وأستجـــيرُ
( هلْ يتبعُني الغاوون ؟ )

في ورقِ الغُبارِ كنتُ لعنةً ،
وزهرةً في ورقِ الزيتونِ ، كنتُ طيّعاً كالحزن ،
صار الحزنُ لي
— في وَرَمِ المدينهْ —
مظلةً ، ...
وفجأةً ، كانت معي
صبيةٌ كالوهمِ ، كانت لغتي سِراجَها
وزَيتُها فاتِحةَ الشِفاه ،

قاتلتُها على السريرِ ، جشَّتُها كزائرٍ ، طفوتُ
صرتُ سيّد البحارْ ،
شبعتُ من خُبزتِها الخضراءْ
شربتُ من خمرتِها ، وفتّحتْ في جسدي
مواسمَ الرَعشـةِ ،
صرتُ طائراً ، أطرّزُ الأشجارْ
بالفرحِ الدافيءِ ، باختلاجةِ الأمطارْ .
أجسّ بالشهوةِ نبضَ السحْرِ ،
في القُزَحِ النائمِ تحت قبـةِ الجسد .

هدأتُ ، خاضت لُغتي في النومِ
صارَ النومُ لي مظلةً ، أجوسُ في دهشتِها

( بغدادُ لي
صاريةٌ مقطوعةٌ
بغدادُ لي
ساحرةٌ ، تمسحُ كلَّ مرفأ
بالقارِ والطحلبِ ، والصبّيْر )

.. خاضتْ لُغتي في بركةِ الكآبه
رأيتُ هارونَ الرشيدِ عالقاً
في طَرفِ السحابه ،
مغنّياً :
ـ أنا الذي صيّرني الرحمانْ
قراءةً ، كتابـه
فأمطري للناسْ
فاكهةً من شجَرِ النُعاسْ ،
وصيّري السهولَ والجبـالْ
في عينِ كلِّ جائعٍ ، ذُبابه ـ

( بغـــدادُ لي )

وأنتِ لي ، يا زهرةَ السلام
الجوعُ فيكِ قاربٌ يتيه والرُّبانْ
ممثلٌ جبانْ ...

هدأتُ ، خاضتْ لُغتي في بُركةِ المياه
صارَ الماءُ لي من عرقِ الجباه ، صرتُ تربةً لزهرةِ الجُنون
لم يَبقَ لي من جُزرِ السكينه
غيرُ هلالٍ بائتٍ ، معتَّقٍ
ضحكتُ : فليتبَعْني الغاوون
وليصْرخَ الشاعرُ حيث كان ،
هذا جسَدٌ
يمتدُّ بينَ السّجنِ والسجّانْ .
وليصْرخَ العاشقُ حيث كان :
بيني وبينَ العشقْ
صاريةٌ مقطوعةٌ
فوقَ موانيِ الشرْق .
هدأت ....

( يا بلادَ الظما
والشجيراتُ خلفَ الظما تستريحُ ،
لم أعدْ سلمـــا ،
حاصرتْني العيونُ وأوجاعُها ، والزمانُ الجريحُ )

# ٢ ــ تمر ، ورغيف ، ... وأموت

١

وتهاجـــرُ
نحو حنين الثلجِ العاري ،
لا الصحراءُ لهيبُك يا وطني ، بين الجنحين ،
ولا همساتُ الماء .
من دونِ دليلٍ يُقفرُ من وقع خطاك البحرُ
ويجفلُ رملُ الصحراء .
ويجسّ الملحُ جروحَك ،
يتهامسُ بين الفخذين :
أيملكُ ما يُخصبُ هذا الرّحم المعطوبا ؟
هل تُنجبُ منه الارضُ سلالتها ،
فتضيء بفارسها الظلماء ؟
وتمر ظلالك ، تلمسني ، فتعمّدني ،
وتعيد الجسدَ الهاربَ من رمضائك، مصلوبا .

يا وطني الهاربَ خذني دون هويّه
كشف العرافُ دمي الـكاذبْ .
أتأبطُ شرا ،
أبصرُ ــ حيث مشيتُ ــ القاتلَ في جسدي ،
وأنا المقتول .
يا وطني الهاربَ خذني ، فانا مثلك هاربْ
عاشرني الحبُّ فضيعني ،
لكني لم القِ الحبلَ على الغارب ،
لم أمسحْ عن عتباتِ البابِ حصى الغائبْ

يا وطني خذني، جمع الشرقُ حوافره
وتخطى كل عنانٍ مخدول .

وبكيتُ عليك، ومن خللِ الدمعِ بكيت،
لأني
لا أجهل أن القدمَ العاثرَ فيك
هو القدمُ المهزولْ .

٢

من أينْ،
لك هذا الحزنُ،
وهذا الفرسُ الجامحُ في العينين؟
من أين لك الصبواتُ الخضراء،
يا من غرّبت، وضاعت
كلُّ عواصم خطواتك بين القدمينْ؟

وتركتُك - في حلمي - ومشيتُ أمسّحُ أذيالي
بغصون الفرحةِ أتوحّدُ فيها
وركضتُ، ركضتُ
كأن الضحكَ يجاذبُ أعماقي فيعريها .
كم كان جميلاً أن أمحو
من أثري الخطوةَ، وأفوتُ
اتنشّقُ سحرَ ضياعي، وأغنى :
( يا وطني، الغربةُ، يا وطني
تمرٌ، ورغيفٌ، واموتُ )

فوزي كريم
١٩٧٠/٣/١٠

عاليه ممدوح

# وحدي ،على نتوءات الشمس

في موسم تكاثر الاعترافات
قررت الاحتفاظ بالقنبلة
وسجلت اسمي في قائمة البحارة.
لم أعلّق اهمية على محادثات السلام
وتظاهرات الطلبة لا تزورني في اليقظة
وفي الحلم اعلن عن وساوسي الصغيرة
التي ولدت في برج الحمل.
وأكتشف تسوس المخلوقات.

لا احد في الجنّة
والرجل الذي ينتظرني
استبدل صداقتي بالعقاقير
وتوسط السكنى في الحلم.

لو ُقدر لهيئتي ان تكون اشد تكافؤاً
لو ُقدر للمسافة ان تخرج من الدائرة
لو قدر للزهرة ان تستبدل العالم
لو قدر للعالم ان لا يكون
الا انت، وانا.

سأمنح جسدي لعرشك
وأمشي وحدي على نتوءات الشمس
فلتأت عروس المدن اليابسة
برداء جلدها المكهرب
ولتنهض سيول الأعضاء والأشياء.

وأنتم ، ايها النائمون في رسائل الاعداء
بيني وبينكم ،
صداقة الاكفان المهاجرة عن الجثث
فانا اشرق احيانا في المستقبل
وحين اكشف تخوم هزائمي
يأتيني من اول القافلة
جنين الحبيب الأخير
ولا اختم رسائلي بشهقة الوداع.
فالذين قرعوا احشاء المدن ، والشوارع ، والاسماء.
رقدوا في سراويل الأنقاض
ولم يعبروا ضفة الجنون.



آتية انا من بلاد الحجاج
ركبت قطار الموت
وسافرت داخل نفسي
وعلى كرسيّ القلب
نمت في حضور الحلاّج.
واسدلت على تبغي الحارق ستارة جلدي
كنت اقرأ عن سقوط الرّايات
واقيم في قدم الحزن.
هل اقدر ان اصادق القارات وصخور الشواطىء المغسولة.
هل اقدر ان اصير فوهة الخلاص
فكوكبي المشرون يعرض وجهه للبغايا

ووجوه الاطفال لا تدق اجراس المجاعة
لم اصرخ من قبل.
يا عصر الثانية، وما بين الثانية
لم اقل ان الميت سقط بلا خاتم
لم أبك على الارض النيئة
فلقد تركت الاشعار المنقولة وغير المنقولة
وعقدت علاقتي الاولى في الطرف الاخر من النهر
فليس يلزمني تناسل الشعر في لغتي
فالنثر اعرضه على نفسي كصديق وحيد
شكراً، بيروت، بغداد، دمشق
حتى قميصي صرت اخيطه وسط قداس النثر.

حسنا بغداد،
فلقد اقلعت كلماتي الاولى على جنازة الدمع
ونهضت دفاتري في محاصيل اللغة
وأفسحت للحب كل الاسماء
لم اراجع الدنيا ولاعادت الى البراءة
فاغتسلت وحدي بالهواء
ورامبو يتجول مع ساعي البريد
اقفل على نفسه خرائط الازمنة
وانهزم امام الليالي السفلى ولم يتوقف في المسافة.

هنا
لا يكفي ان ترتدي النظام
لا يكفي ان تدخل طابور الاموات
فأية اغنية تنهض تجلس على وريد السجان
واي طير يلعن ماء ينكسر نبضه على قبة الرصيف
اليسار يستنفر النوم على الريح ويكاشف النبات، الهواء، الماء، والعصافير
يسافر على شراشف ماركس
ويأكل اعياد انجلس، ويستدير لصداقة تروتسكي

لم يحن ميعاد قطفه
والسفن تجري في الدماء
وجسدي يرفض زمن الرفاق
هذا زمن يرفض الرؤوس الاتية
من الشرق
من الغرب
من الوسط
هذا زمن نستبيح فيه الجذور
ونؤدي صلاة الاربعين
للافراح الساقطة في جيف التاريخ.

الآن لم تأت استراحه الصوت
ولما فررت من غابة النفس
عدت الى بلاد الانياب
لم اخترع سريراً هزازاً
فالهزة كانت في الرأس
وكدمات العبودية اصابت الذاكرة



لم اطرح سؤالا.
لم اكتب عن السقطة
دخلت في الجوع
وكتبت عن انتصار الرجل في الجسد
وتحت صرختي صلبت علامة الدهشة

لم اقل شيئاً عن جرح الوردة
فانا أقرأ وصايا الاحياء
عقوداً لا تنتظر شيئاً
وانا امرأة حبلى بجيش الاحزان
اقتل اسماء المولدين حديثاً
خارج نوافذ الأفعال .

عالية ممدوح
(بغداد ، آذار ١٩٧٠)

# الزمن والسياسة

## ( ملاحظات في السجن )



### التحكم بالحاضر : محك المادية التاريخية

الوضعية الحاضرة ومهماتنا : هذا العنوان الباهت الحيادي ، الذي يكاد أن يكون تقليديا يعرض ويخفي في آن معا ، ما يشكل جوهر الماركسية ، وفوق ذلك ، الجانب التطبيقي من الماركسية . الى أية علاقة يشير الحرف « و » ؟ لا ريب انه لا يفيد مجرد عطف النسق : فليس هنالك وصف ( للحاضر ) من جهة ، يقابله من جهة ثانية دفع الى ( المهمات ) . غير أن تحديد المهمات وتنسيقها – تحديد الاتجاه – يتم في ضوء تحليل للوضعية ، مع أن التحليل ليس المقدمة المنطقية ، ولا تحديد المهمات الخلاصة أو النتيجة التي تستتبعها المقدمة المنطقية . بل هناك رابط أعمق .

( كان يمكن **لرأس المال** ، بمعنى ما ، أن يحمل عنوانا مماثلا : فنحن ننسى الى أي حد يحمل موضوعه الحقيقي طابع **الظرف الحاضر** ، ذلك أن الابحاث ، والوثائق الهائلة ، والمعلومات التي استخدمها صادرة عن الوقائع الاكثر قربا – بالنسبة الى ماركس عام ١٨٦٧ . وكلمة الوقائع هنا لا تعني الاحداث الواضحة الماثلة للعيان . وعلى العكس من ذلك فان ماركس قد حدد ما كان يمثل الحاضر، في زمنه – نمو القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الرأسمالية – وقد بصر بهذا **الحاضر** كحركة ، كسياق . ولكي تدرك ميزة الكتاب الاولى التي لا مثيل لها ، والتي لم يقلدها أحد منذ ذلك الحين ، ينبغي أن نتصور اليوم تحليلا دقيقا على غرار ما جاء في الكتاب ، يعتمد اخر الاحداث التكنولوجية والعلمية والديمغرافية

والمالية ، والسياسية ، وآخر الاحصاءات التجارية ، والتدخلات البرلمانية لعام ١٩٦٧ ، الخ • وهي أحداث لا يجمعها بالنسبة لنا أي هيكل نظري ، بل ليس لها دلالة خاصة باعتبار أن هذه الوقائع كلها لم تُردّ الى أية بنية ، أو أية حركة منظمة تقدم تفسيرا فوريا بظهورها ، وبظهورها على هذه الصورة بالذات ) •

« الاحداث الراهنة » : ما يحدث ، ما يقدّم ، ما يحيط بنا ، ما يغمرنا ، ويغرقنا • وهي بذلك تستحق أن تميز بالهلالين • انها أحداث الصحف ، عالمنا اليومي • لكن المسألة الجوهرية ، بالنسبة لنا ، هي في أن نعرف ما اذا كان بمقدور « الاحداث الراهنة » أن تكون مقولة علمية وضمن أية شروط • تلك هي ، في هذه الحال « اللحظة الحاضرة » كما يسميها لينين أو « الوضعية الحاضرة » كما يسميها ماو •

في ضوء هذه العلاقة لا تعود الاحداث الراهنة مقولة أونطولوجية أو موضوعا للتأمل ، بل تصبح **معيارا** لسياسة عقلانية ، أو معيارا لوجود عقلانية سياسية عملية • يمكن أن نجعل من الوضع الحالي مقولة ــ كشكل قبلي للتجربة ــ لكن في هذه الحالة ينبغي أن نعود الى الميتافيزيقا الوجودية • هذه العودة الى المعاش ليست قطعا بلا تبرير ، لكن المضمار يتبدل : تأمل في الزمن الانساني ، في الوضع الحالي باعتباره مصير الذات ( لا وجود لوضع حالي الا بالنسبة لذات ما ، وهو قدر ، من حيث أنه ضرورة احتمال • راجع سارتر ) • هذا يفضي بنا الى « الكائن ــ من أجل ــ الموت » وهو اعتراف نظري بهذه الضرورة التي نواجهها ، والتي ينبغي أن نهتدي اليها في شكل عملي ، وان نعيشها في حالة حاجة ملحة ، أن نعيش الوضع الراهن كفرصة ينبغي أن ننتهزها ، ألا تفوتنا ، كأساس يسير في اتجاه لا ينعكس • ان نكتة كينيس Keynes بشأن مردود التوفيرعلى مدى بعيد التي قال فيها ــ « على مدى بعيد نكون قد متنا جميعا » ليس لها مدلول الا في اطار تاريخي معين ــ الغرب الفردي الملحد ــ غير ان هذا الاطار هو مصيرنا الموضوعي جميعا • في المدى البعيد يتجاوزنا الوضع الراهن ، نحن وأعمالنا •

ان مضمارنا نحن ، ليس من واقع انه سيكون للناس دوما وضع راهن ، بل من واقع أن هذا الوضع الراهن لن يكون هو نفسه أبدا • فالاحداث الراهنة بصورة عامة ، الحدث المجرد في الوضع الراهن ، لا يمثل كموضوع تنبغي معرفته ولا كمشكلة عملية ينبغي حلها ، بل كمادة أدبية ، كموضوع فني أو تعميق فكري للوضعية الانسانية • وعلى العكس من ذلك ، فان المسألة الماركسية هي تحديد الوضع الراهن كحالة حاضرة ، حالة فريدة ووحيدة ، حالة ملموسة• المسألة الماركسية هي في معرفة ما اذا كانت معرفة الفريد والاستثنائي ممكنة ، وكيفية هذه المعرفة ، وما اذا كنا نستطيع أن نتخلى عن التحديد الارسطي للعلم ، أو التحديد الوضعي للقانون •

أن نفهم فهما جيدا مدلول هذه المسألة يعني أن نلاحظ ارتباطها المزدوج • مسألة ابيستيمولوجية ، ومسألة ممارسة سياسية • هذا يعني أن نستفهم الماركسية كعلم من جهة ، وكمبدأ للتوجيه السياسي من جهة ثانية • في نقطة التلاقي هذه تطرح المسألة الابيستيمولوجية كمسألة ممارسة ، وتطرح المسألة السياسية على انها مسألة علمية وهذا يعني أن علاقة المسألتين وتوحدهما هما اللذان ينكشفان هنا • ان كبت هذه المسألة على يد النزعة العلمية الماركسية الجديدة ( أو اتمام البنى الشكلية والعامة للخاصية العلمية ) بنتيجتها الحتمية، التي هي التغيبية السياسية ( أو عدم الاندراج في « الحالة الراهنة » ) ، ينبغي أن تفسر كعرض من أعراض تجاهل مزدوج ، أو كعرض من أعراض الهرب من مسألة التوحد ، والارتباط • ما هو « العلم » الذي لا يفضي قط الى تحليل الوضعية التاريخية الحاضرة ( بتعقيدها ، ومستوياتها ، وما يختص بها من تفاوت ، الخ •• لا يهم ) ؟ وما هو التحليل السياسي أو تحديد خط العمل الذي لا يعتمد استخدام المفاهيم العلمية ، وتطبيق أداة نظرية صيغت بشكل تجريدي ؟

ان ادراك « الآن » التاريخي ( في بلد معين ، في لحظة معينة ، مع ان هذا الادراك يتضمن ادراك العلاقات الدولية السائدة في العالم في لحظة معينة ، كما أن ادراك اللحظة المعينة يستتبع ادراك ما سلف من التاريخ الوطني كله ) — ان هذا الادراك يقوم بدور المحك بالنسبة الى صلاحية نظرية « العلم » ، وبدور معمودية النار بالنسبة الى قيمة المنظر • اذا لم تتم السيطرة الفكرية على الان ، تبقى المسألة الاساسية « ما العمل ؟ » بلا أساس ولا جواب • هذه السيطرة تتطلب معرفة مسبقة ، ودربة نظرية ، مجردة بالضرورة ، لكن اذا لم توفر هذه المعرفة وهذه الدربة لجوءا نهائيا الى الصراع للقبض على الان — هنا ، يتوارى بالنسبة الينا جميعا الضمان الوحيد القائم حاليا بأن تتمكن الجماهير من أن تصير محركة تاريخها ، وتنتقل من حكم الحاجة الى حكم الحرية ، الحاجة التي فهمها التخطيط الاجتماعي وصقلها ، وبأن تكف هذه الجماهير عن أن تكون غائبة عن المسرح الذي يقرر مصيرها عليه • اذا كان حاضرنا غير قابل للفهم ، تكون الشيوعية ، في هذه الحالة طوباوية : فلا تعود هناك سياسة علمية ، ولا توجيه ممكن للسياق التاريخي تقوم به قوة تعي الوضع الذي تحتله في « الشروط الحاضرة » ولا يعود الغد مهمتنا بل يكون نزوة اله • والاله يهدد باستمرار • فاذا فهمنا الاحداث الراهنة ، وبالتالي مستقبلنا ، وبالنتيجة وضعيتنا كنوع حيواني : هل يكون تاريخ الانسان العاقل يوما غير تاريخ طبيعي ؟

يقول تروتسكي في ملاحظة عابرة بصدد أخطاء الاممية بعد لينين « الزمن عامل مهم في السياسة » • ولنقل بل ليس عاملا في جملة عوامل ، بل انه البعد الذي تعبر كل العوامل عن نفسها وتفعل من ضمنه • بل هو عامل كغيره لكنه عامل العوامل : انه بمثابة الفضاء للهندسة • هذه استعارة رديئة اذا توقفنا عند اقليدس ، وهي أقل رداءة بالنسبة الى الهندسات الحديثة التي لكل منها

فضاؤها الخاص ، واضح ان الزمن ليس مجموعة اتصال متجانسة ، اذ ان لكل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي ، لكل تشكل اجتماعي أزمنته المتفاوتة في المستوى ( كل هذا بات اليوم معروفا ، مع أنه مسألة برمجة ، راجع آلتوسير )، الخ • الزمن السياسي يتسارع في مرحلة الازمة ، ويركد في مرحلة الجزر : نتعلم في اسبوع من زمن الثورة أكثر مما نتعلمه في عشر سنوات من الروتين الخ • لكن اذا نظرنا الى الزمن هنا فقط في ضوء العلاقة وضع راهن / وضع غير راهن ، على أنه مطابقة خط سياسي مع ظرف ، نرى ان هذه المطابقة تتضح في اختيار الشعار الصحيح • وعلم الشعار هو علم الاحداث الراهنة ، والشعار الذي كان بالامس صحيحا يصبح اليوم خاطئا : كيف نعرف ما تغير اليوم ، والشيء الذي بسببه لم يعد اليوم كالامس ؟ يتم هذا بتمييز ما في اللحظة الراهنة من الفرادة ، وحصر ملامحه الاصلية ، المميزة ، المتميزة • ان التوجيه السياسي الصحيح متعلق بالزمن الديالكتيكي ، أي بتطور التناقضات تطورا متفاوتا لكنه يؤدي الى تتابع مراحل أو أطوار تكون **أولا** ، ذات امتداد زمني مختلف ( اسبوع ، شهر ، بضع ساعات أو سنوات ) لكنها متجانسة نسبيا ، **وثانيا** يمثل كل منها سمة مميزة ، أساسية ، تجعله مختلفا اختلافا نوعيا عن مرحلة القرار السابق ( وهي مرحلة غير مستقرة ) •

واذن فالحاجة تقضي بمعرفة وتمييز الفاصل أو المدخل الى المرحلة ، دون أن تغيب عنا الحركة الشاملة للسياق المستمر ، الذي يغير باستمرار علاقة القوى في هذا الاتجاه أو ذاك • الاستجابة لهذه الحاجة تعني تتبع نبض السياق• هكذا ينبغي أن نرد بسرعة ، أن نمتلك كفاءات فائقة الحساسية لرصد الجديد ، واستشعار جدة المشكلة التي تطرحها المرحلة التي تدخل فيها وذلك لكي نقدم الاجابة الصحيحة • واللينينية تمثل هذه القابلية على انجاز منعطفات وتحولات فجائية ، أي على تغيير التكتيك مع الحالة الموضوعية وبصورة متواقتة معها • « وفن تحريك الصراع السياسي » ــ وهو تعبير للينين ــ هو فن الاندراج في الوقت المناسب ، وفي اللحظةالمطلوبة ، في سياق موضوعي •

## المفهوم التاملي للزمن التاريخي ، مرتكز الاصلاحية

ان المادية الديالكتيكية تفهم زمن التطور الاجتماعي على أنه نشاط عملي ، لا عامل يمكن عزله ، أو ثابت حيادي في التطور • نعرف أن هناك زمانية محافظة ، تتسم بفكرة الانحطاط المحتم ، والتقهقر الاخلاقي والاجتماعي • والابتعاد المتزايد عن الاصول • الزمن في انحدار وهو يجرفنا تلقائيا نحو الاسفل : ينبغي أن « ننتفض » لنستعيد مكانتنا ، ونتماسك وننقذ ما يمكن انقاذه • لكن لا تعرف كم يختلف زمن الديالكتيك الثوري عن الزمن الاصلاحي المسطح • ولا يمكننا المضي في التوكيد على هذا الاختلاف الى درجة الجزم بانعدام أي صلة بينهما ، اذ أنهما يشتركان في ارث ايديولوجي واحد : وهو

مفهوم **النور** ، أو **التقدم** ، الذي ترتكز عليه ، رغم كل شيء ، صيغ عديدة شبه ماركسية أو ماركسية هامشيـة • الزمن الاصلاحي يعمـل بروح الربح والخسارة ، الجمع والطرح • ويقدر الربح والخسارة بالقياس الى قيمة مفترضة ذهنيا تصمم للمستقبل • يقدر الربح والخسارة بالقياس الى نتيجة تتحقق هي أيضا في المستقبل وتنبجس راجعة الى الحاضر • هكذا تفسر خسارة أصوات في الانتخابات على انها تراجع • وهذا التراجع يقاس في الظاهر الى نتائج الانتخابات السابقة ، غير انه يعاش بالفعل كتأخر ، كمراوحة في المكان أو تنازل موقت ، بالقياس الى النتيجة النهائية ، المطروحة كحد للسباق : الاغلبية المطلقة ، أو أغلبية كافية لتعجيل التحالف مع الطبقات المتوسطة ، الذي يعني انتصـار الجبهة الموحدة ، والتحقيق التدريجي للاشتراكية ، الخ • فالزمن طريق تعبر بقليل أو كثير من السرعة ، ولا يمكن أن نسير دائما بالسرعة المرجوة ، غير أن خط الوصول قائم في النهاية ، لا يتحرك ، مثبت سلفا • وهو ينتظرنا • فاذا ما حصلت هزيمة انتخابية :نتج عنها تأخر الوصول عن الموعد المنتظر ، واذا ما تحقق ربح ملموس في الاصوات استتبع ذلك زيادة قوى **الحزب** ، وكميـة المطبوعات • وعدد النواب : هكذا يرتجى الوصول في وقت مبكر لان زيادة في السرعة قد اكتسبت • تحدد النهاية منذ البدء وقياسا عليها يحسب الموقع على الخط رجوعا منها بمقارنة المسافة التي تم اجتيازها بالمسافة المتبقية • حسابات الاتجاه الاصلاحي هادئة دوما لانها في الواقع تصفية حسابات • واننا نجد في انتظار النهاية المتشاغل هذا ، انتظار **المساء العظيم** ، الذي يتم الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، قليلا أو كثيرا ، لكن الذي يبقى موعودا ، نجد فيه الموقف الديني القديم ، الكامن في أكثر الاليات الاكثر دنيوية ، الاكثر « علمية » • وفـي الحق انه تنبجس من الانحراف الانتخابي ، الهرطقة المغرقة في القدم •

وأيا كان الامر ، فان هذا التصور للزمن التاريخي لم يختف ، ولا يمكن أن يختفي نهائيا • ولنذكر انه راسب في قراراتنا ، عالق بجسدنا أو بالاحرى يمسك بنا • ومن الضروري أن نشير الى الجانب المخدر الذي يخالط هـذا التركيب الايديولوجي ( بامتلاكه قوة الخيالي وحضوره ) ، واذا ألحت بنـا الحاجة الى مسكن لتهدئة آلام العمل وشكوكه ، ينبغي ألا ندرج المخدر علـى حساب العلم •

**فرضية أولى** : ان الزمن التاريخي يمتلك مقدرة عفوية على التجميع • فكل مرحلة من مراحله ( الزمن قابل للانقسام ، بحسب الوحدة الزمانيـة المختارة ، الى أجزاء متجانسة ومتتابعة ) تختزن العناصر التي يسمح جمعهـا بالانتقال الى مرحلة أعلى ، الى طور متقدم في سلم التطور الاجتماعي : وهذا يتطابق جيدا مع قانون الكمية / النوعية ( في الظاهر ) • في هذا المفهوم نوع من التشبع بالزمانية الرأسمالية ـ الصناعية • فرأس المال عمل متراكـم • والعمل الحي ينتج العمل الميت ، المجمد في رأسمال ثابت : عملية التراكـم غير محدودة ، فهناك دوما في النهاية أكثر مما كان موجودا في البداية • وهكذا

فان الانتصار ينتج عن عمل سياسي متراكم في مدة تطول أو تقصر ، يتراكم في شكل خبرة الحزب ، ونمو منشآته ، وعدد ناخبيه ، وتضامن بنيته التحتية الخ ، ومجموع هذا كله يشكل نوعا من رأس المال الثابت : هو ما جمعته الحركة منذ نشوئها· هذه العمليات الحسابية تفرض أحيانا الطرح: كخسارة ناخبين في وقت معين ، أو الغاء جريدة ، أو تسجيل أشواط للطبقة المنافسة ، الخ · لكن هذا الطرح عابر ، مؤقت · فطالما أنه ما من شيء يضيع حقا ، سوف نجد في النهاية ، بشكل ما ، ما خسرناه في مسيرتنا : هناك اذن طرح في الاحداث لا في الحقوق · والحركة الشاملة ستنصف هذه الخسارات· وسوف يعترف التاريخ بخساراته · فما الخسارة الا الوجه الموقت الماكر وأحيانا الخادع للربح المحتم لكن المقنّع موقتا ، والمعلق ·الاستنتاج العملي : ما من شيء لا يمكن استرجاعه ·

**الفرضية الثانية :** الحركة التاريخية محددة بنهايتها ، وبتعبير اخر : تلعب النهاية دور القصدية الكلاسيكية · فكرة النهاية هي سبب الحركة الفعلية ، تؤمن الوحدة والتماسك بين آلاف الحركات المحلية ، والتقدمات ، والهزات والارباح غير المنظورة التي تتجلى الحركة الشاملة من خلالها · هذا كما لو كنا نكتب تاريخ الماضي في صيغة المستقبل في الماضي ، جاعلين النهاية في البداية ، والمستقبل الذي نعرفه في حاضر لم يعرفه بعد ، ويكتب تاريخ الحاضر كماضي مستقبل نعتبره ماضيا· وبتعبير اخر ، فان الجمع الذي يتم تلقائيا يلزمنا بالرجوع الى مجموع مثالي ، يعتبر حاصلا ، ويقوم بدور المرتكز والضمان للجمع الجاري · فلكي نتصرف وكأن التاريخ يصنع نفسه ، بالجمع والطرح ، يتوجب الاعتراف انه صار مصنوعا · فالمتحقق يدعم ما لم يتحقق بعد · وطبيعي اننا نلمس هنا تأثير هيجل ، حتى وان كان أثر كوندورسيه ، أي النزعة التقدمية في عصر التنوير هي التي تقوم بالادوار الاولى·

ان المجموع المثالي ، أو فكرة المجموع تؤكد عصمة السياق التجريبي للتجميع · فلا يمكن اذن ( أي القادة ، والمناضلون ، والجماهير نفسها ) الوقوع في خطأ جذري ، أو بالاحرى لا يمكن أن يقع الخطأ الا بسبب خلل ما · فليس للغلطة السياسية أثر ايجابي بل أثر سلبي : انها تؤخر السياق ، تعرقله ، لكن لا تنعكس على طبيعته · الغلطة التي تقترف هي دوما غير جوهرية ·

**الاستنتاج العملي : لا شيء لا يمكن اصلاحه ·**

هذه هي باختصار · وبلغة فلسفية بالضرورة ، مسلمات موقفنا المشترك، أو حدنا الادنى من جرعة المخدر · القوة السياسية المستمرة لما نسميه النزعة الاصلاحية ، ترتكز عليها : على ضعفنا · « النزعة الاصلاحية » تمثل اغراء لا يقهر ، اغراء في مستوى جبننا · فلنرجع الى الارض ·

II

ان أزمة تموز ١٤ تطرح المسألة القومية في شكل تاريخي خاص • هذه المسألة العظيمة الاهمية ، التي كبتها باستمرار تراث الماركسية الثورية منذ لينين ، والتي دفعت غاليا في الممارسة ثمن هذا الكبت النظري ، لا تهمنا هنا • ان الازمة الاخيرة التي تلت الحرب حيث انتهى حـــزب تيلمان Thaelman وانتهى معه استقلال الطبقة العمالية ، تطرح مسألة دكتاتورية الرأسمال المالي أو الفاشية والاخطاء التاريخية **للاممية الشيوعية** ، المسألة التي عولجت سابقا وعرفت بشكل أفضل • لكن بين هاتين الازمتين قاسم مشترك هو احبـــاط التنبؤات ، وتضليل المكافحين ، والتسرع في فهم المنظمات القائـــدة المحنكة ، واجمالا خلق الفراغ • ان ظرف الازمة بالنسبة الى العقل السليم ، أي بالنسبة الى اللاجدلية ، واقع مذهل ، تحد للذكاء ، سبب للشـــك الايديولوجي • ولا تكتسب هذه المسألة أية خطورة لو لم يكن ينبغي قبول واقع اخر : لا تمكـن السيطرة ، في الممارسة المباشرة ، على ظاهرة ما لم نكن وعيناها نظريا • أو بشكل أدق : نجد أنفسنا منذ البداية خارج حالة الوصول الى وعيها •

يتقبل الزمن التاريخي عقدا استراتيجية تسمى « أزمات » • وتشكل هذه العقد **عهدا** ، بمعنى أنها تحدد نهاية سياق Processus وبداية سياق اخر • ان انحلال « الازمة » يقدم مخرجا لوضع جديد يتميز نوعيا عن الوضع القديم ، والعبور من القديم الى الجديد لا يتم ، في تاريـخ المجتمـع ، بجمـع العناصر المنفصلة أو طرحها ، أو اضافة ( عناصر جديدة في الكل القديم ) أو بانقاص ( عناصر قديمة ) ، ففي لحظة ما من سياق التغير المتواصل ، الكامن ، الناشط خفية ، يتم تبلور منفتح ، في سطح جميع العناصر التاريخية المتصارعة ، أي نقطة انقطاع ، لحظة حرجة من الازمة • اذاك تصبح العودة الى التوازن القديم مستحيلة ، لكن ليس من المحتم كذلك أن يحل محله توازن جديد متفوق وتقدمي من الوجهة التاريخية بالنسبة الى القديم • ان اللحظة الحاسمة تقدم نفسها اذن كترسب كيمائي ، محير ، سريع لعدد من الاحداث غير المتوقعة ، المعاشة في الريبة والغموض ، وتبدو نتيجتها صدفوية • ان ظرف الازمة ( السياسيـــة ، الاجتماعية ، العسكرية مع تآلف العوامل كلها ) هو ، بالنسبة الى من يعيشونه ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، شديد الوضوح وشديد الغموض في آن • من الواضح للجميع أن شيئا أساسيا يتقرر الان ، لكنهم لا يتفقون على نتيجته : « كل شيء ممكن » ، يقولون • بعبارة ثانية : لا شيء يقيني • ان للازمات ، من حيث هي لحظة حاسمة لكن لا يبت بها مسبقا ، صدفوية بالضرورة في انحلالها القريب لكن الخاضعة لسياق كل عقلاني ، محددة غير محددة ، حل للتناقضات السابقة ، هو نفسه متناقض ــ ان للازمات مظهر المفارقة بالنسبة الى مـن لا يعرف أن يرى في عودتها المحتمة ظهور مفارقات التاريخ الخفية ، الظهـــور البسيط الخالص ــ أي المعقد المشوب ــ لقوانين التطور الاجتماعي •

لقد قدم ممثلو الجدلية المادية كل ما هو جوهري عن مميزات العودة الدورية « للازمات » في كل تطور اجتماعي ، وعن معناها وضروراتها • يمكن اعتبار هذه الجدلية نفسها ، في أساسها ، كنظرية للازمات داخل الطبيعة والمجتمع • في أساسها ، يعني في قانون التناقض الذي يلازم جميع الظواهر ، الذاتية والموضوعية ، وفي المزايا الخاصة التي تعترف بها لهذا القانون الاساسي الجدلية الماركسية ـ العلمية اللاهيغلية ، أي الجدلية **المادية** ( خصائص التناقض المادي المختصرة في شكل تربوي ولهدف سياسي ـ الكفاح ضد الدوغمائية ، ضد التقليد الالي للمثال الروسي ومن أجل اتجاه خاص ، مستقل ، صيني حصرا ـ سنة ١٩٣٧ بفضل ماوتسي تونغ ) • ان نظرية وحدة التناقضات ( التي تحدد في رأي لينين الجدلية) تقبل لحالة خاصة وضرورية ، نظرية الازمة • ان ما يظهر في مظهر الوحدة يخفي حضور الانشقاق ، وما يظهر في مظهر التناقض يخفي تضامن الاجزاء المتناقضة ووحدتها • في الوحدة لا تتوقف النقائض عن الصراع حتى اللحظة التي تتفكك فيها الوحدة وتولد وحدة جديدة تتصارع فيها النقائض من جديد ، الخ • ان لحظة الانقطاع هذه هي ما يمكن تسميته بالازمة ، مرحلة صراع النقائض ، ملتقى وحدتين ، مرحلتين من التاريخ ، نظامين سياسيين أو اجتماعيين ، علاقتين بين القوى الثابتة • ان نسيان القانون الاساسي للتناقض ، ولو موقتا ، يضفي دون ابطاء على الانتقال من الاستقرار الى عدم الاستقرار ، من الراحة الى الاضطراب ، من التوازن الى الاختلال صفة الحدث العارض ، الاعتباطي ، الذي ينتج عن سبب خارجي ، ليست له علاقة عضوية مع السياق المعني • السبب الخارجي : تدخل أجنبي ، محرض خطر ، عميل هدام ، الخ ، هو اذن المسؤول عن الازمة ، ونجد حلا للازمة حتى نجرده من قدرته على الايذاء • ان التصور الميتافيزيقي أو الآلي للعالم لا يستطيع أن يرى في أية اعادة نظر في عالمه الا رعدا قاصفا في سماء صافية • لهذا يحتاج الميتافيزيقيون الى شرطة فعالة ويقظة ، للقضاء على الاسباب الخارجية ، ولهذا يرقد ميتافيزيقي في كل عامل من عوامل القمع البورجوازي • ألا تكمن في أساس مشكلة « الازمات » ورقابتها ، الاحجية الميتافيزيقية القديمة : كيف يمكن للواحد أن يصير آخر ؟ كيف يمكن أن يتحول شيء أو ظاهرة الى ما يناقضهما (الرأسمالية الى اشتراكية، الضغط الوطني الى تحرر وطني ، الطبقة السائدة الى طبقة مسودة الخ ) ؟ الجواب معروف جدا : كل شيء يحمل في ذاته نقيضه ، وكل ظاهرة كذلك • والصراع بين مظهري التناقض الخاص ( للشيء ، للظاهرة المعنية ) يكوّن العامل المحرك لتطور الشيء أو الظاهرة • ان حل التناقض يحدد نهاية مرحلة من هذا التطور ، لكن سرعان مايظهر مع المرحلة الجديدة الناتجة نموذج جديد من التناقض ، ولا نهاية لهذا السياق • الموت وحده يمكن أن يوقفه ، فقانون التناقض دائم ما دامت الحياة • اذن ، لن يحدد قطعا مجيء الاشتراكية نهاية التناقضات في التاريخ ، كما لاحظ لينين قبل الثورة البلشفية ، الذي ربما لم يكن يدرك مدى أهمية هذه الملاحظة لانه استبعد الفرضية القائلة بأن هذه التناقضات يمكن أن تتخذ ، في صميم العالم الاشتراكي شكل التضاد ، أي

شكل الازمة المفتوحة ، والمجابهة العنيفـــة • هناك اذن ، في صميم التوازن والاستقرار المتلاحم ، اختلال واضطراب وتصدع • ان سبب الازمات ، التغيرات ( النوعية ) التي تؤثر على حالات التوازن أو تهددها بشكل واضح ، يكمن ، في طبيعتها ، في هذا التحول الدائم ( الكمي ) الذي يمثل طبيعتها الحقيقية • ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نستبعد فعل الاسباب الخارجية ، الظرفية ، العرضية• لكن هذه الاسباب الخارجية لا تقدر ان تفعل فعلها الا بوساطة الاسباب الداخلية، البنيوية ، الجوهرية ــ التي تؤلف العنصر الحاسم في الازمات الاجتماعية •

## وصف الأزمة

اذا تذكرنا هذه المبادىء الاولية ، واذا كان من المسموح ( الحقيقة هي أنه غير مسموح والا سقطنا في اللغو ) عزل الشروط الملموسة والميزة الفريدة كل مرة للتناقضات الفعالة في وضع معين ، والتي تضفي على الحل النقدي شكله التاريخي الخاص ، فان سلسلة من الملاحظات تفرض نفسها حالا •

١ ــ في المستوى السياسي ، المستوى الذي تتجلى فيه وتتطور وتتحدد « الازمات » ، تكون تغيرات الزمانية ( أو كثافة الزمن الموضوعي ) مرتبطة بايقاع تطور التناقضات داخل التكون الاجتماعي • هذا الايقاع تابع بدوره لدرجة انصهار التناقضات ( أو لدرجة تحديدها ) ، ولحظة الأزمة تحدد اللحظات التي يفضي فيها الانصهار في نقطة معينة الى اختلال التوازن القديم ( من العالم : بلد معين في لحظة معينة ، روسيا سنة ١٩١٧ ، الخ ــ من بلد معين في لحـــظة معينة ــ في فرنسا ، الجامعة سنة ٦٨ ، الخ ) • ان سرعة التناقضات تستدعي زمنا سياسيا سريعا ، ينعكس بتفاعل مسلسل على الحلقات الأخرى الأقـــل « تحددا » ، كما ينعكس في اللحظة نفسها على حلقة الانقطاع • ويتعارض الزمن المتفجر ، المتسارع ، المتشنج من التفجر ( من التضاد ، في شـــكل أزمة ) مع الزمن المتباطىء سياسيا بفعل النضج (التناقضات) : تمزق ظاهري ، تشقق مزيف ، ذلك أن زمن الأزمة ليس الا زمنا عاديا مركزا ، تقريبا كالسياسة ، في مفهوم لينين ، التي تشكل الاقتصاد المكثف • الحركة مطلقة ، دائمة ، لكنها لا تتخذ دائما الشكل نفسه : انها تتخذ على الاغلب شكل الجمود الظاهري • واذ تتركز ، تتجلى فجأة في طبيعتها الحقيقية ، وتكشف عن وجهها كصراع بين النقائض • « حين يصير الخارق أليفا » كما كان يقول غيفارا الثورات • لكن نقدر أن نضيف أن الخارق هو الأليف المكثف ، المنكشف لنفسه ، وأن لحظة الأزمة السياسية العامة تكشف الخارق المختبىء في أعماق الصراع الطبقي الاليف على المستوى الاقتصادي أو الايديولوجي • ان زمن الازمة يعطل المعايير السارية المفعول ، ويخلخل العادات ، ويقلب قواعد السلوك المتبعة ، لكن اذاك تتجلى القاعدة وتغيب الأعذار الكاذبة التي كانت تحجب عن الخصوم بداهة الصراع • كما لو أن القاعدة ( تنظيم حركة المجتمع بواسطة صراع الطبقات )

لا تتحقق الا في الاستثناء • ومهما يكن من أمر هذه التغيرات ، فان الانقطاع أو « الأزمة » أو استمرار السياق « العادي » يجب أن ترد الى اساسها المشترك لكي يكون كل منها قائما بالآخر ، كل منها قاعدة للآخر ، يمكن فهمها بالتبادل • ان كلا منها تمنح للآخر وضوحها الخاص ، كلحظتين من سياق واحد •

٢ ــ ان لحظة الانصهار الحرجة ( أو انفجار ــ انكشاف التناقضات التي تراكمت وبلغت مرحلة التناثر ) يسبب اذن على السطح ، في مستوى الصراع المفتوح ، السياسي والعمومي ، انقطاعا ارتداديا ، انشقاقا سرعان ما يتعمم على جميع مستويات الكل الاجتماعي المقصود : التمييز بين الأحزاب القائمة (طبقات وجبهات طبقية) ، الفصل بين العوامل الجماعية ، الأحزاب أو القادة السياسيين ( أعداء أو أصدقاء ؟ ) ، وهذا كله يؤدي ، بواسطة الأزمة ، الى وضع حدود لمراحل السياق المعني ( نهاية المجرى القديم ، بداية المجرى الجديد ) • غير أن هذا التمييز ــ البرق الخاطف ، العفوي جدا حتى أنه يشبه حركة آلية ، لا فعل له الا أن يجمع في الشكل البسيط للمعارضة ، للنزاع ، للرقم اثنين ،المجموعات المتناثرة للقوى القديمة ، مشددا على خصائصها الكامنة ، مبرزا محددا اياها • هكذا تقدم الأزمة صورة سهلة القراءة ، متضادة ، واضحة ، عن مجال القوى الموضوعية ، والاتجاهات الايديولوجية ، والشخصيات القائدة • انها بالمعنى الفوتوغرافي للكلمة ، تعطي للتاريخ « تحديدا » جيدا • غير أن لرفع الغموض ، وازالةالاختلاط النسبي في النطاقات السياسية للقوى الاجتماعية أو للافراد ، وحظوظ الالتباس ، ثمنا غاليا • انهما يعنيان تضييق المحتملات والامكانيات التاريخية ، باقتطاع الأطراف ، وتضييقا للممر الرئيسي • الوصول الى نتائج رائعة بطرق ضيقة • نبدأ بقناة اختناق • الأزمة السياسية الخطيرة تتخذ الشكل القسري للبديل أو للمأزق : « الان أو هيهات » ( أي مستقبل غير محدد ومرجأ الى أمد طويل ) ، « الواحد كله أو الاخر كله » • ( ثورة أو ثورة مضادة • الوسط ، بتعبير انتخابي ، مسحوق ) • أشكال ملائمة ، متطرفة ، وأحيانـــا وهمية لبدائل ملموسة أكثر اعتدالا • يبقى تصلب الخيار ، الحياد المستحيل ، غياب التذبذبات الوسيطة لصالح المنطق الجديد « بلوغ الحدود القصوى » • الصراع من أجل السيطرة مفتوح وهو لا يقبل الأعذار الكاذبة • ومنذ أن ينكشف التناقض ويتجلى على حقيقته ، يعمد أحد مظهري الأزمة اما الى أن يعكس موقفه واما إلى أن يدعمه : موقف سائد أو مسود : ذلك هو الرهان ، والأزمة هي التي تبت ، باعتبار أن نقطة الحرج في الأزمة هي نقطة الترجيح •

٣ ــ اذن ، هذه هي المفارقة : ان الأزمة ، كلحظة باتة من سياق متناقض ، تبدو في غاية الاشكال • انها « تصفي المسألة » ، انها هي نفسها مسألة رهيبة ، وهي اذ تجزىء تميل الى التبسيط ، والواقع أنها تشكل في ذاتها شبكة معقدة من العوامل التاريخية ، المتداخلة جدا ، المتنوعة جدا ، المشوشة جدا بحيث أن أفواجا كاملة من السياسيين والجدليين والنظريين الماركسيين البارزين قد ضلوا فيها الا الابد وبحيث تنبثق في كل مرة أزمة حاسمة ، اليوم شأن الامس • ان

الأزمة تحدد اللحظة التي تتجلى فيها الجدلية الداخلية لتاريخ محدد بوضوح كامل ، انها هي نفسها معتمة ، محددة بعوامل مختلفة متضافرة ،ان في كل أزمة التباسا نموذجيا • وحل الازمة ، بالنسبة الى الذين يعانونها ويتواجهون فيها ، بالنسبة الى كلا الفريقين المتواجهين ، لا يفرض نفسه ببداهة « الشكل الواجب » وبساطته • ان الشروط الموضوعية تشكل أساسا ، اطارا من المقترحات لا يمكن تجاوزه ، فتحد مجال المبادرات أو الردود الممـــكنة على الحدث ، غير أن هذا الأساس يبدو آنذاك أنه يتراجع ، يتقلص ، يتحيد بحيث يدفع الى الأمام ، بوضوح خارق ، دراماتيكي ، طاقة الابتكار ، والفاعليـــة الواعية للقيادات السياسية ، بحيث أن الشكل الذي يفرض نفسه على النظر الجماعي ، ينتقل من الموضوعي الى الذاتي ، الى غير المحدد ، الى المبادرات الخاصة التي يقوم بها بعض الاشخاص الذين برزوا فجأة على المسرح •

(•••) يبدو أن ظرف الأزمة يعكس في داخله بالذات وظيفته التاريخية العامة الخاصة به : قلب الوحدة القديمة بقفزة الى الوحدة الجديدة ، قفزة نوعية ، انقطاع الانتقال من مرحلة الى أخرى تليها ، من نظام سيطرة طبقية الى نظام آخر • ان الازمة العامة تمثل بذاتها ، بسياقها الفعلي ، تحديا للاستمرار على الصعيد المنطقي وفي تعاقب الوقائع الملموسة • فثمة فجوة بين الوسائل المتوفرة والهدف الذي يجب تحقيقه ( في روسيا ، بالنسبة الى البلاشفة بعد أوكتوبر ) • فجوة بين ما يمكن فعله وما يتوجب فعله ( هذه الفجوة تحولت ، وقد دفعت الى أقصاها ، الى فاجعة سياسية ومغالاة قاتلة لدى توماس منذر والثورات الفلاحية المجهضة كما يحللها انجلز ) • فجوة محتمة ، مشتركة بين الأزمات الحاسمة كلها ، بين القرار الضروري والعناصر المتوفرة لتحويل هذا القرار الى حكم ، فجوة بين ضرورة القيام باختيار ، في لحظة معينة ( في بعض اللحظات الممتازة حيث يختصر سياق معقد ، معطى ، ويعرض نفسه كاملا في بديل بسيط ، يحول نوعيا ، في هذا المنحى أو ذاك ، اتجاه السياق : الأيام العشرة التي سبقت ثورة أوكتوبر ، القرار نفسه الذياتخذه لينين بالانتقال الى الهجوم العلني على سلطة الدولة تشكل المثل ، النموذجي أو الاسطوري للحظة كهذه ، لكن الواقعي جدا بالنسبة الى الذين عاشوه في التباس الحاضر المباشر ، الذي لا يمكن جلاؤه ) ، والاحتمال القوي جزئيا ، الكامن في شروط هذا الاختيار • من هنا ، كل أزمة تبعث الدوار ، ففي لحظة ما ، اللحظة الحرجة في الازمة ، يدوي التاريخ عميقا كأنه الهاوية ، ثانية خاطفة ، طرف من الليل ( مثلا ليل سمولني المشهور ، الذي يتحدث عنه البلاشفة في مذكراتهم ) ، نظل في الهواء ، معلقين بانتظار لا شيء ، اشارة ، نقطة ارتكاز •حتى الذين هم أكثر ثقة يشعرون بفراغ في أعماقهم • انه الفراغ الذي يفصل الفعل المقرر ، المؤكد كضرورة ، كشيء لا مفر منه ، وشروط امكانيته النظرية والفعلية التي نتحسس أنها لم تجتمع كما كان مفروضا ( لكي يفرض الخيار نفسه كبداهة ) • الواقع أن ما يكشفه الوضع الحرج هو أن البنية الجدلية للتاريخ تنعرض للناس دائما كمصادفة ، يعني أننا في التحليل الأخير لا نواجه **الضرورة** الا في شكل ملموس من أشكال الاحتمال ، محـــدد

كتحديد هذا الاحتمال **ولأنه هو حصرا** • ( أوضح آلتو سير هـــذا كله كما لم يوضحه أحد ، في أهم نصوصه وأجداها : التناقض والتحدد ) • من العقل في السياسة أن نتجاوز المعقول أحيانا : خطوة الى الأمام ،لا أكثر ، لكن المسألة الدائمة هي أن نتخذ القرار الخطر •الفلاسفة والايديولوجيون ، هؤلاء الذين يشاهدون التاريخ ، كحضور جالسين أو كقضاة ، خائفين من الفراغ ، هم عاجزون عن اتخاذ هذه القرارات، عاجزون حتى عن فهمها، الا باستعادة الماضي• أنهم لا يعرفون الوجل ، فالحسرة الصغيرة ليست للسعداء• ويبدو أن غيفارا كان يشعر شعورا حادا بهذا الوجل أمام ما يتضمنه كل عمل حاسم من الأشياء التي **لا يمكن** تسويغها ، وربما كان يشعر به بشكل أفضل مما يشعر أي شخص آخر ، بفضل نفاذ فكره الدقيق الرياضي ، وتكونه النظري ، وصفائه العقلي الخارق • لكنه كان اذاك قادرا على أن يتعدد ، أن يغلق في اللحظة المناسبة ، فم المنظّر ، المحلل ، « المثقف » الذي كان فيه ، لكي ينخرط بتصميم صامت ، راسخفي الموجود للعمل ، فيما كان مقررا • وبقدر ما يـــكون الوضع مريبا ، ويعرف مدى الريبة فيه ، يظل هادئا • كان يحسن أكثر من غيره رؤية الخفي ، **الخطر** ، **الحتمي** ، لكن منذ أن يتخذ قـــراره لم يكن يزيده **الخطر الا ثباتـــا** وتصميما ، **ان الهدوء** في هذه **اللحظات** حيث « كل شيء عالق **بطرف الخيط** » ، **هو أفضل خدمة** يمكن أن **يؤديها القـــادة الى** المكافحين الذين **يحيطون بهم** • **والتشبث بالخيط** لن يجعلنا أكثر رسوخا •

٤ ــ **الأزمة** حتمية ، لكن نتيجتها ليست حتمية • **اذاأحصينا الأزمات الكبرى** في التاريخ المعاصر التي نتجت عنها التغيرات الحاسمة في الرأسمالية ، فاننا نلاحظ أنها كانت تتضمن دائما شيئا من الزيغ ، والتلوث ، والمفاجأة • الأزمة الثورية الملائمة ستكون ، سيتوجب «منطقيا » أن تتطابق مع اللحظة التي تصطدم فيها بالصدفة الضيقة لعلاقات الانتاج ، نمو منتظم وعادي لا يعكس في حينه ، فينهايةمرحلة المخاض ، انفجار شكل جديد من التنظيم السياسي بل تفتحه الذي يتطابق مع تأميم وسائل الانتاج • الواقع أنه اذا كان ظرف الأزمة الذي يمكن أن تنشأ منه الثورة الاشتراكية أليما دائما كالولادة ، فان المولود يظهر دائما بطريقة غير منتظرة : ننتظر رأسه ، فتجيء قدماه أو يجيء بشكل جانبي • قبل أوانه ، أو طرحا ، أو هزيل البنية ، غير متطابق مع جوهره: لهذا لا نتعرف اليهدائما • ( الاشتراكيون القدامى في **الأهمية الثانية** ، مثلا ، حتى الأقل ارتدادية بينهم ، شق عليهم أن يتعرفوا في الجمهورية السوفياتية الفتية سنة ١٩١٧ الى الصورة المتطابقة مع حلمهم • ) هذا اللاتطابق مع الذات، وهذه اللامساواة الداخلية يشكلان حصراامتياز وأصـــالة كل مجيء فعـــال Avènement في التاريخ الواقعي • ان ايقاع **الفـــكر** الهيغلي فيما يسير نحو تحققه عبر الاحتمالات الجغرافية ، العرقية ، الاقتصادية ، الدينية ، الخ ، ليس فيه ما يفاجيء • أن يحل محل الفكرة التناقض البسيط بـــين قوى الانتاج وعلائق الانتاج أمر يتيح للجوهر الاقتصادي تقدما ساطعا ، مقدرا ، منتظما عبر

الظواهر السياسية ، وتصبح كل أزمة سياسية ضحية ، مؤاتية كأزمة النمو ، حيث تشكل الترويضات والاخفاقات نفقات التطور الصغيرة ، ونتوءات العمل السلبي • فالواقع أننا نعرف أن الصفة الزائفة أو غير السوية ( بالقياس الى معايير تجريدية ) في الظروف الحرجة ، في الاوضاع الثورية الملموسة تعود الى ضرورة الانصهار الفريد للتناقضات ، بحيث أن التناقض الاساسي أو الاقتصادي يجد أنه هو نفسه محدد بمجموعة العوامل المتنافرة يصل فيها الى درجة الانقطاع • هذا الانقطاع لا يكشف عن نفسه مسبقا ، ولا عن التحديدات الملموسة التي تسمح بالتحقق منه حالا ، وتلك هي الوقاحة الشديدة لتاريخ الثورات • فلا ينتظر من هذه الجهة ، ولا في هذه الساعة ، ولا بهذا المظهر • انه يشوش المخططات ، والستراتيجيات المقررة سلفا • يأخذها من الخلف ، وغالبا ما تفاجىء أزمة ما ، فتقاطعه ، وتعرض للخطر تطورا سياسيا « ملائما » • اذاك يشعر المسؤولون أنهم مجبرون ، ان أزمة تفرض عليهم خيارات واتجاهات وانقطاعات يرفضونها • لم تكن الازمة ساطعة قط مع ممثليها ــ ضحاياها ، ونادرا ما أحاطت بها هالة النصر أو الضرورة • ان **المساء العظيم** ، حين يسقط فوقنا ، هنا وهناك ، يبدو ، بمقدار ما نستطيع الحكم على مدى نصف قرن ، أنه يشبه فجرا غامضا وباردا • فالملحمة هي ارتداد الى الماضي • ثمة شيء مزعج ، من وجهة نظر دينية أو رؤياوية ، في الهجوم المفاجىء للأزمات الثورية الكبرى • الهزات تخيب من يعتبرها حاسمة • فالتاريخ الفعلي لم ينه مضايقاته • فحتى في الظفر ، تمتزج الانتصارات دائما بالهزائم •



ريجيس دوبري

هنري لوفيفر
(Henri Lefebvre)

# المؤتلف والمختلف

يمكن التساؤل ، منذ أيار ١٩٦٨ ، عما اذا كانت أزمة العالم الحديث الكبيرة لم تصل الى خاتمتها · لقد توقف الكلام عليها ، أو قل · ألعله تـم اكتشاف المنهج أو المذهب الذي يحقق القصد ويحل جميع المشكلات في فرنسا وغيرها · حتى الكلمات الخبية مثل « تحول » ، « تغير » ، اختفت تقريبا · ماذا ابتكر ، اذن ؟ مزيج · أزمة النظام الذي يوجه الاقتصاد dirigisme تتكامل مع النزعة الليبرالية الجديدة ، والعكس صحيح · يمكن للبلدان التي أساءت استخدام **الدولة** أن تتمتع بشيء من الحرية ، والشعوب التي تمتعت بكثير من الحرية يمكن أن تتداوى بنظام سياسي يوجه الاقتصاد · فما كان يبدو حسما تاريخيا بين المشروع الحر والتخطيط ، بين الدولة المستبدة والديموقراطية المتساهلة يتحول الى موازنة ، الى نوع من تقدير جرعة الدواء : كمية أقل بقليل من هذا ، كمية أكثر بقليل من ذاك ·

كان مما يمكن توقعه ، اذن ، أن تقوم **النماذج** الكبـــرى ، بايضاحات أو تنازلات رسمية كثيرة · لكن ، لم يحدث شيء من هذا · فلم يعترف النمـوذج الاميركي ولا النموذج السوفياتي بأي خطأ ، وهما لا يتحملان أية تخطئة · ان كلا منهما يؤكد ذاته وان اقتضى الامر فبالقوة العسكرية · لكن ، سيكون من السخرية السهلة طرح مثل هذه الاسئلة : « أين اذن من هذا ، المجتمع الاميركي الكبير ؟ والانسان الكلي والفرح الاشتراكي أين هما ؟ وأين يتجه « المجتمـع الجديد » الفرنسي ، خصوصا أن فرنسا تتميز بأنها تفيد متأخرة ، من أية حرب ، أو أزمة ، أو مجتمع ، فتلملم ما يتساقط بعيدا ، في أماكن أكثر اتساعا ؟ ·· »

لنعترف أننا ثرثرنا كثيرا ، منذ عهد غير بعيد ، عن الازمة ( العامـــة ) والازمات ( الجزئية ) ، حتى أتعبنا الناس ودفعناهم الى أحضان الخادعيـن ـ المخدوعين · وكان البعض ، من المتشائمين عمدا ( أو المتفائلين ) يعلنون أنها أزمة

نهائية ، شاملة • وكان اخرون ، انتهازيون عمدا ، يؤكدون أنها أزمات صغيرة ، لا أهمية لها ، أنها نوع من الصعوبات والاخطاء والعثرات • ووصل البعض الى التفكير بأن في الازمة الصغيرة هنا وهناك ( في الشبيبة ، الاخلاق ، الجامعة ، الفلسفة ، المسرح ، الصحافة ، الطب ، هندسة المدن ٠٠ الخ ) ما يحرك وأن كل شيء يسير نحو الاحسن لحظة لا يوجد شيء حسن • ان فلسفة الازمة هذه ، التي تتخلى عن النقد ، تحول دون رؤية الجديد والجوهري • ان **أزمة المجتمع** ( يعني أزمة العلاقات الاجتماعية أو بعض العلاقات الرئيسية ) يمكن أن تنشأ وتتطور وتتفاقم دون أن تنشأ « أزمة اقتصادية » ، أو « أزمة سياسية » بالمعنى الكلاسيكي لهاتين العبارتين • ان أزمة كهذه لا تنحصر في « الثقافة » • انها تتجاوزها الى ما هو أبعد ، فتلامس « القيم » المنهجية Systématisées أو غير المنهجية ، و « الدوافع Motivations » ، وباختصار ، البنى الفوقية ( الايديولوجية ) • الاقتصاد ، في الولايات المتحدة ، يدور • الاجهزة ، في الاتحاد السوفياتي ، تعمل • مع ذلك يقوم فراغ في هذين البلدين الكبيرين ، يزداد عمقا باستمرار ، فراغ لا يمنع عمل الوظيفية Fonctionalité الاقتصادية في أحدهما ، ولا الشكلية السياسية في الاخر •

## أزمة ١٩٢٩ - ١٩٣٣



اذا عدنا الى الوراء ، الى ماض ما يزال قريبا وما تزال نتائجه تتلاحق ، فاننا نكتشف أزمة كبيرة هي أزمة ١٩٢٩ – ١٩٣٣ • هل هي أزمة كاملة شاملة ؟ أم أزمة اقتصادية خطيرة ، لم تؤثر عميقا في البنى الفوقية – المؤسسات والايديولوجيات – للمجتمع الرأسمالي ( في حين يحدث اليوم العكس ) ؟ ومهما يكن ، فان **الازمة الكبيرة** سبقت ظهور الفاشية والحرب ( الحرب العالمية الثانية ) وسببتهما • انها كأزمة ، أي كلحظة عصيبة في حياة المجتمع ، لم تفض الى ما يفيد • ولم يكن الهجوم الكبير ، الذي طالما رجي وانتظر ، هجوم الطبقةالعمالية العالمية ، « طبقة ضد طبقة » ، هو الذي أنهاها •

هذه المرحلة التاريخية تخفي كذلك أكثر من لغز • الستالينية ؟ الفاشية الهتلرية وقدرتها المغوية المفسدة ؟ ان هذا كله لا يفسر مجموعة الظواهر ولا الاقتران النهائي للقوى السياسية • كل شيء حدث كما لو أن الطبقتين المتعارضتين ، البروليتاريا ، والبورجوازية ، قد عقدتا حلفا ضد « الرجعة » المطلقة ، اذ خشيت كل منهما أن تدمر واحدتهما الاخرى ، بقوى متساوية ، وأن تقودا المجتمع بكامله الى الخراب ، منذ أزمة ١٩٢٩ – ١٩٣٣ ، وربما قبلها • لكن ألم يكن بروز هذه الرجعية المطلقة ، الفاشية الهتلرية ، نتيجة الوضع ، نتيجة تردد الطبقتين وعجزهما عن الالتحام في صراع حتى الموت ؟ لقد تم الصراع ، لاسباب أخرى وغايات أخرى ، لكن لم تتم المواجهة بين الطبقتين •

تخلتا عن هذه المواجهة ، أو أرجأتاها بحجة الدفاع المشترك عن الديموقراطية والتقدم والثقافة • فقد عقد « ميثاق غير مكتوب » بين ممثلي البورجوازية وممثلي الطبقة العاملة • وكانت النتيجة البعيدة لازمة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ ، خلال الحرب العالمية الثانية ، حرب الفاشيات ( القومية Nationalistes ) ضد الديموقراطيات ( الوطنية Nationales ) هي التعايش السلمي بين الطبقات ، ( لا التعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وحسب ، أو بين اشتراكية الدولة ورأسمالية الدولة • ) وكانت هذه هي النتيجة الاكثر أهمية للعهد الستاليني ، ان لم يكن للستالينية • ان **المبدأ ( الوطني )**

مبدأ **الخصوصية** ، Particularité تغلب على **مبدأ الطبقات** ، الذي هو في رأي ماركس ، **مبدأ العمومية** Universalité • ولئن كانت الفاشية القومية لم تحقق النصر الحربي ، فقد شاركت في تغيير مجرى الاحداث ، ولم تكمل البروليتاريا « الرسالة التاريخية » التي حددها ماركس ، حينما كانت الفرصة مؤاتية • ماذا بقي ، بعد فوات الفرصة الطيبة ، من الطموح ، من الرسالة ؟ لقد هيأت الديموقراطية المجال الملائم لهذا الانثناء الكبير • ربما ، بهذا المعنى ، لم تكن أزمة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ علامة مرحلة تاريخية ، وانما كانت تماما نهاية التاريخ كما فهمه هيغل وماركس • هل يمكن الاحداث الاتية أن تتابع سيرها من الان فصاعدا كما لو أن ذلك الميثاق لم يعقد ؟ هل يمكن من جديد رفع راية صراع الطبقات ، كما لو أن ستالين والستالينية لم يقررا ، تحت مظاهرهما الوحشية ، المصالحة ؟ كما لو أنهما لم يوجدا ؟ سيكون ذلك اكثر أشكال نفي التاريخ مدعاة للاستغراب • وسواء استصوب الاتفاق « التاريخي » بين الطبقات أو خطىء ، فلا يمكن السكوت عنه • الاسوأ من ذلك هو التفكير أو الاعتقاد أن **الصراع نفسه** يستمر • دون أزمة ••

## معنى الازمة

ماذا كانت تعني وماذا تعني كلمة « أزمة » في المصطلح الماركسي ؟ انها تعني عند ماركس نهاية مجتمع ، وبداية مجتمع اخر ، وتعني اللحظة الحرجة Critique ، لحظة العمل ، لحظة الانتقال • هذا المفهوم خضع لتعديلات كثيرة في ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ • فقد ردت **النزعة الاقتصادية** Économisme أزمة المجتمع العامة ( الشاملة ) الى الازمة الاقتصادية ، وردت هذه الى أزمة الزيادة **الانتاجية** Sur-production ، التي تسمى **أزمة دورية** Cyclique التي قال عنها ماركس بأنها تطهر المجتمع الرأسمالي من فضلاته ( ويمكن الحرب أن تقوم بهذه المهمة ) • لم تعد كلمة « أزمة » تدل على اللحظة التي لم يعد من الممكن أن تتكرر Se re-produire فيها علاقات الانتاج الرأسمالية ، حيث

لا يضعف انتاج الاشياء بل يضعف الانتاج المتجدد Re - production للعلاقات المكونة للمجتمع القائم • هل لان مضمون أشكال المجتمع يزول ، مثلا بسبب عدم اكتمال التراكم التوسعي لرأس المال ؟ أم بسبب توقف المجتمع الرأسمالي عن ممارسة عمله كنظام تعاقدي ، منظما العلاقات بين الافراد والجماعات، وانتقال الملك بعملية أخرى ؟ لا تمكن معرفة ذلك مسبقا ، فثمة فرضيات كثيرة ممكنة ، لكن الفكر الماركسي لم يدرس ، فيما كان يضيق ويتزمت رويدا رويدا ، الا فرضية توقف الانتاج •

غير أن المفهوم اللينيني **للتنمية غير المتساوية** L'inégal développement أدخل عناصر جديدة في مفهوم المرحلة ( أو اللحظة ) الحرجة • فالازمة لا تصيب في اللحظة ذاتها وبالطريقة ذاتها مختلف قطاعات الممارسة الاجتماعيـــة ، ومختلف المجتمعات • انها تخف هنا ، وتتفاقم هناك • وهذا في النهاية يعكس تفكك المجتمع بكامله الى أجزاء متفككة • أن يكون من الممكن اذن ، على الرغم من الاتفاق بين‌الطبقات ، تقدم العالم الحديث بكامله نحو أزمته الشاملة ، أي نحو استحالة الانتاج المتجدد Re - produire للعلاقات الاجتماعية ، مما سيؤدي الى التجدد أو الى التعفن والدمار من داخل ، فلا شيء أكثر من ذلك بداهـــة وحتميـــة •

## منحيان مختلفان في الفكر الماركسي



الفكر الماركسي نفسه تجرفه الصعوبات ، وربما كان مجروفا كذلك في التعفن والدمار من داخل • كيف يتخلص من وضع كون وما يزال يكوّن أحد عناصره ؟ ان ميثاق عدم الاعتداء بين الطبقات لا يجنبه أية مشكلة ، بل العكس هو الصحيح • فكيف يأمن التناقضات التي يكتشفها أو التي يسببها ؟ ان السبب في إشكال Ambiguïté الماركسية اليوم هو أنها تطرح مشكلات فيما يبدو أنها هي ذاتها موضع اشكال Problématique • فاذا كانت هناك انحرافية اقتصادية Economisme ، أو انتاجية ، أو مذهبية ، أو كانت هناك ايديولوجية نمو وسلطات قسرية للفكر أو ما يسمى فكرا ، فان للماركسية ككل ، نصيبها الضخم من المسؤولية • ولم تكن الماركسية أقل خصبـــا من اللاماركسية في كل ما يتعلق بالاصنام ، كالدولة والصناعة والسياسة والنزعة العلمية •

هل ينبغي أن نؤرخ بالحرب العالمية الثانية لصعوبات الفكر الماركسي الخارجية والداخلية ، احداهما أو كلتيهما ؟ أكيد، لا• ليس من الصعب أن نرجع الى ما قبل ذلك، ابان الحرب العالمية الاولى، حين لم يستطع حزب البروليتاريا الذي خاض الصراع، في روسيا، أن ينتصر الا بمساندة (أي أكثر من المساعدة وحسب) الفلاحين• ان رؤية التاريخ، الواضحة الصافية كما قدمها ماركس ،

تشوشت منذ نهاية القرن التاسع عشر. فمنذ مناقشاته مع فرديناند لاسال Ferdinand Lassale ، برزت نتيجة الاحداث ، أي الاهمية المتزايدة للدولة ، ونجاحات الاعمال السياسية التي نفذها رجال الستراتيجية ( بسمارك ) . وسرعان ما دخلت الحركة العمالية ، في أوروبا ، في تناقض لم يحل طيلة قرن فيما بعد : في فرنسا ، الثورة التي تحطم الدولة ، من خلال كومونة باريس ، وفي المانيا اشتراكية الدولة ، الاقرب الى لاسال منها الى ماركس . وليس من المستحيل أن ندل في فكر ماركس نفسه ، على أكثر من ابهام ، وأكثر من تناقض خفي . فهو أحيانا يقترح قلب العالم والمجتمع القائمين ، والقضاء على فكرة الدولة والوطن والامة والعائلة والملكية وحتى « الشخص » الانساني ( البيان ، سنة ١٨٤٨ ) . وأحيانا يبدو أكثر حذرا مهتما بالفاعلية ، فيكتفي باقتراح اعادة التلاحم أو اقامته بين مستويات التطبيق Praxis ( القاعدة الاقتصادية ، البنية الاجتماعية ، البنى الفوقية الايديولوجية والمؤسساتية ) للقضاء على العوائق التي تقيمها البنى والبنى الفوقية المتخلفة أمام القوى المنتجة . اذن ، كان ماركس أحيانا يريد من الثورة أن تكون شاملة ، مطلقة ، وأحيانا نسبية . وكان حينا يريد منها أن تضع حدا للتاريخ ، ويريد منها ، حينا آخر ، أن تؤسس مرحلة تاريخية فتحل بذلك الصراعات التي هي نفسها ، صراعات تاريخية . وتظهر بعض النصوص أن الثورة الجذرية ( الشاملة المطلقة ) Radicale تتناول الناس والاشياء من القاعدة ، وتستأصل الجذور الهرمة . وتظهر نصوص أخرى أن العمل الثوري هو العمل الواقعي الذي يحدد لنفسه أهدافا واضحة وواقعية . ( نقد برنامج الحزب العمالي الالماني ، ١٨٧٥ ) .

ان أبسط ، وربما أفضل ، ما يمكن قوله هو أن هناك منحيين Version مختلفين في الفكر الماركسي : منحى الحد الاقصى Maximale ( الانقلاب الكامل ، العقلي والاجتماعي ) ، ومنحى الحد الادنى Minimale ( اعادة التلاحم الى مجتمع مفكك الى قطاعات ، ومستويات ، ومظاهر ، وجماعات وطبقات تتطور بشكل متصارع وغير متساو ) . قد يوصف المنحى الاول بأنه يسروي Gauchiste ، ويوصف الثاني بأنه اصلاحي Réformiste

هل هذان المنحيان موجودان في فكر ماركس ؟ نعم ! وهما اليوم اكثر وضوحا ، بعد مرور قرن على كتاب الرأسمال ، في ضوء ما حدث خلال هذا القرن . هل ينبغي اختيار أحد المنحيين ؟ هل ينبغي أن ننبذ من فكر ماركس النصوص الاكثر جرأة وثورية ، وبخاصة تلك التي كتبها في شبابه ؟ كلا . أهذه حجة لتفكيك نتاج ماركس باسم المنطق والدقة العلمية كما تحاول الماركسية الجديدة ؟ أكيد ، لا . ينبغي ، على العكس ، ادخال **الاختلاف** حتى في نتاج ماركس وفكره ، بدل البحث فيهما بغية التوكيد على أنهما كتلة متلاحمة . أم لعل ماركس صاغ ، بشكل صريح أو مضمر ، اقتراحات مختلفة من أجل

أوضاع مختلفة ؟ ولعل الانحياز الستراتيجي الى منحى الحد الادنى ، لا يحول دون العودة الى منحى الحد الاقصى ، فيما اذا عادت الفرصة الملائمة ! ان اعلان الفشل أو اخفاءه تحت ايديولوجية ما ( ايديولوجية **الفصل** بين الحياة والفكر ، الممارسة والنظرية ، مثلا ) ، فرضيتان يبدو أن الواحدة منهما لا يكثر حظهـا بالقبول عن الاخرى • الجدير بالقبول هو ، على العكس ، الاشارة بصراحة الى الالتباسات والاختلافات في صميم الفكر الماركسي •

## التباسات واختلافات

يقول **بيان الحزب الشيوعي** ( ١٨٤٨ ) : « ان الخصوصيات القوميـة والتناقضات فيما بين الشعوب ، تزول شيئا فشيئا ، تبعا لتطور البورجوازية وحرية التجارة والسوق العالمية وتماثل الانتاج الصناعي وشروط المعيشـة الناجمة عن ذلك » • هل هذا صحيح ؟ لم تزل الخصوصيات المحلية والقومية • واستخدمتها البورجوازية ، وبخاصة في البلدان الامبريالية الكبيرة ، وغالبا ما هدمتها ، وأحيانا أنعشتها بحسب استراتيجيتها • هناك ، بشكل عام ، وباء مطرد هائل من الخصوصيات الطبيعية والقومية ، وهي تقاوم بعناد التماثل الذي أشار اليه ماركس سنة ١٨٤٨ • « عندما تستولي البروليتاريا على السلطة، ستزيلها على نحو أكثر جذرية • ان نضال البروليتاريا نضالا موحدا يشمل ، على الاقل ، عمال البلدان المتقدمة ، هو أحد الشروط الاولى لتحررها • » • أليست هذه التوكيدات محيـرة ؟ ان كان ماركس محقا ، فذلـك يعني أن البروليتاريا حاولت أن تقوم بهذا الدور الكبيـر وأنهـا فشلت • واذا كانت البروليتاريا قد فشلت ، فلانها خذلت وغدرت ، وخدعت ، كما يقول البعض • ربما ، لكن لماذا استسلمت لخاذليها ؟ ألم تكن هناك صعوبة في البدء ، باعتبار أن **البيان** يعلن أن على البروليتاريا ، أولا ، أن « تترسخ كطبقة وطنيـة » ؟ صحيح أن ماركس يضيف أن على الطبقة العاملة أن تظهر نفسها كطبقة وطنية لكن ليس « بالمعنى البورجوازي » • الا انه لا يقدم حول هذا الفرق أي ايضاح أو أي مقياس •

بعد مرور قرن على كتاب **الرأسمال** يعرف المهم الجديد كل انسان ، لكن الاخصائيين في السياسة وفي الماركسية يترددون في الاعتراف به • لقد تحقق **نمو القوى المنتجة** ، دون انقلاب في علاقات الانتاج والملكية • هذا ما كـان ماركس يرتاب فيه حين لم يعلن استحالته • نمو غير متساو ، ضعيف التلاؤم ، لكنه ضخم ، وهو غالبا متساو أو متفوق من الناحية « الرأسمالية » بالنسبة الى المعدل والوتيرة المقابلين من الناحية « الاشتراكية » ، في حين ينبغي على مـا يسمى بالثورة الاشتراكية أن تكتمل لكي تحطم عوائق النمو • ان جميـع الدلالات في الولايات المتحدة تبرز بشكل متقارب المستوى العالي الذي بلغتـه القوى المنتجة • واذا كان صحيحا ان وتيرة النمو ومعدله يخفضان في الولايات

المتحدة وفي عدة بلدان « رأسمالية » ، فان مثل اليابان يجيء في حينه لكي يؤكد أن ذلك ليس قانونا عاما يصيب النظام كنظام ، وأن هذه البلدان لا تدخل المباراة السلمية وهي مغلوبة سلفا • ان **النموذج الياباني** اليوم ( ١٩٧٠ ) يحل محل النموذج الاميركي ، الذي سقط قليلا ، والنموذج السوفياتي الذي زالت حظوته تماما • مع ذلك لا مجال للمدافعين عن الرأسمالية ، من اقتصاديين وسوسيولوجيين ومخططين مستقبليين ، أن يفخروا ويتباهوا • أفليست « المعجزات » ( الالمانية ، الايطالية ، اليابانية ، الخ ) قفا الانكسارات ، والجانب النافع من الفشل الحربي والدمار ؟ ان انتصار الرأسمالية الاخير ، دون تحولات عميقة ، بعيد جدا •

ان تزايد الانتاج وامكانية الانتاج في الولايات المتحدة وغيرها ولد مشكلات جديدة • أيمكن اقتراح **النمو اللامحدود** كهدف عقلي ؟ ان الايديولوجية الانتاجية تؤكد أن هذا الهدف يمكن ويجب أن يبقى ، رغم كل شيء ، لاسباب استراتيجية ( اقتصادية ، سياسية ، أخلاقية ) • الستراتيجية السياسية تصونه ، اذن ، رسميا ، وسيكون « المجتمع العظيم » في الولايات المتحدة وغيرها مجتمع الانتاج والانتاج بلا حدود • وهؤلاء الذين يريدون أن يحددوا مباشرة الانتاج والحاجات يستلهمون زهدا معلنا أو غير معلن • مع ذلك ، يقلق أكثر المفكرين صفاء • هل ترغب كل عائلة أميركية في أن تملك ثلاث سيارات ، ثم أربعا ، ثم خمسا ؟ أين تسير وكيف ؟ أيصبح لديها جهاز تلفزيوني في كل غرفة ؟ أليس هذا عبثا ؟ ألا تفقد هذه العقلانية كل معنى ؟ لنفترض أن أرباب السلطة يريدون أن يزيلوا الفقر ويزيدوا الاستهلاك في هذا الاتجاه أو ذاك ( لا الاستهلاك « النخبوي » أو استهلاك السيارات وحسب ) ، فما هو الوقت الذي يقتصدونه هكذا ؟ وبعد ذلك ؟

قلما تختلف الستراتيجية والايديولوجية في الشرق ، في الاتحاد السوفياتي عن مثيلتها في الولايات المتحدة ، حتى لو بقي النجاح غير محقق • منذ وقت طويل يسير الاتحاد السوفياتي في خط « النموذج الاميركي » ، فيما يكافحه « ايديولوجيا » بوساطة فلسفة ( عن الطبيعة والتاريخ ) • المثال الاميركي : « المجتمع العظيم » ، يقابله المثال الاشتراكي : « مجتمع بلا طبقات » • ان النقص في امكانية الانتاج ، وفي الانتاج وكذلك في الاستهلاك الكثيف ، في الاتحاد السوفياتي ، يضفي على هذا « المثال » شيئا بعيدا ، اذن قابلية أعظم للتصديق • يبقى الهدف الرسمي ، من الناحيتين ، محددا • كيف ، مع ذلك ، لا يعاد النظر فيه ؟ ان انسان الاعتدال يتجاوز كل اعتدال • وانسان الكمية والنمو يبلغ أقصى حدود امكانياته • وهذا أفضل نقد يمكن أن يوجه لهذه الايديولوجية : نقدها الداخلي • كان لفكرة ومشروع نمو بلا حد ، حججهما في الماضي ، وأنصارهما الذين قادوا معارك كبيرة ( ومن ضمنها الحروب العالمية ) واليوم تصل هذه المشاريع وهذه العقلانية الى حدودها • تتفجر أو تتقبل تحولا قد يغيرها بحيث يصبح التعرف عليها أمرا صعبا •

العهد الستاليني ؟ الستالينية ؟ هاتان العبارتان تتضمنان وتخبئان أشياء كثيرة ليست العبارة المشهورة « عبادة الشخصية » الا أقلها أهمية • لقد أسهمت أسطورة ستالين ، في أثناء حياته وبعد موته ، في اخفاء الجوهري • ففي العهد الستاليني نشأ التواطؤ بين الطبقات ، الذي قد يكون أنقذ الاتحاد السوفياتي ، لكنه أضفى على فترة « ما بعد الحرب » المسلكية الغثيانية التي يصونها بعناية منذ ربع قرن • ان الاشتراكية التي تستمد من ماركس بيانه ولغة قراراته تخلت عن اختلافه Différence لكي تتبنى أهداف الرأسمالية ذاتها : الانتاج ، الانتاج كذلك ، الانتاج دائما • مذاك ، عجزت اشتراكية الدولة أن تختلف عن رأسمالية الدولة ، الا بالايديولوجية • من هنا أهمية « الصراع الايديولوجي » • رب قائل ان اشتراكية الدولة لا تنتج من أجل الربح • صحيح ، وهذا ما يزيد خطورة تخلفها ، حين تجد نفسها مضطرة لتبني مقياس الدخل • ومنذ أن استلبت الاشتراكية من نفسها ، وغربت ، فقدت التنفس و « النفس » ، كما يقال : فقدت المعنى • حتى لو أن المجتمع الذي يسمى اشتراكيا لا ينتج في شروط تستطيع فيها طبقة أن تستأثر بالجزء الاكبر من فائض العمل Surtravail (فائض الانتاج) ، بمجموعه ، حتى لو أن هذا المجتمع لا ينتج من أجل القوة ، فان ذلك لا يغير شيئا من واقع تنازله عن اختلافه • لم يعد للعمل المنتج معنى • لقد كفر المجتمع الاشتراكي بنفسه ، في حماسة كبرى ، منذ أوائل العهد الستاليني • وسرعان ما كشفت هذه الحماسة ، الخادعة المخدوعة ، عن محتواها السياسي •



## أوضاع اليسار

من هذه الظروف كلها ينشأ الوضع الذي يتخبط فيه هذا الذي ما نزال نسميه « اليسار » • ألم نر ونقرأ ونسمع ، طيلة سنوات طويلة ، ممثلي الحركة الشيوعية **الاميركية** ، يؤكدون بأنهم كانوا وحدهم القادرين على تحقيق النمو الاقتصادي ؟ ألم يكن هؤلاء القادة يطردون الطقوس ذاتها الموجودة في أماكن أخرى ( ديموقراطيا ) أولئك الذين كانوا يبدون أبسط شك ؟ ألم نر ونقرأ ونسمع في أوروبا ، في فرنسا ، ممثلي « القوى الديموقراطية » و « الطبقة العاملة » ، يدلون بالتصريحات ذاتها ؟ لم يقدم « اليسار » ، في كل مكان تقريبا ، خلال عشرات السنين ، الا هذه الحجة : « سنعمل بشكل أسرع وأفضل • » • كان هذا تقدما ، بالنسبة الى أشخاص اليسار ، كانوا يرفضون التصريحات الانسانية الكبيرة ، والفصاحة المثالية ، والخطب عن العدالة والحقيقة • الواقع أن الثورة كانت تتقلص في النزعة التقدمية Progressisme لن تعود تغييرا للحياة والعلاقات الاجتماعية ، وستكتفي بتعديل بعض « البنى » الاقتصادية • وكان أشخاص اليسار يكتفون بالتوكيد على أنهم سيثبتون منحنيات النمو أو سينمونها • « بشكل أسرع وأفضل » : شعار جمعيات دفن

الموتى في الولايات المتحدة . وتركت « الجماهير » للايدي التي تسيرها زمام الامور . هل كان لهذه الجماهير استراتيجية ، بشكل عفوي . ربما . ولم يتوصل أشخاص اليسار الى احكام استراتيجية ، لانهم لم يعودوا مختلفين عن غيرهم . وسقطوا في التكتيك ، وبينهم « الشيوعيون » الذين يملكون وسائل أكثر للمناورة على الصعيد التنظيمي وبخاصة على الصعيد الايديولوجي . وأتاح لهم مزيج ماهر ( تعصبية ، مذهبية ، صرامة الجهاز والمؤسسة ـ انتهازية عملية ومرونة سياسية ) ألا يشهروا افلاسهم . يا لجور هذا الذي ما نزال نسميه تاريخا ! لم يكن « الاصلاحيون » مخطئين ، فلحظة كانت الوقائع تثبت صحة رأيهم ، كانوا يدفعون الثمن . وها هي اللفظية الثورية تجازف بالتغلب على النزعة الاصلاحية لحظة يبدو ان هذه النزعة تترسخ .

## النمو وطريق النمو

نمو غير محدود ؟ لماذا ؟ لمن ؟ لذاته ؟ لم يعد لهذا المشروع معنى الا في البلدان التي توصف بأنها « في طريق النمو » . ان هذه البلدان مقودة الى أن تعيد النظر في النمو غير المحدود ، حتى وان كان القادة ما يزالون يقدمون هذه الالهية . ما هو قوام الستالينية ، من هذه الزاوية ؟ نموذج مفروض على البلدان الصغيرة : التصنيع المفرط ، ومن ضمنه بناء الصناعة الثقيلة ، بغية نمو غير محدود ( يتناقض مع فرضية تقسيم العمل بين البلدان الاشتراكية ) . ما هو قوام النموذج الاميركي ؟ لا يختلف الا قليلا عن النموذج الستاليني ، حتى ولو أن النمو الصناعي في البلدان المسودة يتم بشكل يدر أرباحا فائضة على الرساميل الاميركية . لقد تغيرت مناهج القمع والضغط والاستغلال . ولانها صارت أكثر كمالا ، صارت أقل بروزا ، ومع ذلك أكثر فاعلية من ذي قبل . وفي هذه النقطة أعطت الستالينية للامبريالية بعض الامثولات . لكن ليس من المؤكد أنه يمكن جميع البلدان أن تسعى لتحقيق نمو اقتصادي واحد . بل يمكن التدليل على عكس ذلك . المصادر غير متساوية ، من جميع النواحي ، والعلاقات الاجتماعية لا تشجع دائما ، التراكم . أكيد أن التكنوقراطيين في جميع البلدان لن يترددوا في ازاحة العقبات ، وأشكال الحياة والقيم وأنظمة القيم ، من أجل ادخال بشر متنوعين في عمليات تطورية واحدة . ويبدو أن هؤلاء التكنوقراطيين يتوزعون توزعا عادلا بين « اليمين » و « اليسار » . بعضهم يلتمس أساليب عمله لدى الامبريالية ،وبعضهم الاخر لدى الاشتراكية . وخلال ذلك تنتظر الشعوب ، تجمد ، تتعفن ، وتنفجر تمردات منعزلة ، بلا هدف ، بلا استراتيجية . فلئن كانت هناك مقتضيات اقتصادية يمكن تحديدها لهذا البلد أو لهذا القطاع من النشاط في بلد اخر ، ان كانت هناك ضرورات ، فلم يعد ممكنا استبقاء الايديولوجية الانتاجية . ان اخضاع « العمال » ( الفلاحين ، الصناعيين، المياومين ، الخ ) في جميع البلدان لتصنيع موحد تقريبا ، وعدم السماح الا

بتنويعات بسيطة ، والمحافظة على مخطط مؤتلف موحد على المستوى العالمي ، وعدم تنويع النموذج الواحد الا فيما يتصل بالوتيرة والمعدل ، ان هذا كله هو اليوم أمر مستحيل • الواقع أن الجميع يرفضون ذلك ، لكنهم لا يصرحون • انهم يحافظون على الايديولوجية ، والمخطط ، والنماذج ، بدل أن يطرحوا المشكلات **المختلفة** بين بلد وبلد ، شعب وشعب ، ثقافة وثقافة ، قطاع وقطاع • انهم يحافظون على مخططات الائتلاف لاسباب يسهل فهمها : الحظوة ، النفوذ ، المؤسسات القائمة ، الخ •

## مشكلات العصر ومشكلات الماركسية

أكرر هنا كذلك أن الفكر الماركسي يطرح المشكلات الجوهرية في العصر لكن بشرط واحد : ألا يتجنب مشكلاته الخاصة • ان الماركسية تتيح الصياغة المنهجية لتناقضات العالم الحديث ، لكن ليس لها الحق في أن تدعي الافلات منها • على العكس : انها ، فيما تستقصي بحث تناقضاتها الخاصة ، تستطيع أن تحلها وتدفعها الى الامام ، كما يقال • ان المناقشات الكبرى والصراعات النظرية ( الايديولوجية ) لم تقم بين الماركسية واللاماركسية وحسب ، منذ بداية القرن العشرين ، بل قامت كذلك في داخل الماركسية من حيث أنها حركة• ان الموضوعات التي قال بها ماركس تتعمم على المستوى العالمي ، كالتخطيط ، والتنظيم المتلاحم للقوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية ، على جميع المستويات • واذا نظرنا الى الفكر الماركسي ، برحابته كلها ، وتنوعه كله ، والاتجاهات المختلفة التي تتجلى منه ، نرى أنه يتضمن في آن صياغة **الانتاجية الكاملة** Productivisme Intégral ( التخطيط ، البرمجة ، استراتيجية النمو ) والنقد الجذري **للايديولوجية الانتاجية** Idéologie Productiviste . وهي كذلك تتضمن في آن ايديولوجية اشتراكية الدولة والنقد الجذري لكل دولة ، لكل ايديولوجية للدولة ، وبينها الدولة الاشتراكية • اننا مدينون للماركسية بفكرة السياسة المطلقة ورفض السياسة المطلقة في آن ، ألا وهي فكرة الثورة التي تنهي الدولة السياسية ، اذن السياسة نفسها • مرة ثانية ، كيف يمكن المنهج الذي يحلل التناقضات ، أن يضع نفسه خارج الاوضاع التي تنبثق منها هذه التناقضات ؟ قد يقال ان ذلك يعني أن هذا المنهج والمفاهيم ( المقولات ) التي يستخدمها هي غير ذي فعالية مخبرية Opératoires . طبعا • ان المفاهيم الفاعلة مخبريا لا تستخدم الا في داخل الاطر الاجتماعية والسياسية التي يقبلها « المنفذ المخبري » • انها مفاهيم تكتيكية • وهي تهدف في العلوم التي تسمى « اجتماعية » أو « انسانية » الى استعمال الناس • ان المناهج والمفاهيم الماركسية تقف على المستوى الشامل ، انها تعيد النظر أبدا في الكل الذي تشارك في تكوينه • انها **استراتيجية** وليست استعمالية Manipulatoires .

## الاختلاف بين النمو والتنمية

لم يستطع الماركسيون بمختلف اتجاهاتهم أن يوضحوا بشكل كامل بعض العلاقات والمفاهيم الاساسية • هناك ، في نظر ماركس ، **القاعدة** ( القوى المنتجة ) ، **والبنى الاجتماعية - الاقتصادية** ( علاقات الانتاج والملكية ) ، والبنى الفوقية ( المؤسسات والايديولوجيات ) • هل تشكل هذه المستويات الثلاثة مجموعة متلاحمة ؟ ان كل الجواب بالايجاب ، فأين مكان التناقضات الرئيسية ، وأين مكان التناقضات الثانوية ؟ ألا تتوصل مبادىء التنظيم الذاتي Autorégulation ، وبينها المنطق والقانون ، الى التقليل من الصراعات ، واعادة اللحمة ، والحيلولة دون التصدع ؟ أين ، من جهة ثانية ، نحدد مكان المعرفة وأدواتها ، وبخاصة المنطق ؟ في البنى الفوقية ؟ في القاعدة ؟ في البنى ؟ ما من جواب يرضي المحلل • لكن ، بالمقابل ، اذا قيل ان المجموع غير متلاحم ، فكيف يستمر كما هو ؟ كيف يبقى ؟ كيف يمكن أن ينمو ؟ لا ريب أن الاجابة هي أن هذه العلاقات تتبدل في **الممارسة** ذاتها ، تارة بطريقة متلاحمة ومتدرجة نسبيا ، وتارة بطريقة غير متلاحمة • ولكي نتيح للمفاهيم أن تفهم الممارسة ، لا بد من أن ندخل فكرة **التفاوت** Inégalité المهمة ( التفاوت بين النمو والتنمية )• وقد أوضح لينين أن المستويات المختلفة (القاعدة ، البنية، البنية الفوقية ) لا تتبدل في آن واحد ولا بالطريقة ذاتها • ان البحث عن التلاحم ، ذكيا كان أو غبيا ، لا يفضي دائما الى تلاحم حقيقي • فالتناقضات لا تفعل ولا تحل في آن واحد ، على جميع المستويات • ان **الحركة** ، وبخاصة في **لحظة** ثورية ، تتسارع في هذا المستوى أو ذاك • ويمكن أن تقفز **البنى الفوقية** قفزة الى الامام ، ولو كانت تتباطأ ، وتتبعها القاعدة والبنى ، لتباطؤها هي كذلك ، بشكل سيء • من هنا الصراعات الجديدة والتناقضات المختلفة • يمكن، على العكس ، أن يحدث تقدم اقتصادي في هذه المرحلة أو تلك ، وتزايد في القوى المنتجة ، في حين تجمد **البنى** ( العلاقات الاجتماعية المنظمة أو غير المنظمة ) **والبنى الفوقية** ( الافكار والايديولوجيات ، المؤسسات والمنظمات ) وتتعفن •

كانت الحالة الاولى ، حالة القفزة الى الامام التي تحققها **البنية الفوقية** ، هي التي عرفها الاتحاد السوفياتي بعد ثورة أوكتوبر بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، مرحلة الغليان والابداع المتوهج في جميع الميادين ، لكن سرعان ما تبعها انتكاس ( موهته انتاجية المخطط الستاليني ) •

ان التحليل الجدلي ، أي النقدي العلمي في آن ، يدخل هنا فكرة **الاختلاف الجوهري بين النمو** Croissance **والتنمية** Développement •
ولم يجهل ماركس ولا لينين هذا الاختلاف الذي أهمل بعدهما • فقد ميز الاول ، بعد هيغل ، تمييزا قويا بين الكمي والكيفي ، بين النمو المتدرج والقفز ( خلال

مرحلة حرجة ولحظة سلبية ) • وأوضح الثاني تفاوت التطور ، **أي امكانية نمو دون تنمية ، وتنمية دون نمو** • ولا يجوز لاي ماركسي أن يقبل فرضية الارتباط Liaison «الميكانيكي» أو « الاوتوماتيكي » بين هذه المظاهر في عملية تطور شاملة • غير أن معظمهم يقبلها ويثبتها بلا مناقشة • بل ان التمييز استخدم هنا وهناك دون رجوع الى الماركسية ، لكن دون التصريح بذلك ودون أن تستخرج منه النتائج القصوى • على العكس • ففي الايديولوجية المعاصرة ، الماركسية أو اللاماركسية ، **مزج بين التنمية والنمو** • النمو ، بحسب هذه الايديولوجية ( المتميزة عن الانتاجية لكن غير المنفصلة ) يؤكد التنمية ، بل انه يسمى تنمية ! هذا المزج الذي لحق المفهومين محا الفرق بينهما • لكن ، أليست التجربة الرئيسية أو بالاحرى التجربة الحاسمة في هذا النصف القرن الاخير ، انما هي **النمو الهائل** ( يمكن أن يحسب بأطنان الفولاذ ، والاسمنت ، والقمح ) في بلدان عديدة، اشتراكية أو رأسمالية ، والتضاد ان لم نقل التناقض بين هذا النمو والجمود ، وحتى ازدياد الفقر وأزمة العلاقات الاجتماعية ، أي **انعدام التنمية** ؟ ان وضع الاتحاد السوفياتي بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ انقلب رأسا على عقب • ان التنمية بلا نمو ، الذي تسيء « القاعدة » اللحاق به ، ينقلب الى نمو بلا تنمية وقد يخنقه •التنميات التي تسبق النمو ، والتي أسيء اللحاق بها هي : الثورة الكوبية ، الثورة الثقافية في الصين ، غليان ١٩٦٨ في فرنسا • أما النمو بلا تنمية ،وتأخر التنمية الذي تؤكده وتعقده أزمة خاصة تختلف عن غيرها فهو في : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، وأسبانيا كذلك ، واليابان ، الخ •



## نفي اولوية الاقتصادي والكمي

هل المسألة أن ننفي أهمية الاقتصاد ؟ قطعا ، لا • المسألة هي أن ننفي أولوية الاقتصادي والكمي موضحين أن هذا الهرب الى الامام هو في رمقه الاخير • كانت الرأسمالية تعطي أولوية مطلقة للاقتصاد السياسي رفضها ماركس باسم فكر **نقدي** ( في الاقتصاد السياسي : العنوان الصغير المشهور لكتاب رأس المال ) **وعلمي** • ان أولوية الاقتصادي في مجتمع تسيطر عليه وتديره البورجوازية ، تثبتها هذه الطبقة بعمل سياسي ( حكومي ) دائم ، قمعي وضغطي ، أي بأولية السياسي ، التي هي في آن وهمية ( ايديولوجية ) وواقعية ( فعالة ) ، مقنعة بذلك ومموهة عمليات الاستغلال الاقتصادية • هذا المظهر **المزدوج : الاولوية الواقعية للاقتصادي والأولية الوهمية لكن الفعالة للسياسي** ، يكون بنية اجتماعية مكرسة للفشل • وبمقدار ما تبنت الاشتراكية هذه البنية ( هذا النموذج ) وأنكرت الاختلاف ، تجد أنها هي كذلك صائرة الى الفشل • بم يقوم هذا الفشل ؟ بانحلال العلاقات الاجتماعية الاساسية •

ان الهدف الاول لهذا البيان هو انهاء ( وهذا واضح ، على الصعيد

النظري ) **اللا اختلاف** الرهيب بين النمو والتنمية · لنميز المفهومين ومتضمناتهما ، دون أن نفصل بينهما · النمو ، الذي يمكن أن يحسب ، يتهيأ و « يقرر » بين ذوي العلاقة · تمكن رؤيته مسبقا وفقا لتخطيطات متشابهة أو متجانسة · النمو ، بتعبير اخر ، يتبع **نموذجا** · ونماذج النمو عامة ، ممكنة التطبيق ، اذن قسرية · فهذا الذي يفرض انما هو في الواقع « نماذج » ، وهي تزعم أنها محرضة · انها اذن وسائل وأدوات سياسية · وهي حين لا تتمتع بهذه « المزايا » لا تكون نماذج ، بل تصبح نوعا من الاثارة ، أو النصائح والتجريدات والصور · ويزعم بعض الاختصاصيين أن ثمة نماذج كثيرة للنمو ، بل نماذج آخذة أكثر فأكثر بالازدياد والتنوع · هل نقدر في هذه الحالة أن نستمر في الكلام على « نماذج » ؟

التنمية ، بمعناها الصحيح ، تتضمن اثراء ، وتعقيدا غير مبسط Complexification non réduite للعلاقات الاجتماعية · انه **نوعي** Qualitatif ( ولا يقدر أن يكون الانوعيا ) · انه يفترض **ابداع** أشكال للحياة الاجتماعية ، « وقيم » ، وأفكار ، وطرق حياة ، وأساليب · انه بكلمة ، يفترض ابداع اختلافات Différences ·

لا ريب أنه ينبغي زيادة الانتاج لتغذية بضع مئات من ملايين من الجائعين، معزولين عن الثراء المقدر كميا Quantifié · غير أن « الانسان لا يحيا بالخبز وحده » · فمن يقول « ثورة » يقول « ابداع » كذلك · ان صمت الثورة هو وحده الذي سمح باحلال **بنى** جوفاء ، **وأشكال** جامدة ، **ومهمات** كريهة ، محل **الطاقة** الخلاقة · ولطالما أسندت ، مع هيغل ، مع ماركس ، هذه الطاقة للتاريخ ، التاريخ المتكون على غرار الطبيعة ( طاقة مولدة تبلغ حد الاسراف ) أو الفن ( استكشاف ، جنوني أحيانا ، للمستقبل والممكن ) · كان التاريخ ، القدرة الغامضة المرتبطة مع ذلك بالطبيعة الاصلية ، يرمي في الوجود مجتمعات متنوعة ، كما ترمي الحياة أجناسا ينقرض كثير منها ، ويصل بعضها الى تطوره الكامل · ان اسناد هذه الطاقة الخلاقة الى التاريخ ، أعمى أو بصيرا ، لم يعد يرضي الفكر · فحين وجدت هذه الطاقة الخلاقة **طريقها** Voie ، بعد أن اتضحت نظريا ، أفلم يكن ذلك عائدا الى **التطبيق** Praxis **الواعي وعيا** كاملا ؟ حين زالت العوائق التي تسد هذه الطريق ، أو حطمت ، أو تجنبت ؟

ان الابتكار في الميادين المختلفة Différents ( أعني تختلف عن المعرفة النظرية وتختلف فيما بينها : الفن ، الشعر ، اللعب ، الحب ، الخ ) يفترض المخرج الذي يمكن أن تخرج منه النشاطات العملية ، محتويات التنمية وأشكالها·

## الطريق والنموذج

### الطريق يتعارض مع النموذج La voie s'oppose au modèle

تعارضا شديدا • ليس ثمة **نموذج** ( أو انتهى النموذج ، السوفياتي أو غيره ) ، ولا طرق خاصة ( في فرنسا ، ايطاليا ، الخ ) **تنحو منحى** هذا النموذج ، من أجل تحقيقه • ليس ثمة بالاحرى نموذج تشيكي ، أو فرنسي ، أو ايطالي • الطريق نوعي ، **مختلف** ، لذلك يتميز ، وينبني في ابداع دائم ويومي • انه ينوضح ( ينظم ويرتب ) في شكل ، ونظرية ، ومفاهيم ، بوساطة بحث لا يتوقف • لنضع حدا للتردد الذي يسيطر علينا ازاء النماذج التي فشلت ، دون أن نجرؤ على سلوك الطريق • النموذج ، حين ينهض على الطريق ، يسدها • فهو يقسر بالارهاب ، بالقوة • يولد العبودية والرتابة ، وبعدهما التعفن المميت ( حتى حين تكون هذه الخدمة المأتمية منظمة تنظيما جيدا ، « بشكل أسرع وأفضل » ) • لقد فتح ماركس ولينين الطريق ، ورسماها ، ودلا عليها • لم يتحدثا الا عن الطريق • لقد جاء النموذج ، هاجس الاجهزة السياسية المختصة ووهمها ، بعد ماركس ، وبعد لينين • انه ليس مفهوما « ماركسيا » • هكذا تقطع أوصال الماركسية ، ويقضى على الديالكتيك • النموذج يفرض نموا محددا ، وفقا لمستلزمات السلطة واستراتيجيتها • وهو **واحد** بالنسبة الى الجميع • انه يفرض التطابق أو التشبه • يستعمل Manipule الناس ويمكن من ارهابهم • الطريق لا يفرض ، بل يعرض • الطرق تتباين ، فالطريق هو الاختلاف •

هل ينبغي اذن **تحطيم النمو** بمختلف الوسائل ؟ هذه الفكرة التي يمكن أن توصف بأنها يسروية متطرفة Ultra - gauchiste **لا تفرض نفسها** • انها مستمدة من ايديولوجية خاطئة ومن تصور بدائي : « الكل أو لا شيء » ، « السريع والجميع » ، القطع المطلق • هل نضع حدا ، ذات صباح ، بأمر أو بعمل فظ ، للاقتصاد السياسي ؟ لم يعد لهذا المشروع أي تقارب مع الفكر الماركسي ، مع المنهجية والنقد الجدليين للاقتصاد السياسي • هل **نقيد النمو ؟** نعم ، لكن بدراية ، ذلك أن هذا التقييد لا يتم دون مشكلات • هل يمكن **تعيين وتقييد الحاجات ؟** للحاجات الفردية حدود ، مع ذلك تنبثق **حاجات اجتماعية** جديدة ، الى جانب حاجات فردية وحاجات اجتماعية معروفة سابقا • ان « اشتراكية الفقر » لا تلائم الا بعض البلدان • ألا نخاطر ، حين نحدد النمو أو الحاجات استنادا الى مقاييس احتياطية ، باعادة الحياة الى أشياء نادرة ماتت ، أو بتأسيس أشياء نادرة جديدة ؟ الوفرة وحدها تمكن من وضع حد للسوق ، لقانون القيمة • ويعلمنا ماركس الذي اكتشف هذا « القانون » ، بكل اتساعه ، كيف يمكن أن يتلاشى ويموت • تصبح المشكلة ، اذن : تحديد النمو بتوجيهه على نحو مختلف ( بطريقة متغايرة ) بحسب البلدان والقطاعات ، استجابة لمتطلبات هي نفسها متنوعة : حاجات اجتماعية جديدة ( حاجات تنظيم المدن مثلا ) ، الاتمتة Automatisation التدريجية ، تحديد فترة العمل ، الخ • ماذا سيتضمن مثل هذا التوجيه المغاير ؟ تدابير كثيرة فيما يتعلق بالملكية الخاصة وعالم السلعة والكمية • نكتشف هنا الاهداف التقليدية للاشتراكية ، لكن بتوجيه ومعنى مغايرين •

الفكرة المركزية : **احلال التنمية ( الاجتماعية ) محل النمو (الاقتصادي)**٠ وهذا ما يتطلب انتباها نظريا ، وتيقظا بلا هون ٠ ان تشجيع التفجر الخلاق والهدام ، على صعيد البنى الفوقية ، لا يعني أن الفكر النقدي يتراخى ٠ على العكس ٠ ان الوقوف ضد الستراتيجيات التقليلية Réductrices ، وبخاصة تلك التي ترد العلاقات الاجتماعية الى ما يمكن حسابه ( يمكن تعداده ) لا يعني الثقة بأي رأي ٠ على العكس ٠ أما فيما يتعلق بوضع حدود لعالم السلعة والمال ، مع منع الثروة من الوصول الى السلطة ( وبالعكس ) ، فلا يمكن اخفاء صعوبات مشروع كهذا ٠ لا فكر دون طوباوية ٠ لكن لا سذاجة ٠ ان الاهداف التقليدية تستعيد المعنى حين تتوقف التخطيطات الرتيبة والنماذج الموحدة عن سد الطريق ٠

## حق الاختلاف

بين الدراسات المفاجئة التي كتبها ماركس في شبابه دراسة بعنوان : المسألة اليهودية ٠ تتضمن هذه الدراسة تصريحات صاعقة تحدد في آن الثورة الشاملة والطريق الثوري ٠ ان ماركس ينقد فكرة ثورة سياسية وحسب ، ويرفضها ، وهو يسجل حدود الثورة الفرنسية ، ويعزوها الى واقع أنها كانت سياسية وحسب ٠ ان الثورة البورجوازية الديموقراطية ، بتعبير اخر ، تحقق ، في رأي ماركس ، ديموقراطية متقدمة ، لكنها محدودة لانها ديموقراطية سياسية ٠ من هنا حدود اعلان حقوق الانسان والمواطن ٠ فالانعتاق السياسي ، في رأي ماركس ، تقليلي ٠ انه من جهة يقلص « الانسان » الى عضو في المجتمع المدني ، الى فرد ، الى أنانية ترتكز على الملكية الخاصة : ويقلصه ، من جهة ثانية ، الى مواطن ، الى شخص أخلاقي ، الى عضو في متحد وهمي ٠ هكذا يكون ، اذن ، من ناحية ، الوجود المحسوس ، المباشر ، « الخاص » ، ومن ناحية ثانية ، « الجمهور » ، الانسان المجرد المصطنع ،الشخص الرمزي ٠ « حين يستعيد الانسان الواقعي الفردي المواطن التجريدي ٠٠ ، حين يتعرف الانسان على قواه الخاصة وينظمها في قوى اجتماعية ، فلا يعود ، اذن ، يفصل عن ذاته القوة الاجتماعية في شكل القوة السياسية ، حينذاك وحسب يكتمل الانعتاق الانساني » لا مجال اذن ، في رأي ماركس ، لرفض اعلان حقوق الانسان والمواطن، وانما يهدف الى أن يكمله ، ويجعله ملموسا ، في مستوى العلاقات الاجتماعية ٠ وهذا ما اكتمل عمليا وسيستمر في أيامنا ، فان حقوق العمل والعامل ، المرأة والولد ، المراهقين والمسنين ، أدخلت أوضاعا ملموسة في الحقوق التجريدية « للانسان » و « المواطن » ٠ وهكذا الامر فيما يتعلق بحق العمل والتربية والتعليم والعطلة والصحة والمسكن ، الخ ٠ أليس الجانب الامتن في المجتمع البورجوازي ، الجانب الذي يمكنه من الاستمرار ، هو النظام التعاقدي الذي يقتضيه ؟ ان التعاقدات الكثيرة تشترط حقوق الافراد

والجماعات • لقد أظهر هذا النظام شيئا من المرونة • يمكنه أن يتطور ، ضمن بعض الحدود • هل يمكن أن تنتهي لائحة الحقوق المضمونة ؟ كلا • اقترح مؤخرا أن يضاف اليها « حق المدينة » Le droit à la ville أي حق الحياة المدنية ، الحياة المتحضرة الوحيدة • هل يمكن اقتراح **حق الاختلاف** Le droit à la différence ؟ نعم • هذا الحق سيتضمن حق الحياة الخاصة ، الذي استدركته النصوص ( الاعلان العالمي لحقوق الانسان ) وبقي هو نفسه تجريدا • ان « حق الاختلاف » لا يحتاج ، بمعنى ما ، الى أن يكون مشترطا ، ذلك لانه يؤسس الحقوق الملموسة الاخرى ، ولانه مصدرها • ان كان هناك حق للولد أو المرأة فلان الولد والمرأة يختلفان عن « الانسان » العام ، ولان كلا منهما يختلف عن الاخر • وليس الافراد هم وحدهم الذين يتمتعون بحقوق لانهم يختلفون ، بل الشعوب كذلك ! أن نجعل حق الاختلاف عمليا ، يعني أننا نكمل الحق **المكتوب** ونتجاوزه ، الحق الذي يحتاج الى شرط لكي يعترف به لانه لم يدخل « في العادات » ، أي في الممارسة الاجتماعية • يمكن حق الاختلاف أن يعلن عن نفسه ، ومن الصعب عليه أن يكتسب وجودا شكليا وحقوقيا • لا يقدر أن يترسخ بشكل كامل الا فيما وراء المكتوب والمأمور ، في عادة معترف بهـا كأساس للعلاقات الاجتماعيـة • ان مجموع الحقوق الملموسة ، المكتسبة خلال أكثر من قرن ، لا يمكن أن تنسي الصفة التجريدية لهذه الحقوق من حيث هي حقوق ، الصفة التي تطيل أمد التجريد الاولي ، « الانسان » ، حتى في انكارها اياه • فلكي تدخل دون تقييد ( ودون معركة في كل مناسبة ) في الممارسة الاجتماعية ، لا بد من أن تبطل الملكية الخاصة أن تكون أساسا لمبدأ الحق ومصدره • وهذا يتضمن تغييرا ثوريا للمجتمع •

وكيفما كان الامر ، فان أساس الفكر الذي يبني شكليا ( حقوقيـا ، تعاقديا ) العلاقات الاجتماعية لم يعد ، منذ مدة طويلة قائما في « الانسان » العام • ومنذ مدة طويلة لم تعد ثمة أهمية للجوهر الانتروبولوجي ، للمطابقة أو المشابهة مع هذا الكائن المجرد ، قبل أن يدرك ذلك الفلاسفة والحقوقيـون والسياسيون • وهكذا يصبح المجتمع « اجتماعيا » •

وتزداد دهشتنا حين نتابع قراءة ماركس في **المسألة اليهودية** • ففي رأي ماركس أن تنظيما للمجتمع يلغي السوق ، ولا يكتفي بتغيير المؤسسة السياسية للدولة ، وانما يغير الاقتصاد ، سيجعل اليهودي مستحيلا • « ان وعيه الديني سيتلاشى كبخار تافه في هواء المجتمع ، المحيي • » ما هو قـوام انعتـاق اليهود بمعناه الاقصى ؟ انه في انعتاق الانسانية من اليهودية • « اليهودية باقية الى جانب المسيحية لا كنقد ديني للمسيحية وحسب ، وانما كذلك لان الفكر العملي اليهودي مستمر هو نفسه في المجتمع المسيحي • » ان المسيحية ، التي هي نوع اخر من اليهودية ، تذوب في اليهودية ( أي في فكر السلعة وعالمها ) ثم تذوب اليهودية في المجتمع المغير ، حيث لا يعود المال موجودا ، وتزول المبادلات التجارية والسوق والسلع • حيث لا يعود ثمة غير العمال •

## الماركسية الخاصة

ان صيغ ماركس الاكثر صدما تتضمن صراعات عميقة وأحيانا تفسرها • لم يتوقف أبدا عن الكفاح ضد هيغل والهيغلية ، أي ضد الدولة وسلطة الدولة ، ضد فلسفة الدولة ، في نفسه وحوله ، كذلك لم يتوقف عن مكافحة الدين ، في نفسه وحوله ، وجميع أنواع التزمت سواء في الايديولوجيات والامم والطبقات ذات الافق المحدود • كيف تصور المجتمع الجديد ، الثورة الجذرية ؟ بطاقة على التمثل يغيب هذه الحدود • هكذا يتوحد ، عنده ، الانعتاق **بالاندماج الاجتماعي** Intégration sociale بمعناه الاقوى • يصبح المجتمع مؤتلفا Homogène لانه يتأسس على العمل ، على العمال و « المنتجين » كطبقة • وهو يأخذ بشدة على السياسة قوتها **التقليلية** Réductrice • يمكن أن نتساءل اذا كان لم يكن في فكره اتجاه اخر تقليلي ، يعطي امتيازا للانتاج بمعنى ضيق ، انتاج الملك والاشياء ، لا انتاج العلاقات الاجتماعية ( وهذا رغم نقده للاقتصاد السياسي ) • لا ريب أننا نستطيع أن نعارض النصوص « المؤالفة » Homogénéisants ، بنصوص أخرى كثيرة تفرض الحريات من أجل الافراد والجماعات • هذا سيقود الى أن نكشف في الفكر الماركسي ، بين تناقضات أخرى صريحة أو ضمنية ، صراعا بين اتجاه **موحد** Identitaire ( مؤالف ) والفكر **الاختلافي** Différentialiste الناشيء • هذا التناقض الذي تجلى مرة عند ماركس سيظهر شيئا فشيئا في كل مكان •

ثمة توكيد على الصفة الواحدية Monolithique للفكر الماركسي — اللينيني ، بحيث لا توجد الا ماركسية واحدة يتمكن ممثلوها الرسميون من أن يدعوا حق تحديد أورتولوجيا Orthologie ، اذا صحت التسمية : أكثر من أورثوذكسية ، طريقة تفكير لا يوجد خارجها الا الفساد • هكذا يتحول الفكر النقدي الى أداة سياسية ، تخدم ارادة القوة • لكن الاوان قد فات • فمع الواحدية تنهار المركزية Centralité المطلقة • فالتعددية المركزية Polycentrisme تصبح أمرا واقعا وتنال حقها • وقد تم الاعتراف بها • ان مراكز كثيرة للفكر والعمل تنبثق وتغيب وتولد من جديد • هكذا تنشأ من جديد حركة ديالكتيكية ، رغم أن الضغط يزداد باستمرار • **وفي النهاية سيكون لكل بلد ، لكل « ثقافة » ماركسيتها الخاصة ، بشكل موقت أو بشكل دائم •**

## سديم العالم الحديث

هل العالم الحديث يغرق في سديم دموي ؟ يمكن الاعتقاد بذلك حين

نلاحظ المجابهات والصراعات والحروب القائمة أو المحتملة • ان النظام الجديد الذي ولده التطبيق الصناعي لم يفرض نفسه كنظام اجتماعي ، بل كنظام أخلاقي وسياسي • وقد ولدت المعرفة المستقصية ، المختصة جهلا معمما • ان التعايش بين الابادة الجماعية والامن الذي يصبح وسواسا ، بين الفتك بالطبيعة الارضية واستكشاف الفضاءات الفارغة ، يحير أكثر مما يتيــح استشفاف التناغم • التقدم ؟ منذ وقت طويل لم يعد يتميز بوضوح ودقة عن التأخر• والتاريخ يصمت ، فلم يعد له من معنى • **والطبقات** لا تتصارع وانما تتصارع الشعوب والاوطان والقبائل والاقليات القومية والاديان •

يتضح معنى هذا السديم حين نميز ، وسط الصراعات والمجابهات ، المعركة الهائلة بين **السلطات المؤالفة والطاقات الاختلافية** • هذه السلطات المؤالفة تملك وسائل ضخمة ، يصفها هذا البيان باختصار شديد : نماذج ، أجهزة ، مركزيات ايديولوجيات ( الانتاجية ، النمو غير المحدود ) • وتعرف هذه السلطات ، هادمة الخصوصيات وبالتالي الاختلافات الممكنة ، أن تستخدم كذلك الصناعة والعلم ونوعا من العقلانية ( محدودا ) •

أما القوى الاختلافية ، فهي غالبا في جبهة الدفاع • انها تقاوم ، وتعبر عن استمرارها في حالة الكمون ، باصرارها الذي لا يقهر • وهكذا لا يمكن تقليص مآسي العالم في كميات ، وللشعر عالم لا يمكن تهديمه • ان العفوية لا تنعدم الا بتدمير ذاتي ، فلا تمحي « الرسوبيات » Résiduels ، وان طوردت وأرهقت • وقد تنتقل القوى الاختلاقية الى مواقع الهجوم • إن التعددية المركزية التي تفرض نفسها عمليا من الجهة « الاشتراكية » انتصار عظيم ، حتى لو كان الصراع الصيني ــ السوفياتي مشحونا بالمخاطر ، وحتى لو أنكر التعددية كل من الطرفين المتخاصمين المغرقين في مذهبيتهما • أما فيما يتعلق بالخصوصيات القومية ، الاقليمية ، المحلية ، فانها عصية على التهديم حتى وان سقط جانب مهم منها في الفولكلور • ان للاعقلانية الظاهرة أسبابها التي يجهلها العقل ، وهي تقاوم العقلانية القمعية ــ القسرية ، واستراتيجيات المؤالفة المرتكزة الى الزامات الصناعة والتنظيم والنمو • ألن يكون الفن ، الثائر الخاضع ، المحتضر المنبعث ، أحد أشكال المقاومة الاكثر فاعلية ؟

في هذا الضوء يكشف القلق الكبير الذي يسيطر على العالم الحديث عن اتجاه • ثمة علاقة ، خفية في أغلب الاحيان ( غير جلية ) بين **الكفاح من أجل الاختلاف** ، وجميع الكفاحات والمآسي والالام والمعارك • وهذا المنظور ليس فيما

بين الدول Inter - Nationale وحسب وانما هو **عالمي** ٠

من التآلفية المهدّدة التي تستخدم سياسيا أدوات سياسية ، والتي تنمي استراتيجياتها باستخدام السياسة المطلقة ( تعطي صفة الاطلاق من قبل الدول ، الاجهزة ، المحترفين وايديولوجياتهم ) ينمو نقد مزدوج : **نقد يميني** ، ماضوي ، أبابي ( حنيني ) Nostalgique ، **ونقـــد يساري** متمسك بجميـــع عناصر التمرد والثورة ٠

**لماذا الاختلاف ؟** لم يعد لهذا السؤال من معنى ٠ أنتم ، نحن ، كل منا ، في الاختلاف وفي المختلف ٠ ان من لا يريد ولا يستطيع أن يقلد من بعيـــد **نموذجا** عظيما ، أو يتحد به ، لا مخرج له الا أن يكون **آخر** ٠ انه الان آخر ٠

**هنري لوفيفر**

# كتب واتجاهات

هنري فريد صعب

## قراءة في :
## ماذا صنعت بالذهب ، ماذا فعلت بالوردة



قراء بعض الشعر المحدث في حيرة • ماذا طرأ على ذائقتهم ؟ لم هم عاجزون عن الفهم ؟ لم تفر الكلمات من شبكاتهم فلا يمكنهم تشريحها كما ألفوا ؟ ولم تفر الكلمات ؟ أليست وسيلة أو غاية ؟ ألا تستمد قيمتها من الاتفاق عليها بين الناطقين بها لتنقل التأثير من المؤثر الى المتلقي ؟ أليست ظاهرة اجتماعية ، « الفضل في نشوئها يرجع الى المجتمع نفسه والى الحياة الاجتماعية • اذ لولا اجتماع الافراد بعضهم مع بعض وحاجتهم الى التعاون والتفاهم وتبادل الافكار والتعبير عما يجول في الخواطر من معان ومدركات لما وجدت لغة ولا تعبير ارادي » ؟ (١)

ما يوجع الشعر المحدث ، أن قراءه لا يزالون يقيسونه بالتحديدات نفسها التي توارثوها • هو عندهم ضرب من ضروب التوصيل يحدث في المتلقي تجربة شبيهة تقريبا بتجربته • « لا وجود لعالم الشعر بأي معنى من المعاني يختلف عن بقية العالم • ولا قوانين خاصة به أو صفات متميزة من صفات العالم ، بل ان التجارب التي يتشكل منها هي من نمط التجارب نفسها التي نكتسبها بوسائل أخرى غير الشعر » (٢) كما زعم الناقد الانكليزي إيفور أرمسترونغ ريتشاردز الذي أعمل طابعه في نتاج النقد الحديث في انكلترا وأميركا • كان الشعر لم

يكفه اجحاف الاقدمين فجاءه المولدون يزيدون في طينه بلة ٠

## خزانات الادب

أحكام قاسرة عرفها الشعر منذ نشأته ، تركته على مجر عمره الطويل بلا هوية ، وعاش كالمهرجين تخططه الالوان التي تكثف تنكيره ٠ خنقته العلاقات مع الاخر ، هو الذي من طبعه التوحش والنفور من كل ارتباط ٠ وذنبه أنه أكثر احتفالا باللغة من سواه ٠ أي أعلق بالوظيفة الاجتماعية ٠ أي في المفهوم الماركسي يندرج في قائمة « وسائل الانتاج » ٠ اذ أن « انتاج الافكار والتصورات والوعي ــ كما كتب ماركس وانغلز ــ يمتزج بقوة ، بنشاط العلاقة المادية بين الناس ٠ انه لغة الحياة الحقيقية » (٣) ٠ ( وهذا ما يفسر جيدا انزواء الشعر العربي زمنا مديدا خلف بابي المديح والهجاء ــ رافدي التكسب ) ٠

ورد في « خزانة الأدب » : « الادب جملة المعارف التي تسمو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية ، وخاصة اللغة والشعر وما يتصل به وأخبار الجاهلية » (٤) ٠ هكذا نظر العرب الى الشعر ( ولعلهم من الشعوب الاكثرتزويرا لهويته وجهلا بماهيته ) فكان ديوانهم وسجل مآثرهم ومفاخرهم ووقائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وما الى ذلك من مسخ لكينونته ٠ ( وما الشعر الثوروي الذي نقرأه اليوم الا امتداد لديوان العرب التقليدي ، بكل ما في هذا الديوان من شد الى الوراء ٠ وأدونيس في مقابلة صحافية في « الاسبوع العربي » ندد بالشاعر العربي المعاصر الذي أحل الحركة الفدائية محل الخليفة والامير في الماضي وراح يصف أعمال الفدائيين ويغنيها ويمدحها ) ٠

ولم تكن خزانات الاداب الاخرى لتختلف كثيرا عن الخزانة العربية ٠ الا في بعض محاولات كانت تطلق الشعر من عقدته الاجتماعية ( وهذا ما يبرر سبقها على العرب ) فتكفر بعض الذنب ٠

## الكلاسيكية والرومنطيقية

كيف نظرت الكلاسيكية الغربية الى الشعر ؟ انه النثر ، ذو الخاصية الاجتماعية أساسا ، أضيفت اليه بعض الزخارف اللغوية ٠ فقولي : « النهر يسيل في الوادي » هو نثر ٠ فاذا قلت : « النهر يسيل في الوادي متلويا كالافعى » صار شعرا ٠ أي « لا فرق بين الشعر والنثر الا من حيث الكمية لا الماهية » ــ كما يرى رولون بارت ــ (٥) أو من حيث اضافة « الانفعال » في المثل الثاني ، الى « التقرير » في المثل الاول ، حسب مصطلح ١٠ أ٠ ريتشاردز ٠ ان لم ينعدم هذا الفرق في نماذج كثيرة ، فتنعدم معه الكمية والماهية جذوريا

ويغدو الشعر نثرا نظم في سلك الوزن ، كما المخزونات العربية : « على قدر أهل العزم تأتي العزائم ــ وتأتي على قدر الكرام المكارم » ٠

ان الكلاسيكية التي ملكت سعيدة في عصورها الذهبية ، لم تذهب الى أبعد من اشتقاقها : كلمة Classe ٠ وهذه ، همها سهولة الاتصال بين أفرادها لتبادل الاراء ونشرها وتوثيق الروابط بينهم ٠ « حد اللغة ــ عندها ــ أصوات تعبّر بها عن أغراضها » كما في التعريف القديم الجديد للغوي ابن جني (٦) ٠ لكن اللغة لا تؤدي مطلقا الى التعبير الصحيح عن حقيقة الاشياء ٠ وهذا ما تنبه له قديما أفلاطون في محاورته « اقراطيلوس » التي سخر فيها من الالفاظ سخرية شديدة (٧) ٠ وهيراقليطس قبله أظهر لنا كيف اللغة تؤدي الى جعل الاشيـاء كلها ثابتة ٠وهذاما أوجد هوة بين الكلمة وموضوعها ٠ اذ لا ثقل للكلمات في ذاتها يقابل الثقل الهائل للاشياء التي تدل عليها ٠

وأطلت الرومنتيكية فلم تنقذ الكلمة من استعمالها المسطح ٠ « لم تفعل غير تقديم أعمال أدبية للشعوب ، في استطاعتها احداث أكبر قدر ممكن من التلذذ » (٨) ٠ وكان على الشعر أن ينتظر حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ليبدأ الهدم في صرح اجتماعية اللغة ٠ وأعني مراهق باريس أرثور رامبو الذي أعاد الى اللغة جنونها البـدائي فتحللت مما علق بها من قيود دلاليـة Sémantiques في تطورها الزمني ٠ وشاركه مالارميه ، ( ولكن من بعيد ، اذ لم يبلغ جنون رامبو ) فبات « الهدم عنده كما بياتريس في حيـاة دانتي ، على حد اعترافه في احدى رسائله » (٩) ٠



## الهدم الأكمل

لكن الهدم الاكمل سيكون مشغلة القرن العشرين ٠ وتقنية الشاعر اليوم، تحريك الكلمات على البياض بقصد هدم دلالاتها الاجتماعية ٠ والكلمة صارت جسدا في النص بعدما كانت عضوا في جسده ٠ وتحول النص من مجموعـة أعضاء قزمة الى مجموعة أجساد ماردة تتجاذب كما الكواكب ٠ كل جسد مفاجأة ، يتطلع اليك برؤوس عدة ، وكل رأس يوهمك أنه هوية الجسد وليس الهوية ٠ كالسمكة الضخمة ذات المئة ــ رأس عند الهندوس : رأس لكلب ، واخر لقرد ، واخر لحصان ، واخر لنمر ، حتى المئة نوع ٠ كل واحد ليس السمكة ٠ كما السمكة ليست الجنيع ٠ لانها برؤوسها تمثل البرهمي كابيلا الذي عاقبته الكارما Karma بمسخه ٠ وكابيلا مفاجأة لان ذهنه مستودع للنصـوص المقدسة ٠

هكذا لغة الشعر المحدث ٠ من مفاجأة الى مفاجأة ٠ وكل مفاجأة لا تعني شيئا وتعني كل شيء ٠ وهي تقف وحدها كأنها قدت من أرض بلا ماض مباشر٠ التراث يغضب الكلمة الشعرية المحدثة ٠ يثير غثيانها ٠ يخنقها ٠ ولا أقصد

بذلك أنها مستقبلية • فالمستقبل انما هو الماضي الذي ينمو دون انقطاع • لذا ، اختارت الخط العمودي ، كي تفلت من تسلسل أفقية الزمن • ومن هنا كانت غرابتها المبنية على التمرد والرفض • لان كل تمرد أو رفض في الاساس ، هو انطلاق عمودي ، أي مخالف لافقية الحركة التقليدية •

وبرزت ، بالتالي ، ماهية لم تعهد • ماهية تفرق بين اللغة الشعرية والنثرية • وهي ضربة قاصمة في التراث الشعري ، لا تقل عن ضربة كوبرنيكوس في التراث الفلكي • اذ ألغت أكواما من القصائد كم استرخت في خدرها أجيال وأجيال •

ازاء هذا الكشف عظم شأن اللغة ، حتى أضحت في نظر البعض بطلة • تحرك الشاعر بدل أن يحركها • والبطولة كابوس • ان لم تسحقها سحقتك • لاتعرف المشاركة في الفعل • انها أبدا في استعلاء • بينما على الشاعر أن يقرب من اللغة كذبيحة • فالذبيحة شريكة الذابح في فعل الايمان ( لم يفطن الى ذلك غير قلة من الشعراء ) •

اللغة شريكة الخالق في خلقه • تستسلم له بقدر ما يستسلم لها • وهذا ما يفجر ذلك الدوار في بعض الشعر • لان في عملية الاستسلام المتبادلة هذه ، « يرفع العقل الحراسة عن الابواب » ، ككل حالة تصاحب استسلام جسدين عاشقين لبعضهما ، ويظهر « جنون عابر موقوت يعرفه كل خالق حقيقي • ويفرق طول أمده أو قصره بين الفنان المفكر والحالم » (١٠) •

أنسي الحاج شاعر يقاسم اللغة الهدم : « ما أبسط الشعر الناعس في المكن النائم في المستحيل » ( من قصيدته : ابني الحبيب ، ماذا صنعت بالذهب ••• ص ١١١ ) • خط سيره عمودي • الفاظه ، بعضها أجساد غنية بذاتها ( وهي قليلة ) • والبقية تغتصب غناها من علاقاتها وتراسلها في ما بينها : « اللفظة ، أيتها الامواج الغبار الطائرة الازهار الالوان أيتها الاشياء والعناصر يا أغصان النساء وغرف الحلم والاحداق رؤى الجلاتين أيتها الدمعة اركضوا الى المجزرة قرقعة عظمي نشيد يقظتكم اقطعوا الشاعر ونسله ! » ( من قصيدته : المهرج ، الرأس المقطوع ، ص ٧٥ ) • شعره مغامرة ، تظن غموضا • لان كل مغامرة ضرب في المجهول • لكنه غموض لا يتواقح • فان آنسته كاشفك بمشاهداته في أسفاره مع اللغة ، وتركك بين مصدق وغير مصدق أنه كاشفك بالحقيقة • وهذه ميزة الشعراء ذوي الخط العمودي • انهم مستودع النصوص المقدسة، كالبرهمي كابيلا •

والنقد اذ يتجسس أسرارهم لا يدعي فضحها • انه يسعى الى ايضاحها ، لكنه « لا يستطيع أن يدعي « ترجمة » الاثر ، وخاصة بصورة أوضح • لان لا اكثر وضوحا من الاثر ذاته • ما يستطيعه ، هو أن « يولد » معنى ما يشتقه من شكل ما هو الاثر • انه يجزىء المعاني ، فيعوم لغة ثانية فوق لغة الاثر الاولى • جزاء النقد ليس المعنى في الاثر ، بل المعنى الذي يراه فيه » (١١) •

## الكلمات - المفاتيح

ولعل خير ما يسعفنافي قراءة الشعر المحدث ، طريقة فيلولوجية ، تسمى « طريقة تسلسل الكلمات » • وهي تقوم باستخراج الكلمات ــ المفاتيح من القصيدة،وتشريحها • ثم اضاءة محيطها : الكلمات الاخرى التي تعايشها • الصور التي ترتبط بها • وحركة الفكرة التي تنبثق منها •.

لكن هذه الطريقة مرات ، تقف شبه عاجزة أمام بعض القصائد العمودية التي تنبذ ــ على حسب وصية بريتون ــ كل ما يتجه نحو « ترتيب القصيدة » • انها امام قصيدة منفتحة • كلماتها هاربة • صورها هاربة • كما في بعض شعر أنسي الحاج •.

المجموعة الجديدة « ماذا صنعت بالذهب ••• » تقسم قسمين : الاول عنوانه « أسير النهر » • والثاني « الكنار يطلق النار على نفسه » • فهل يمكننا أن نتخذ من هذين العنوانين مفتاحين أولين للمجموعة ؟

في شعر أنسي الحاج ،كثيرا ما نلتقي : النهر والمياه وما يرادفهما • نقرأ في « الرأس المقطوع » مثلا :

« ــ أنظر اليك •
نهر • نهر دون علمي • ( ص ٢٣ ) •
ــ أخذني النهر ولم يرني ( ص ٥٥ ) •
ــ ندخر السراب نغرق الجسور • نصنع ماء النهر الجديد (ص ١٤ ) •
ــ المياه تعلو لكن سترحل تتأبطني فوق المياه لان في حنيني جراحك فلتبق • ( ص ١٤ ) •
ــ متعددة ومضمونة كالضوء
جبانة كالطوفان ••• يأتي ولا يأتي ••• ( ص ٤٢ ) • » •
ونقرأ في« ماذا صنعت بالذهب ••• ) :
« ــ اتخذت الحب الشبيه ببر لا يحده ماء
الشبيه بمياه لا تحدها برية ( ص ١٨ ) •
ــ وثوبها العاري يهدد كل نهر بالفيضان والحريق ( ص ٧٧ ) •
ــ وشع صوتك / هوينا اليه كمياه / صرت المياه / صرت المطر ( ص ٩٢ ) •
ــ فهل أخنق حبيبتي بالحنان وحبيبتي صغيرة
وهل أجرفها كطوفان وأرميها ( ص ١٤ ) •
ــ ذلك النهار جاء الطوفان وجلس • لم تجد السفينة ماء يحملها • ولم تجد أيا منا لتحرمه الطوفان ! ( ص ٧٥ ) •
ــ وأنا وأنت والحب / حبا يعيد الى البلاد الله ••• / الذي يولد عند نهر عاصمتك الزرقاء ( ص ٨٨ ) • » •

واضح أن هذه الالفاظ : النهر ، المياه ، الطوفان ، المطر ، فقدت دلالاتها عند شاعرنا • ولكن ما تجب ملاحظته ، أن ولادتها الجديدة ليست لعبة تحريك الكلمات على البياض بقدر ما هي لعبة الذات العاشقة • فالشاعر عاشق دائم • ومجموعته الجديدة يصح أن نسميها « كتاب العشق » • ووجه الربط بين المياه والايروس عائد الى طبيعتهما • فالمياه ترمز الى الولادة والتغير : « لا نستحم في النهر ذاته مرتين » قال هيراقليطس • وبالتالي ترمز الى الموت • لان التغير يعني الموت الذي يبعث باستمرار • وترمز أيضا الى الطهارة ، والقابلية للتأثير ، والانوثة ، والقوة الضعيفة والمدمرة • وفي « تفسير الاحلام » لفرويد نجد أحلام المياه تؤول بالحبل ، لاعتبارها رمزا الى الاخصاب (١٢) •

أما الايروس فطابعه الهوى العنيف الاناني الذي يهدم ذاته • الحب فيه مرتبط بالموت : « أوليس كل ما يثير فينا النشوة والوجد مصبوغـــا بصبغـة « الليل » ؟ » قال نوفالس (١٣) • لذا نرى العشاق لا ينعمون بلذة الاستقرار ولا يعرفون عذوبة الامتلاك ، ولا يمكنهم أن يسعدوا باسعادهـــم غيرهم مـــن الناس • لان الايروس سورة دينامية لا تهدأ ، كما وصفها افلاطـون ، لا تكـاد تصل الى مرحلة حتى تعمل على تجاوزها والعلو عليها • فالتحول السريع والتهور والاندفاع والانفعال العنيف والتمركز الذاتي Egocentrisme ، هـــي أبرز العلامات التي تدمغ الايروس (١٤) • وفرويد في كتابه « الذات والغرائز » يعطينا مثلا حيا عن اتحاد الايروس والموت عند بعض الحيوانات الدنيا • « فهذه الكائنات تموت أثناء عملية الاتصال الجنسي لان غريزة الموت تجـــد الحرية الكاملة لتحقيق أغراضها بعد أن يتم طرد ايروس في عملية الاشباع » (١٥) • ثم ألم نسمع عن بني عذرة الاسطوريين ، وهم شعب مختار « يموت الفرد عندهم عندما يحب » •

اذا ، أوجه الشبه بين طبيعتي المياه والايروس كثيرة • وأنســي الحـاج جمعهما في صورة واحدة ، في قوله : « أعرفك ملاح الفروج » ( الرأس المقطوع ، ص ١٤ ) • وقبله جمعهما أبو يزيد البسطامي في احدى شطحاتـه : « خرجـت يوما الى البادية وكان « الحب » قد أمطر وابتلت الارض ، فكانت قدمي تغوص في « الحب » كماتغوص قدم الانسان في الطين » •

بتركيزنا على مفهوم الايروس ندخل معابر « ماذا صنعت بالذهب ••• » وتتضح لنا معظم الصور التي قد يخالها البعض عطاء شعريا مجانيا •

من صور الايروس المدمر نقرأ :

« ــ وما أحببتك الا بدمار القلب وضلال المنظر ( ص ١٦ ) •

ــ أيتها المرأة يا حبيبتي دمري دمري ( ص ٨٥ ) •

ــ لن أغادر الحب لن أغادر حربي ( ص ٥٩ ) •

ــ أما حزني فعظيم نعم • وتستحقين أن يضرم حبيبك النار في جسده وينتحر ( ص ٤٣ ) •

ــ أتركي ، فما من راحة تحت عهدك غير موتك ( ص ٤٧ ) •
ــ التفتي الى الجنون في حبي حتى الجنون
والى الموت في حبي حتى الموت ( ص ٣١ ) » •
وقبلها ، في مجموعة « ماضي الايام الاتية » :
« ــ أتدمر
وفيك أدمر كل امرأة ( ص ١٣ ) » •

هذا الاستغراق في الايروس أضفى على المجموعة مسحة صوفية تستبدل بالمرأة الله للوصول الى الله • وهو مذهب درج عليه العشاق لتمازج رموز الايروس بالرموز الصوفية • ويرى فرويد : « ان الحب كالدين يحتوي على عنصر غامض هو عنصر الحماسة الدائمة • ولذا يتحد عنصرا التصوف والشهوة في بعض الاحيان » ( ١٦ ) •

من الامثلة :

١ ــ أنا شعوب من العشاق
حنان لاجيال يقطر مني ( ص ١٤ ) •
٢ ــ وحين تمطر أنتظر مني المجيء فتجيئين ( ص ٦٥ ) •
٣ ــ قبلك مررت بين الكروم
لاتعنم قطفك ( ص ٥٢ ) •
٤ ــ ودمي سأتركه على الصخور
والشجر
وسواحل الشمس وكواحل الادغال •/•
فانظري الى دمي ولا تقولي : كم حزين هذا المنظر
بل قولي : كم هو حي حبيبي وحبه في الحجر
والشجر والبشر ( ص ٣٧ ــ ٣٨ ) •
٥ ــ أغار عليك لاني خطبتك جاهلا عددك ( ص ٨١ ) •
ــ ولمس الواحد للاخر لمس الواحد للكل ( ص ٦٥ ) •
ــ متعددة ومضمومة كالضوء ( الرأس المقطوع ، ص ٤٢ ) •
٦ ــ وتعطينني عيني
فلا أرى غيرك ( ص ٦٦ )
ــ أسرعي أسرعي الى المرآة • سوف ترين أنك متروكة في نظري ( ص ٣٢ ) •

ألا تذكرنا هذه الـ « أنا » في المثل الاول ، بشمولية الـ « أنا » عند جلال الدين الرومي :

ــ أنا ذلك المحب ، ان يكن في الدنيا محب ــ أيها المسلمون ــ •
ــ أنا الفردوس وعدن ، وما فيها من الحور العين •
ــ أنا سرقة اللصوص •••

والمثل الثاني ، أليس تجسيدا لحال الاتحاد بالمطلق عند جماعة الصوفية ، وتأكيدا لقول العاشق أحمد الغزالي الفارسي : « حينما يوجد العشق حقيقة ، يصبح العاشق قوتا لمعشوقه » ٠

والثالث ، أليس أشبه باحدى مراتب « المجاهدات » ٠

والرابع ، ألا يمثل لنا صورة حلولية مؤثرة ٠ بالاضافة الى تضمنه معنى طقسيا يحيي الطقوس الدموية التي ذاعت في المجتمعات البدائية ٠ فالمرأة في المجر مثلا ، كانت تشك خنصر يدها اليمنى بدبوس وتسقط قطرات الدماء النازفة في كأس نبيذ تقدمها لزوجها ، ليزداد حبه لها ٠ وفي فنلنده كانت الزوجة تخلط مثل هذه القطرات بالخبز واللحم اللذين يتناولهما الزوج ٠ وفي العصر الجاهلي، كما يخبرنا هيرودوتس ، اعتاد العرب سكب دمائهم على الاحجار التي كانوا يقدسونها ٠

والخامس ، أليس مع الصوفية في تعدد أشكال المعشوق :
ـ يتبدى الجمال الخاطف كل لحظة
في صورة مختلفة فيستهوي الارواح ويغيب ( جلال الدين الرومي ) ٠

بالاضافة الى تأويله الايروسي بلسان افلاطون في « المأدبة » ، الذي يرى أن ايروس يقود الشهوة من جسد جميل الى اخر ، وأخيرا الى جميع الاجساد ، لان الجمال الماثل في هذا الجسد أو ذاك هو أخو الجمال في أجساد أخرى ٠ ومنتهى الجنون ألا نعتبر الجمال في جميع الاجساد واحدا ذا هوية واحدة (١٧)٠ ونظير هذا ، كنا صادفناه في مجموعة الشاعر السابقة « ماضي الايام الاتية » :
ـ وبدأت أعثر على جسمك في النساء وعلى النساء فيك ( ص ١٧ ) ٠

والسادس ، أليس من معدن الرياضة الروحيـــة ، حيث العاشق ، وقد أسبغت عليه جميع الصفات الربانية ، يصبح كما يقولون ، المرآة التي يكشف فيها المعشوق عن نفسه لنفسه ٠

يقول ابن عربي :

وان تبـــدى حبيبـــي بـــأي عـــين أراه ؟
بعينــــه لا بعينـــي فليس غــير يــراه ٠

وهكذا ، عبر المرأة وصل الشاعر الى الله ، ( اقرأ قصائده : حزني عظيم نعم وفرح على الارض وحتى السعادة ) كشأن الايروسيين ٠ مما يجعله ، وهو المسيحي ، عاشقا ضد المسيحية ٠ للتبـاين الشاسع بـين طبيعتي الايروس والأغابيـــه Agapé ٠ اذ الاولى تتمركز حول الانسان وقد تتخذه برزخا الى الله ، بينما الثانية تتصل بالله مباشرة لتخلع حبه على الانسان ٠

وهذا الاستغراق في الأيروس حمله على الصراخ : ماذا صنعت بالذهب

ماذا فعلت بالوردة . لانه موزع بين نار الايروس الآكلة وطمأنينة الاغابيه واستقرارها وبراءتها التي يمد لها عبثا ندمه وليمة ليقبض عليها :

« — لم يؤذ ولم يأثم ...
كان ذا حنان جهنمي وبراءة وحشية ( ص ٢٧ ) .
— وكنت أظنك ستعرفين ان نفسي بيضاء برغم الشر ( ص ١٦ ) .
— وكنت أظن أني ألدغك فتتسع طمأنينتي وأنقضك كالجدار فتعلقين كالغبار بأطرافي ( ص ١٦ ) .
— جائعة أنت وندمي وليمة ( ص ١٩ ) .

لكنه في مكان اخر يقول :
— ولما أنت ، خلقت الله في سريرك . وولدت من جسدي على جسدك ( ص ٤٤ ) .

ترجح بين الايروس والاغابيه المقهورة ، أوجد الشاعر في كآبة عظيمة . وخاصة أن حضور الايروس وحده كآبة . وكانت دهشته للشعر . لذا ، حين ظن أنه بلغ المختار ، ذاك الذي أقبل من كفاح الاحلام ، أحس الشعر يَنْشَفُ على رخامة عينيه . لان ايروس بلغ رعشته الاخيرة في عملية الاشباع ، فمات وأخذ كآبته معه . وبقي الشاعر وجها لوجه مع السيد الوقت . فصاح : « ما عدت أحتمل الارض ، فالاكبر من الارض لا يحتملها » . بينما من قبل كان يقول : « أنت وأنا غدونا العالم . ليتكرر ، ليتكرر دائما هذا العالم ! » . ولبسه الغضب وراح يتنفش أمامنا ويتباهى بماضيه ، تماما ككل متعب كانت له أيام .



من قبل لم يكن يشعر بالوقت ، بالارض ، بالعالم . كان هو والمعشوق العالم . لان الايروسية هي عدم التوازن الذي يضع فيه الكائن ذاته موضع البحث . بمعنى أن الكائن يمحي موضوعيا ، وتتحد عندئذ الذات بالموضوع الذي يمحي . في الايروسية يمكنني القول : أنا أمحي (١٨) .

الشاعر لم يقو على استمرارية الامحاء . شاء أن يعلن وجوده . فأمر بطرح الجسد القديم في البحار طعاما للسمك وهتف : « لتسقط السدود وليحمل الانسان حيث يذهب مجد جسده وروحه . وليبدأ من جديد عهد الجنة الذي كان فجاة عطله عطل طارىء » .

ولكن ماذا صنع بالجسد ،ماذاصنع بالروح ؟ سؤالان لم يجب عنهما الشاعر . اكتفى كمالارميه بتصوير الاثر الذي يحدثه الشيء لا الشيء نفسه . وكانت هذه « التنفيسات » الايروسية الحادة التي تفضح فشله في حمل المجدين ، وتوقه العقيم الى الاغابيه المقهورة .

واذا أنعمنا النظر في دلالتي الذهب والوردة على غلاف المجموعة : القسوة المدهشة ، ضد عذوبة الليونة الزكية ، أمكننا التكهن بالحرب التي عاشها الشاعر . اذ ليس أدل على ايروس كالذهب . وعلى الاغابيه كالوردة .

الذهب مادة جحيمية • منذ القديم والاساطير تضع الكنوز في حراسة التنين وغيرها من مخلوقات الجحيم المخيفة • وكل من يطمع بها يعد مذنبا ، وعليه أن يخوض معارك دامية • وفي بابل ، كان الذهب يسمى براز الجحيم • وبعض الأقدمين ، كانوا يربطون بينه وبين الموت • فاذا قضي على أحدهم ألبسوا رأسه قناعا واكليلا ذهبيين •

ثم أصبح في اللغة المقدسة ، في الفن المسيحي ، رمزا الى الايمان والحب والحكمة الالهية • بينما عرف في اللغة الدنيوية ، فضلا عن قدسيته ، برمزه الى الحب الشرعي ، والى الزنى والحسد والغيرة والكراهية والانانية • وفي الدراسات الحديثة للاحلام يشار به الى الدم والسائل المنوي والحب والقلق والحزن والغضب •

أما الوردة فكانت دائما رمز الطهارة الروحية والجمال والانسجام الكامل • لا تتفتح الا حول المختارين • كانت ملك فينوس عند اليونانيين القدماء • ثم انتقلت الى السيدة العذراء • وغدت وردة الفردوس التي تزين ابواب الكاتدرائيات ، وقد تعلق بكل ورقة من ورقاتها جمع من القديسين • وهي صورة لم ينسها دانتي في « فردوسه » •

ووجدنا أن الفن المسيحي ، قبل انسي الحاج ، حاول الجمع بين الذهب والوردة • فصنع وردة ذهبية كان البابا يحملها في يده ، في أحد الاعياد ، من بداية القداس الى نهايته • لكن مصيبة شاعرنا ، أنه لم يأخذ من الذهب غير جحيميته • فكان لا بد للكنار فيه من أن يطلق النار على نفسه •



وبعد ، قد يظن أن الشاعر مولع بامرأة ، أو بالمرأة • والظاهر من شعره ، أنه ايروسي في الصميم • والمحب الايروسي مفتون بنفسه • حبه من أجل الحب وحده • والمحبوب ليس غير واسطة لاشعاله • ولذا ، نرى هذا المحبوب عند الايروسي متعددا ، لان الجمال يتجلى بأشكال متعددة •

لنقرأ قصيدته « أغار » ، حيث تتدفق الغيرة في صور متناقضة لا تعهد الا في ايروسية حادة •

أو قصيدته « حرف الهاء » حيث لم يعد يذكر من الابجدية غير حرف الهاء لانه في اسم حبيبته • وهذا ما يسميه فرويد « التعشق الخيالي » • وهو أن يشعر العاشق باللذة والنشوة لرؤية أو تذكر أشياء تتعلق بالمحبوب ، فيستعيضها أحيانا لاحياء شعلة الحب •

*

المجموعة الجديدة تكملة لمسيرة الحاج الشعرية • ولكن بشيء من الشفافية العذبة • النبرة فيها ، في أماكن ، تذكر بنبرة نشيد الانشاد ( القصيدة الاولى خاصة ) والانجيل ، مطعمة بنبرة الشاعر الخاصة •

نلاحظ فيها تشديده على فعل الكون :

ـ كنت بالحب ( ص ١١ ) •

ــ سوف يكون ما سوف يكون ( ص ١٣ ) ·
ــ سوف كثيرا نكون ( ص ٢٣ ) ·

نلاحظ تجاوزه المبارك قاعدة التعدية واللزوم :
ــ لقد وقعتها وتهتها
لقد غرتها ( ص ١٣ ) ·

والواقع ، أن لا تعدية ولا لزوم ثابتان · والقول بالثبات هو عقدة العقد في العربية · ولنراجع في ذلك « مقدمة الشيخ عبدالله العلايلي لدرس لغة العرب » ·

نلاحظ ما تمكننا تسميته ، تعليق المعنى :
ــ ان كتبت شعري فلأنهن ( ص ١١٢ ) ·
ــ ألذ ما في الخبر ( ليس ، لا ، ليس أن شجرة ··· ) ( ص ١٢٤ ) ·
ــ يوم صار !··· ( ص ١٢٥ ) ·
ــ ألا يتعب الرجال ويهاجرون بعيدا عن ، بعيدا عن ؟ ( ص ٩٨ ) ·
ــ سأطبع كتابا
لأن عينيك لأن يديك ( ص ١٣٣ ) ·

وهي محاولة لو تعدت الاسطر القليلة ، لجاءنا أنسي الحاج بتطبيق محلي لنظرية المخرج السينمائي الروسي ايزنشتاين في المونتاج الايديولوجي · وفي كتاب (١٩) لدني روش ، شاعر جديد من جماعة مجلة « Tel quel » الفرنسية ، محاولات عدة في هذا المجال ·



والى ذلك ، تجربة الحكاية الخرافيــة ( في القسم الثاني ) التي يتابع الشاعر عطاءها ، في غلالة من حس السخرية Humour بوصفه تشويها لكل حقيقة أو واقع بفضل روح النكتة والنظرة الذاتية الى العالم · ( ماذا صنعت بالذهب ، ماذا فعلت بالوردة ، انسي الحاج ، دار النهار ، بيروت ١٩٧٠ )

هنري فريد صعب

## اشارات

١ ــ الدكتور علي عبد الواحد وافي : « علم اللغة » ، مكتبة نهضة مصــر بالفجالة ، ١٩٦٢ ، ص ٨٨ ·

٢ ــ I. A. Richards : « Principles of literary Criticism », Routledge, ch. 10.

٣ ــ Marx ENGELS : « L'idéologie allemande » (cité par Jean-Louis Baudry : « Théorie d'ensemble », Aux Editions du Seuil, 1968, P. 351).

٤ ــ عبدالقادر البغدادي : « خزانة الادب » ٠

٥ ــ Roland Barthes : « Le degré Zéro de l'écriture », Gonthier, 1968, P. 39.

٦ ــ ابن جني : « الخصائص » ( ذكره الدكتور محمود حجازي في « اللغة العربية عبر القرون »، دار الكاتب العربي في القاهرة، ١٩٦٨ ، ص ٤ )٠

٧ ــ عبدالرحمن بدوي : « أفلاطون » ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٤ ، ص ١١٨ ٠

٨ ــ Stendhal : « Racine et Shakespeare », ( cité par CH. M. Des Granges : «Histoire de la littérature française», A. Hatier, 1946, P. 737).

٩ ــ Philippe Sollers : « Logique », Seuil, 1968. P. 98.

١٠ ــ قول ورد في رسالة من فريدريك شيللر الى صديق ٠ ذكره سيغموند فرويد في « تفسير الاحلام » ترجمة مصطفى صفوان ، دار المعارف بمصر ، ص ١٣٢ ٠

١١ ــ Roland Barthes : « Critique et vérité », Seuil, 1966, P. 64 - 65.

١٢ ــ فرويد : « تفسير الاحلام »، ترجمة مصطفى صفوان، ص ٤٠٣ ــ ٤٠٦ ٠

١٣ ــ من « أناشيد الليل » لنوفالس ، ترجمة عبد الرحمن بدوي في كتابه « الموت والعبقرية » ، ١٩٦٢ ، ص ١٧٦ ٠

١٤ ــ الدكتور زكريا ابراهيم : « مشكلة الحب » ، دار الآداب ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٥ ــ ١٩٢ ٠

١٥ ــ فرويد : « الذات والغرائز » ، ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ، ص ١٠١ ٠

١٦ ــ فرويد : « النظرية الجنسية » ، ترجمة الدكتور أحمد طلعت ، مؤسسة دار البيان ، ص ١٦٦ ٠

١٧ ــ Platon : « Le Banquet », Traduction Léon Robin, Société d'édition Les Belles Lettres, 1949, 210 b, P. 68.

١٨ ــ Georges Bataille : « l'Erotisme », collection 10 - 18, No. 221/222 P.36.

١٩ ــ Denis Roche : « Les idées centésimales de Miss Elanize », Collection Tel Quel, Seuil.

عبدالله العروي

# الثورة العربية بين الوعي والواقع

أعلم أنه لا يليق بمؤلف أن يوضح ما غمض أو يعتذر عما أشكل في كتاباته، لذلك لن أوضح ولن أعتذر ، وانما اكتفي بتنبيــــه القارىء العربي الى كلمــــة « الايديولوجية » التي على فهمها يقوم فهم الكتاب كله * ٠



ليست الايديولوجية الفكرة المجردة او العقيدة وانما هي الفكر غير المطابق للواقع رغم ان الفرد المفكر يظن عكس ذلك ٠ تختلف الايديولوجية عن محض الكذب او التلبيس وهي غير الخطأ المنطقي او النقص الطبيعي الحاصل في وسائل الاستيعاء والتخيل ٠ اذا لم تفهم هذه النقطة بكل وضوح ، فان أي نقاش لما أقول وأقترح يكون بالضرورة هامشيا ٠ ان مفهوم الايديولوجية استوحاه ماركس من هيجل وطبقه لتحليل التاريخ والمجتمع والسياسة ، فأبدع بذلك علما جديدا ، ثم تبناه فرويد وطور به علم النفس والاخلاق ، ثم أصبح بعدهما القاعدة الاساسية لاجتماعيات الثقافة ٠ اني لم أعط في صلب الكتاب التعريفات اللازمة ، ولم أحل القارىء بالضبط الى ابحاث ماركس حول الفكر الالماني ، ولوكاكش حول الوعي الطبقي ، وكارل مانهايم حول النزعة الطوبائية لان قراء الفرنسية كانوا حين صدر الكتاب قريبي العهد بهذه المراجع التي ترجمت وحللت ونوقشت بغزارة منذ الحرب العالمية الثانية ٠ فاطلب من القاريء العربي اذا لم يكن متعرفا على هذه المؤلفات ولم يتبين مقوماتها الذهنية ألا يتسرع ويحكم بالغموض أو عدم الانسياق على بعض الاستنتاجات التي هي في الحقيقة من باب الاختصار أو التلويح أو التضمين ٠ ولو أتيحت لي الفرصة كما كنت أؤمل أن أعيد صياغة الكتاب باللغة العربية ، لكنت استعملت بالطبع اسلوبا آخر أقل تجريدا وأكثر بيانا ٠

---

* هذه الكلمة هي المقدمة التي كتبها عبدالله العروي للترجمة العــــربية لكتابه « الايديولوجية العربية » الذي يصدر قريبا عن « دار الحقيقة » ، وقد قام بترجمته محمد عيتاني ٠

أكتفي بالقول ان مفهوم الايديولوجية يقتضي وضعا اجتماعيا وتاريخيا خاصا يعيش أثناءه الفرد المنتمي الى جماعة أو طبقة او مجموعة قومية أو ثقافية ، حالة تجعله عاجزا عن ادراك تعبير صادق وتام ومستقيم على واقع حياته العامة بما فيها من علائق سياسية واجتماعية ومن ذكريات جماعية ومن تطلعات الى المستقبل — أي ان تصور الحاضر والماضي والمستقبل في ذهن الفرد ، اما معكوس أو مشتت أو معكر غير واضح ٠

في هذه الحالة ، تغير عملية الاستيعاء ، الجماعية والفردية على السواء ، صورة الواقع المعاش في ذهن الافراد ٠ وبما أن العمل الجماعي والفردي يخطط ولو بكيفية ضمنية على ضوء هذا الاستيعاء الخاطىء ، تكون نتائج العمل حتما ، مغايرة أو مناقضة للاهداف المخططة ، وهذه النتـائج غير المنتظرة تستوعى بدورها ، بكيفية خاطئة ، وتنتج نتائج أكثر بعدا عن الاهداف الاولى وهكذا دواليك ٠ ومن ثم يتحتم على الباحث في الاجتماع والسياسة والاخلاق أن يهتم قبل كل شيء بالتوصل الى أصل ثابت يعود اليه الملاحظ ليستدرك الاعوجاج الطارىء على صورة الواقع في ذهن الافراد ٠

الكل يعلم الحل الماركسي للمشكل ، والدور الذي أسند الى الطبقة العاملة في المجتمع الصناعي لكي تكون بوعيها المتزايد نقطة الارتكاز لعملية تصحيح الاستيعاء الجماعي ٠ في هذا الحل يجد المجتمع في ذاته وسائل التصحيح بحيث يكون الوعي المشوب أو الوعي القلق أو الوعي المغلوط وعي جماعات أو طبقات لا وعي المجتمع ككل ٠ تكون القاعدة حينذاك ان المجتمع الانساني العامل المتقدم المتصارع فيما بينه قولا وعملا لا يخطىء بكيفية نهائية لا رجعة فيها ٠

وربما كان لهذه النتيجة المتفائلة ، وجه بالنسبة للمجتمع المتقدم المتغلب ، لكن ما وضع المجتمع المتخلف المغلوب على أمره ؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه بالنسبة للمجتمع العربي ، وطبعا في التساؤل ذاته رفض مسبق ، ولو مؤقتا ، للدعوة القائلة ان الانسانية بأجمعها ممثلة في المجتمع المتقدم وان المجتمعـات الاخرى ليست سوى مخلفات محكوم عليها بالاضمحلال نوعيا كما هو الحال في العالم الحيواني ، وهذه بلا نزاع كانت فكرة الماركسيين في القرن الماضي ٠

اذا كان المجتمع العربي ، نتيجة تأخره وتبعيته ، حقا ذا استيعاء كاذب فبم سنقوّم هذه الاستيعاء ؟ ما هي نقطة الارتكاز وأين؟ في حالة عدم التصنيع ،وعدم تنظيم شامل ، أي في حالة عدم ثورة حقيقية ، عندما ننظر الى ذواتنا ، عندما نصف ونستوصف أنفسنا أين ضابط الحقيقة أي بم نضمن مطابقة ما نقول للواقع الاجتماعي ؟ وأكثر من ذلك هل هناك واقع مستقر يمكن تصوره وبالتالي رسم سياسة ناجحة لاصلاحه وتطويره ؟

لا يكفي أن نردد ان الطبقة العاملة هي نقطة الارتكاز التي بوعيها ستصوب وعينا المغلوط ، لأن الزمن الذي مر بنا بعد ماركس قد علمنا ان تلك الطبقـــة واضعة التاريخ اذا هي قامت بواجبها بعد تربيتهـــا وتوعيتها على يد المثقفين

الثوريين ، يمكن ان تتخلى عن هذا الواجب بسبب ضغط الطبقات المتحكمة او التأخر الثقافي او التخاذل الناجم عن ضائقة اقتصادية أو باختصار بمقتضى تخلف المجتمع ذاته •

هذه مسائل عويصة ومجردة جدا والكتاب كله جاء في قالب تساؤلي اشكالي غير وصفي ولا جزمي • هل في ذلك تنصل من المشاكل الحاضرة ، خاصة بعد التطورات التي حصلت في الميدان السياسي والعسكري ؟ لا أتجرأ على الجواب بالاثبات أو بالانكار ، الا أن الكتاب يدعو المثقفين والمفكرين العرب الى وعي انتقادي دائب ، الى الشك والتشكيك في تكنوقراطية الغرب وعاطفية العرب والى العودة الى واجبهم التعليمي والتنظيمي لاقناع الجماهير العربية ان القوة الحقيقية تكمن في التنظيم الجماعي لا في الالات الحربية وحدها ولا في النداءات الحماسية ، واذا تبين للقارىء العربي أن هذه الدعوة هي لب التحليلات المجردة الموجودة في الكتاب ، فالمغزى اذن يتفق مع ما ظهر في كثير من الاوساط العربية بعد هزيمة ١٩٦٧ •

من الواجب كذلك أن أقول اني اذا كنت قد اخترت لاستهل بحثي هذا أبعد زاوية ممكنة وأكثرها تجريدا فلأني كنت أيام بدأت تخامرني فكرة الكتاب سنة ١٩٦٠ ، قد يئست من أن أرى المؤلفين العرب يكفون يوما عن الثرثرة ويعدلون عن غرورهم المفرط • كنت قد مللت التشدق بخاصيات العرب وسئمت الكلام على الاشتراكية العربية والفلسفة العربية والانسان العربي ورسالة العرب الخالدة كما لو كنا نبدع كل يوم فكرة جديدة أو نظاما جديدا مع أن الامر لا يتعدى ضم كلمة عرب أو عربي الى ما هو معروف ومبتذل عند جميع سكان الدنيا • كان الكتاب المسخرون يجولون في اقليميتهم أحرارا فرحين في ضيق أفقهم ثم جاء لمظاهرتهم المتلمقون من الغرب ووطدوا هذا الانزواء باسم عدم التبعية والمغامرة والتجديد • فعم الغرور وصدعت الدنيا بثرثرة انصاف المثقفين ولجأ الى الصمت كل من بقي له نزر من استقامة الفكر والتطلع الى انتاج جدي ومجد• هذه الملابسات هي التي أضفت على صحائف الكتاب لباسا من السخط المكتوم •

ثم جاءت الهزيمة •

لست من أولئك الذين يقولون باستمرار في كل نقمة نعمة ، لأن النقمة هذه المرة فاقت بتكالب اعداء العرب كل النعم التي يمكن استخلاصها منها • يمكن استدراك نتائج الهزيمة ، لكن الهزيمة ذاتها لا يمكن أن تمحي من أفئدتنا• قال محلل لكتابي وهو نزيه الحكيم في مجلة «الكاتب» اني توجست النكسة قبل وقوعها ، هذا غير صحيح لاني ككل عربي أمزج دائما التشاؤم بالترجي •

وقلت سنة ١٩٦٥ ان العرب يتساءلون منذ زمن طويل : من نحن ومن الغير ؟ ما العمل وحسب أي منطق نحلل الماضي والحاضر ونخطط المستقبل ؟ كيف التعبير عن وضعنا الحالي ؟

لو حررت الكتاب بعد سنة ١٩٦٧ لغيرت الصيغ مع الابقاء على المضمون ،

ولسألت الاسئلة التالية :

١ ـ ما هو تحديد الاستعمار ؟ التحديد الاكثـــر شمولا وعمقا • هل الاستعمار ينحصر في التحكم السياسي والاستغـــلال الاقتصادي والضغـط الدبلوماسي ؟ أم هو أعمق وأشمل من ذلك الى حد أنه باختيــــاراته هو يلزم المستعمَر على اتباع طريق واحد بدون أي اختيار آخر •

٢ ـ ما هي الثورة ؟ هل هي مجرد تغيير في النظام السياسي ، وبناء قواعد اقتصاد قومي ونهج تعليم عملي وتقني ؟ أم هي تحرير الفرد والجماعة من كل قيد ، ماض أو حاضر ، واعادة تنظيم الجماعة وانبعاث وجدان الفرد بكيفية تجعل المجتمع الثائر يستقدم قرارات العدو المستعمر التـــي بذات الاستقدام تفقد فاعليتها •

٣ ـ ما هو واقع أوسر المجتمع المتخلف ؟ أهو آلة ناقصة أم ماض نافذ أم مستقبل غير مستحضر ؟ ما هو وزن القول والعمل في ذلك المجتمع ؟ لماذا التملق والكذب والادعاء والديماغوجية ؟ هل الرؤساء كلهم خونة أم هناك واقع غير ثابت يغير بتحولاته نتائج الاسباب ومعاني الاقوال ؟ هل التخلف في نهايـــة التحليل ، هو التشبث بالمطلقات ، أي ان واقع اللاتخلف هو التغيير المتواصل وعادة الفرد المتخلف لجوؤه الى الحقائق المطلقة التي سريعا ما تصبح غير مطابقة لواقع متغير ؟ هل لب التخلف أن تفضل الجماعة انقاذ المطلقات بانتحار الافراد عوض انقاذ الافراد بضياع المطلقات ؟

هذه صيغ جديدة للاسئلة التي طرحتها سنة ١٩٦٥ والاجـــوبة التي لخصتها وانتقدتها هل تغيرت صيغها ؟ لا • طلعت علينا بعد الكارثة تتوارى في الاغشية التي ألفناها منذ القرن الماضي • تقدم الشيخ بعمامته وهو يردد : غلبنا بسبب فجورنا وعدولنا عن سامي الاخلاق • جاء الزعيم الشريد صائحا : غلبنا لان زعماءنا تفردوا بالحكم • وجاء المهندس يطـــالب بآلات جديدة ومصـــانع جديدة • وصفق الغرب لكل هذه الاجوبة ، كل حسب ميوله ومصالحه ووجد الكل في مظاهر العدو ما يبرر به هذا القول أو ذاك • وجد الشيخ مبررا في تعصب العدو الديني المهول والزعيم السياسي مبررا في وجود برلمان العـــدو والمهندس أكد على كثرة المدارس التقنية عند العدو •

ولم يتنبه سوى القليلين ، الى أن ايمان العدو وشورى العدو وتقنية العدو كلها وسائل ربما ذات فائدة وفاعلية لكن دون العامل الاساسي الذي هو تنظيم مجتمع العدو ونفسانية الفرد عند العدو وعدم عبوديته ، رغم الظواهر ، لاي مطلق •

واذا كان رد الفعل العربي بدأ يوفر بعض النتائج الايجابية بين صفوف الفلسطينيين فذلك لا يرجع الى المحافظة على تراث قديم ، ولا لكونهم يسلكون طريق التشاور والمناقشة ، ولا لانهم يصنعون آلات حربية دقيقة ، فهذه كلهـا وسائل ما كانت لتنفع مثقال ذرة لو استعملت بمفردها ، بل العامل الاساسي

هو ان العمل الفلسطيني ينبني على أن الحق ، الادبي والفلسفي ، ليس موجودا دائما يحل من حين الى حين في ذوات عابـرة ، بل يبدع كل آونـة بالعمل الانساني المتواصل • وراء التنظيم الفلسطيني ، وراء الدعاية الفلسطينية ، وراء مخطط الدولة اللادينية الفلسطينية يكمن منطق واحـد وهو شمول المشروع الانساني ونسبية الحقوق والحقائق • ان الفلسطينيين لا يجسدون بعملهـم اليومي حقوقا قديمة بل يولدون حقوقا جديدة ويفرضونها على الجميع •

نعم •• هذه ( حقائق ) موضوعية ، أي مطبوعة في محيطنا الإجتماعي ، لكنها غير مستوعاة بعد ، وأبرز علامات تأخرنا هو تخلف الوعي عن الواقـع ، والثورة الفعلية في جوهرها ، رفع الوعي الى مستوى الوضع لان في ذلك فهما لذوات الافراد ، واجابة عن مشاكل المجتمع وتحقيقا لمرامي الامة • وفي ذلك أيضا انبعاث الانسان العربي أي الاعتراف بانفصاله نهائيا عن انسان العهـد الوسيط بحيث نكون بالنسبة للتاريخ العربي الاسلامي السابق كالطليان منذ النهضة بالنسبة لمجد الرومان •

نودع نهائيا المطلقات جميعها ، نكف عن الاعتقاد ان النموذج الانساني وراءنا لا أمامنا وان كل تقدم انما هو في جوهره تجسيد لاشباح الماضي وان العلم تأويل أقوال العارفين وان العمل الانساني يعيد ما كان ، لا يبدع ما لم يكن ،وبذلك نتمثل لاول مرة معنى السياسة كتوافق مستمر بين ذهنيات جزئية تمليهـا ممارسات الجماعات المستقلة وتتوحد شيئا فشيئا عن طريق النقاش الموضوعي والتجارب المستمرة ، بحيث لا يمكن لاحد أن يدعي ، فردا كان أو جماعة ، انه يملك الحقيقة المطلقة عن طريق الوحي والمكاشفة ويفرضها على الاخرين ، ( هذا طبعا لا يعني حصر النقاش في شكله البرلماني التقليدي ) •

صيرورة الواقع الاجتماعي ، نسبية الحقيقة المجردة ، ابداع التاريخ ، جدلية السياسة ، هذه هي معالم الفكر العصري وقوام المجتمع العصري ، عرفها حقا البعض منا وفسرها ونادى بها ، لكن المجتمع العربي ككل ، منذ القـرن الماضي ، يتردد في تبنيها تبنيا كليا ، ينكرها لا في دائرة الاسرة والمسجد والكتاب فحسب بل داخل البرلمان والمدرسة العصرية وحتى في قلب المصنع ، يتردد في عرفانها لا في كتب تراثنا القديم حين يعاد طبعها فحسب بـل في التأليف المعاصر ، على صفحات الصحف اليومية وشاشة التلفزة ، وباختصار في ذهن كل منا •

وهذا التردد قبل كل شيء تردد المثقفين منا ، كيف ننعي على الشعـب العربي أو على الطبقة الكادحة العربية خمولها والنعي كله على المفكرين العرب منذ القرن الماضي الذين جعلوا من الكتابة والخطابة ناموس عيش ، فانساقوا للترجمة واجترار الافكار والتلفيق بدون معيار ولا مقياس • بذلك غروا واغتروا الى حد أنه سيوجد بلا شك من يتهمني بعدم اللياقة والجرأة ، ويؤاخذني على حصر الفكر العربي « الغزير » في ثلاث شخصيات •

اذا كان لتجارب الامم مغزى فان أمرنا لن يصلح الا بصلاح مفكرينا ، باختيارهم اختيارا لا رجعة فيه المستقبلَ عوضا عن الماضي ، والواقع عن الوهم وجعلهم التأليف أداة نقد وانتقاد لا أداة اغراء وتنويم واذا قيل ان أوضاع الحكم وأوضاع الحرب لا تساعد على ذلك ، فاقول ان أوضاعنا ستكون دائما غير ملائمة ، لانها لو عادت ملائمة لما احتجنا الى ثورة على التخلف الفكري ·

* * *

كلما أعدت قراءة جزء من هذا الكتاب يغشاني شيء من الحزن ، رغم أني أفهم بعقلي وأحاول أن أفهم الغير أن الطفرة في تاريخ الامم دائما سراب خداع ، عكس ما ظن البلاشفة ، لكن وجداني لا يكف يستشعر الاسى على الاجيال الضائعة والنشاط العقيم والزمن الفارغ · وعندما جاءت الهزيمة تألمت أكثر وأكثر للشعب المصري الذي سبق كل الشعوب العربية الى الاصلاح والرقي والتنمية ، الذي حاول أربع مرات أن يقوم بثورة شاملة وعجز عنها أيام محمد علي وأيام اسماعيل وعرابي ، ثم بعد ثورة ١٩١٩ وبعد ثورة ١٩٥٢ ·· أربع مرات حاول أن يغالب القدر المتمثل في شره المستوطنين ، القدامى منهم والمحدثين ، ومصلحة المستعمرين ولم ينجح · هل خانته آلهته كما اعتقد ذلك شعب المكسيك حين غزاه الاسبان ؟ لا بل خان نفسه لانه لم ينتج القيادة الصالحة له · قبل الجماعات العربية الاخرى ، أراد أن يكون تلميذا طائعا ومقلدا أمينا ، انقاد للارقام ولم يغير العواطف ، شيد الجسور والسدود ، ركب المولدات والمحركات ولكنه لم يولد انسانا جديدا بل احتفظ ، بكل حنان ، بعواطف الريف ، بطيبوبة الريف وركن الى أمله في الخلود ·

وهذا الاخفاق هو قبل كل شيء اخفاق النخبة المفكرة المصرية وما من عربي اليوم الا وعليه أن يحلل هذا الاخفاق بدون سماحة ولا تشفٍّ ، لان الكارثة المصرية كارثة العرب جميعا ، واذا لم تستدرك عواقبها ، ففي انتحار مصر انتحار العرب جميعا ·

لذلك ألح أنه لا يكفي أن تكون الاوضاع اليوم أحسن بكثير مما كانت عليه سنة ١٩٦٠ أو سنة ١٩٦٥ · اذا لم نستوع حقائق الاوضاع ومغزى الاحداث ، فسرعان ما نرجع القهقرى كما تراجعنا في ماضينا القريب بعد ثوراتنا الوطنية المتوالية ونستسلم من جديد الى عبادة المطلقات ونفضل من جديد الاموات على الاحياء · لنصفق ما طاب لنا للثورة الفلسطينية الشاملة ، لكن اذا لم نجاهد يوميا للمحافظة على مكتسباتنا الفكرية فقريبا سيطغى علينا تفكير الشيخ أو الزعيم أو المهندس بجزئياتهم الخادعة ·

ان الاوضاع تدعونا حقا الى التفاؤل ، لكن تخاذل المفكرين في ماضينا الطويل يدعونا الى الحذران لم نقل الى اليأس ·· هل سيثبت هؤلاء المفكرون هذه المرة أمام تحديات الوضع العربي ؟ على هذا السؤال يتوقف مستقبل العرب ولا يمكن لاحد أن يجيب عنه قبل أن يصبح واقعا ملموسا ·

عبدالله العروي

( الدار البيضاء ، تموز ١٩٧٠ )

محمود الريماوي

# الومض والرعد

## ١ - كابوس يطعم الفاكهة والفكاهة

تسيطر فكرة العدالة سيطرة تامة ، على قصص زكريا تامر « الرعد » • ونصيب أبطاله التهديد دائما ، من الشرطة أو المحكمة أو الغزاة أو الجلاد أو الملك • وغالبا ما يمضي التهديد الى التنفيذ ، دون أن تـــكون للضحية فرصة الدفاع عن النفس قبل التنفيذ ، أو استحقاق شرف البطولة ما بعده • كل ذلك ، كل هذه الاحباطات والاعدامات ، وسط عاصف من الضحك : الكامد الدامي المرير ، حزن في القصص يبلغ الانشراح في القراء •

أما كيف يأخذ مثل هذا الكابوس الضاغط المتواصل ( ولن نقول انه كذبة أو مؤامرة ) طعم ــ الفاكهة والفكاهة ــ ، فهذه مسألة تخص زكريا تامر • هذا الفنان على غير غرار ( انها كوميديا ملعونة • وتلك القدرة على ربط الحركة بدفع تيار الوعي واللاوعي ، عبر لغة تتوسل الشعر البسيط الذي يستفيد من تشبيه الاشياء المادية ، بمادة الحلم : عناصر الطبيعة ) •

العدالة المفجوعة في القصص تتوزع بين الخبز والجنس والحرية • وهذه المنظومة تؤلف الحلم • لذلك الابطال يستحقون السجن أو القتل ليس لمجرد سؤالهم عن الخبز بل لانهم في حالة هجس صريح به • ويدافع زكريا عنهم دفاعا عائليا شريفا حميما ، ويلوح دائما بامكاناتهم على الثأر من الواقع الضيق • ويقول عنهم كلاما جميلا بسيطا أحسن من الشعر ، ومثل حكايا الاطفال الذين لا يسألون عن لحظة التنوير ، ولا يتوقفون عند المعادل الموضوعي أو الترميز •

ونقول الان : ان عمل زكريا على النزول الى الصدق ، وتمكنه من التقاط الحقيقة واكتشافها والجهر بها ، ظلت فضيلته العظمى منذ « صهيل الجواد الابيض » • وليس من شك ، أن هنا دور الفنان • لكننا لا نريد لزكريا أن يبقى

في زعل واضح من هؤلاء وحدهم : الشرطة العرب ، والشيوخ العرب ، والآباء العرب وآباء بنات العرب والاغنياء والتجار والمعلمين والاقارب العرب • غير انه زعل يجب ألا يطلق الى مداه ، حتى لا نقول انه يضر بصحة الرؤية • ومن المهم التصريح في هذا المجال ،بأنه وسط هذه الاعدامات ، التي تنفذها طبقات العرب السائدة ، المستثمرة عزوف العربي عن الارض ، وتعويله على السماء ، هناك ما هو خير وأبقى من الانتحار •

ان هذه النتيجة ، تتوزع على القصص بحجم أو بآخر • وتأخذ حجمها كاملا في قصص مثل « خضراء ، الشرطي والحصان » •

بدت فكرة الانتحار صارخة وزرقاء مثل المرض ، في قصة « النابالم النابالم » • وهي الوحيدة في المجموعة ، المرتبطة بتعيين في : زمان ومكان وانسان • وفي القصة البطل أحمد الشاب • والبطلة ليلى صديقته أو حبيبته • أحمد ضائع ومضيع وخاسر الاعصاب • ليلى حزينة بثبات • يدفعه التعب الى رغبة الجنس كخلاص وجودي • وعلى باب غرفته يتشاجر مع صاحب البناية العجوز ، الذي راقب ليلى صاعدة الدرج الى الطابق الثالث وأكلها بعينيه • ذلك ان العجوز لا يريد من بيته « مأوى للعاهرات » • ولأن أحمد ، الشاب العربي المثقف ، ذا الاصول الطبقية الفقيرة • لأنه ، تلك اللحظات ، في حمأة الهيجان والانكسار والعمى الداخلي ، فقد تخيل « قنبلة اثر قنبلة » تتساقط على المقاهي والمآذن والمدارس والمستشفيات ومخادع النوم • ولم يتوقف عند المخيلة ، التي هي استبدال لارادة عاجزة ، بل « أمر بمزيد من القنابل » • وقد ارتقت هذه الارادة في القصة الاخيرة ، الى « اختراع » قنبلة ذرية ، طوح بها البطل الكاره اليائس ، بأقصى ما يملك ، فكان أن أشرقت الشمس على الانقاض • ثم انتهى الكتاب •

هذه هي الحدود التي عندها ، تنتهي رؤية المؤلف لفكرة العدالة ، وفق تقرير قصصي سائغ وشائق وبريء • ( الرعد ، زكريا تامر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، دمشق ١٩٧٠ )

## ٢ - رؤى شعرية طلقة

قصص حيدر حيدر في مجموعة « الومض » رؤى شعرية طلقة • ليس أكثر أو أقل • وهي ، في المبدأ ، رؤى : شفيفة عميقة حارة • وحقا ان هذه الرؤى ، وهي كل المجموعة ، تضم بعض التساؤلات ذات الجذر الفلسفي ، أو تنطوي على وجهات نظر متقدمة فكريا • لكنها لم تطوع أبدا ، في خدمة العمل القصصي الحي • وبقيت رؤى طلقة ، وصارت القصص لانها تكتفي بهذا الرصيد : طويلة مطولة مستطيلة • ذلك ان حيدر حيدر — على صعيد اللغة — انهكها بالتخريج اللفظي ، الذي جاء على حساب جدة اللغة القصصية ،وهو على

نية أن يكون في سبيلها • هنا بالذات ازعاج المجموعة وضعفها • فقد كان لحيدر أن يباشر هذا المنحى ( الرسم الشعري ) لو انه ابتعد عن النشاط الذهني الكابح ، والعناية الذهنية الظالمة • انه من غير الممكن ، ان ينتشر المناخ الشعري في القصة ، بمجرد تزيينها من كـل الجهـات ، بالصيغ والافعـال المشوقـة المختارة • والشعر لا يتأتى الا عبر مجموعة العلاقات داخل القصة •

ان القارىء المعاصر ، في هذا الضوء ، لا يتمكن من ان يلمس اختلافا فنيا فارقا ، في الاساس ، بينهذه الكتابة القصصية ، وكتـــاب اسلافنا في أول النهضة • فهنا يأتي البطل ـ والاصح أن يقال في هذا المجال : النموذج ـ في خدمة فكرة مكشوفة • ويصبح العمل القصصي بذلـــك تحت رحمة المشاعر والافكار المتلاحقة والمتقاطعة ، التي تزدحم في ذهن المؤلف التي تحاول كلها ان تجد وسعا لها ، على المشجب • ان هذه القصص تضيع في التجريد : تجريد البطل عن الدمواللحم والاعصاب • وتجريد الموقف من خصوصية الحدث • لذلك توقفت هذه المجموعة ، عند حدود المساجـــلات الوجودية ، والاخذ والـــرد الباطلين • هذا دون ادارة الظهر للاخلاص الذاتي العميق ، الذي يحمله المؤلف لفنه ، والذي دلل على نفسه بالقدرة على التخلص من التسطيحات الفنيـــة السائدة ، وقصور الرؤية الذي يؤدي الطرافات الصغيرة الشاحبة ، في أجواء لفنه • ( الومض ، حيدر حيدر ، منشورات اتحاد الكتـــاب العرب بدمشق ، دمشق ١٩٧٠ )

محمود الريماوي

# «العمل» الفني والنظر الايديولوجي

## ١ - الابقار المقدسة

يقول سميح القاسم « كانت الحرب لنا بمثابة محطة للنقد الذاتي والاندفاع الى الامام » غير ان معظم شعر المقاومة يبقى لاهثا حول هذه « المحطة » متوقفا عندها ، يدور حول الحدث ، متعثرا بالظروف الوقتية وموسمية الحالة ، حيث لا أثر لتوقع أو رؤيا مستقبلية بأن عالما يتغير ، لكي تتكافأ التجربة مع مستوى الرؤيا . القصيدة هنا تسقط في محاكاة الانفعالات دون الاحاطة بها ، والصعود مع أفق القضية . اذ تتوقف عند حدود النقد العمومي باستثارة الجماهير التي تهيمن عليها الغيبية الدينية، وتسهم في ابقاء الروح المازوركية والمأساوية الخرفة المتباكية على « الاطلال » . ونتيجة الاصطدام بالواقع القسري يهرب الشاعر الان نحو الحلم بواقع اخر ، كملاذ جديد للخلاص « ارم التي أحلم بها واكتب عنها هي ارم جديدة .. ارم فاضلة ، تحلم بها الانسانية جمعاء » . وترد من خلال هذا الامل الدعوة للماركسية والتواصل مع فكرها النير في طموح الشاعر الى واقع جديد . فالى أي مدى تتحقق في آثار شعراء المقاومة هذه الدعوة ؟ يقرر سميح القاسم « برهن بريخت ونيرودا ان فن القضية هو وحده الفن الخالد » ولكن الاقتصار على هذا الحكم هكذا ، وتبني الماركسية في الفن باعتبارها **المعبرة الوحيدة** ، يمثل الغاء لكل ما لا يلتقي مع هذه الايديولوجية ، واجتزاء ينطوي على تخثر فكري ، وتشيؤ في النظرة ، كمن لا يستحم الا في بئر واحدة ضيقة . كما ان النظرة الى هذا الفكر لم تتحول في شعرهم الى تذويب فني في الشخصية ، لانهم سقطوا في حدود قانون العلاقة العامة للفكر الماركسي ، دون أن ينصهر الفكر في عملية خلق شعرية . وهذه الرؤية الواحدية تعني الحد من قيمة الفن وكبت فاعليته بفهم ساذج . ولأن الماركسية كانت انفتاحا رائعا على ابداعات الفرد واحتراما للابداع الانساني كان لينين يقول « الوقوف بوجه الجديد يعني

الوقوف بوجه الانسان » • فهل نستطيع أن ننفي عن شاعر مثل اليوت أو هنري ميشو شاعريته لانه غير ماركسي ؟

ان العقلية المتزمتة المتخلفة التي ينتقدها سميح القاسم يقع هو نفسه فيها، بعدم تمييزه ان القضية لا تطرح في الشعر الا بعد مرورها في الذات عبر علاقة فنية ومنظور شعري صرف ، متنفسا ابعادها ، كي يتجنب التصفيق النثري الذي يرتجل الانطباعات العامة ، ولكنه يسقط في هوتها ، سواء بفهمه القاصر عن الماركسية ، أو بانتاجه الشعري ، حيث يظل محتوى ما يطرحه هو وشعراء المقاومة الآخرون كلاسيكيا مرتجلا غير ان القشرة لا تختلف الا بما يصطلحون على تسميته بالشكل « حرا » • ثمة شيء يدعو الى التساؤل ، هو : هل الالتزام الايديولوجي تسطيح للفكر أم تعميق له ؟

ولكننا لا نجد غير هذا المناخ القشي معلقا مثل لافتة مستهلكة :

« دربنا واحدة فهاتوا الأيادي
يا رفاق المعارك الطبقيه
نحو دنيا جديدة وسلام

وقضاء على القوى الرجعية » ( حنا أبو حنا ــ ديوان نداء الجراح ) •

ان هذا الافراز يعوم ضمن اطار من المقولات التظاهرية المضحكة ، مستفيدا من تعميمات الحدث اليومي بمحاولة غناء خاسرة ، لاستيعاب موقع الفرد في مجتمع يحيطه بشتى الضغوط • أو أحيانا بمجموعة من التساؤلات القلقة عن الوطن الذي تتحول الحبيبة الى رمز له •



أما عند غسان كنفاني فان للوطن رمزا مغايرا ، حيث يتخذ صورة للماضي، الاطار الطحلبي في الذاكرة ، للوراء والخطأ • اذ يتجسد هذا الرمز في شخصية (دوف) ابن سعيد • س في رواية « عائد الى حيفا » ، ويقابله رمز الطموح الجديد والحرية الانسانية في الاختيار عند ابنه الثاني ( خالد ) : « لقد اخطأنا حيث اعتبرنا ان الوطن هو الماضي فقط ، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل » •

ويبدو بعد القاء نظرة عامة على نتاج المقاومة انهم ارتضوا بالاحتجاج فقط ، هذا الاحتجاج الذي لا يوفر زخما أعلى نفسا للانفلات من الاطر العربية المحدودة ، ومن ترسب أخلاقيتها الاقطاعية ، بعد ان عمق حزيران وعيا حادا ، بكونه تجاوزا للهزيمة ، وضرورة للبناء الانساني ، حيث تحتم الطموحات الاولى والتي نحسها عند جيل الشباب الثوري ، بضرورة بناء الانسان من الداخل ، وبذلك الشاهد الادبي المعاصر الذي يطرحه علي سالم في مسرحيته « أوديب أنت اللي قتلت الوحش » •

لكن واحدا من شعراء المقاومة كان يلم بالتجربة وينغمر فيها دون تطبيل أو احتفالية • انه ينزرع فيها ويفر من أسر الواقع والتهافت عليه ، بهوية شاعر مترصد لفرادته في أشد الطرق اكتظاظا ، محتويا طاقته الكيميائية ، حين تتحول

المدينة الى قلعة حصار • متآلف مع حيلته الشعرية اذ يقدم نفسه بهدوء المحايد• القارىء لا يخرج من القصيدة بغير الاحساس بأن شيئا قد انكسر في داخله ، ولم يعد يقيه غير الترقب للآتي ، والتحفز للانضواء فيه •

« على كاهلي عبء من التعابير
لو أخطو دون اغماء
لنقضت المدينة من أساسها

وفتحت في سياج الغابة بابا للفرج » ـ ميشيل حداد •

وحين نثق بفرادة هذا الشاعر ، لا نستطيع الا ان نقارن بين هذا الوجه الوحيد والخليط من الاصوات ـ التي تسيح في شعر توفيـــق زياد وسميح القاسم على الاخص ـ المراوحة بين تأثيرات البياتي وأنفاس الجواهري الوطنية ، ونازك الملائكة • فعبر ديوان كامل لتوفيق زياد ( شيوعيون ) تنفضح محاولة النسخ الرديئة التي يتمثلها عند البياتي في ( ٢٠ قصيدة من برلين ) ، والى حد التأثر حتى بالجملة الشعرية المباشرة • ان التزام الايديولوجية الماركسية لا يسوغ هذا الطرح السريع القاصر لها في دواوين شعراء الارض المحتلة ، مع كل هرولة النقاد وراءهم مبررين القصور والعطالة الشعرية دون تمييز • « أما السبب الثاني في ما اكتسبه شعرنا من تقدير ، فهو مجرد كونه كتب في اسرائيل •• فهذه الحقيقة ، منحته في الخارج اعتبارا وصل أحيانا درجة التقديس •• وأنا لا أنكر على اخوتنا النقاد العرب انفعالهم بهذه الحقيقة فهي ذات وزن كبير ، ولكنني انكر عليهم تحويل قصائدنا الى ابقار مقدسة • »



فالانفعال وحده والدعاية المسرفة لاية ايديولوجية لا يمنحان التسويـــغ الكافي للاقتناع بقيمة الاثر الفني ، بل الجدوى هي في الإنسجام والتوافق بين ما يطرحه النتاج من فكر واستبطان ، والتجربة الشعرية المنطلقة من ذات الشاعر بعمق ، بغية التكافؤ ودرج القيمة الفنية في تأثير العمل ذاته •

## ٢ ـ الايديولوجية الشعارية

ما زالت الرؤية الشعرية هي هي قاصرة وتسيطر عليها الجوانب الفكرية التي تستقي تهيؤاتها الموضوعية من العناء والخســـارة الاجتماعية ، دون أن يستطيع التحليق نحو الاهتمامات الاكثر شمولا • ذلك انه يبقى محدود النظرة ، مركزا ومكتفيا بهذه النافذة الصغيرة ، مقتنعا بوحدة المحتوى الاجتماعي المباشر والايديولوجية الشعارية • والشعر عنده يتحول الى نمط مكرر حيث سبق للشكل أن أعطى هذا الانطباع •

تبدأ المجموعة بمقدمة من ١٦ كلمة عن البيـــاتي ، لا ضرورة لها سوى

انها تشبه محاولة لتبريره ، والى حد ما فهي تحد لذكاء القارىء ، وتدخل في استقرائه وتطلعه ، من أجل استدراجه للقبول • فيحكم احسان عباس على اتجاه البياتي بأنه « علوي صعودي في معارج الدرجة الفنية » وفي اختبار هذه الارضية وبالمقارنة مع ما يطرحه البياتي في قصائده نستغرب مدى السهولة والارتجال في اطلاق احكام اكبر مما يحتملها الشاعر ، الذي كان اسطورة قبل خمسة عشر عاما في العراق ولم يفعل شيئا بموازاة التطور الزمني الذي مر به وبمستوى التجربة الفنية ، لانه ما زال راكدا في دورته الضيقة ، بمحاكاة مملة دون ان يتخطى هذه الحالة الى وعي اكثر استبطانية وحوارا • فالشكل صار قالبا مطفأ شائع البرودة ، حتى أن استعمالاته لم تتغير ، باحتمائه بعكازات اللغة المبتذلة الجاهزة •

كان للشاعر حسين مردان ملاحظة رائعة بهذا الصدد : « لولا الواوات اللعينة هذه ، لما استطاع البياتي أن يكتب شعرا » وحين نبدأ التشخيص ، يصدمنا الكثير من الزوائد والحشو الذي تزخر به القصائد ، والاستعمالات العامية المسطحة بتعبير دارج :

« رقصوا على شتى الحبال
صنعوا قباب
من حبة »



وتعميماته العادية في الكلام اليومي المعتاد ، والنثر الرديء ، والتسلسل المنطقي الذي يقرب الى المقالة أحيانا • وهنا يتساءل القارىء : أين اذن خاصية اللغة في الشعر ، والحدس الذي يرتاد تلك العوالم المجهولة في الاعماق ، دون أن تقترب الكلمة من معناها اليومي الخاوي ؟

« اذا اردت ان تغش : فاختر الضحيه
ولتحذر الصديق
والزوجة الوفيه
أقولها من كل قلبي لك يا رفيق
لاننا في خدمة القضية
أقولها من كل قلبي ، وعليك أنت بالبقيه »

هل هناك أقل اسفافا من لغة المقاهي هذه ، التي تفتقر الى الدفقة الشعورية

والاحاسيس الشعرية الزاخرة بمذاقها الانساني في عملية خلق تتزاوج فيها المكونات النفسية والحضارية ؟ غير ان البياتي الذي يصر على الكتابة بهـذه السهولة ، دون أن يتعرض الى تصفية حساب داخلية واعية مع ذاته وأفقـه الشعري ، يقع في العادة والادمان فحسب ، هاربا من مواجهة نفسه وقضايا العصر ومشكلاته الكبيرة ٠ من هنا يتيح لنفسه مبررا للكسل والاتكاء على مفردات ميتة ، وتراكيب لغوية شائعة ٠ ففي قصيدة قصيرة لا نجد غير ترداد للكلمات ( الليل ، الليالي ، الموت ، الموتى ) وتتكرر كلمتا الاعماق والمدنية أربع مرات ٠ أما في قصيدة « المخبر » فنحصي ٣٧ واو عطف و ٢٠ حرف جر (في) ، اضافة الى ٣١ جملة مركبة تافهةمثل: « الجرائد الصفراء ـ ذرب اللسان ـ حرم الطغاة ـ فن الكذب ) ٠

وحينما يعتاد أي شاعر على البوح ببساطة وبالطريقة نفسها دائما ، فانه يسقط في هوة الاعتياد والاخبارية ٠ لكن البياتي يبدو كأنه يصر على التمادي في الاحتفاظ بموقعه الشعري الذي تردى الآن الى الامحاء والفشل ٠ (**يوميات سياسي محترف، عبد الوهاب البياتي ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٠**)٠

جليل حيدر

فوزي كريم

# « الفرح ليس مهنتي »: الشعر وطريق المنفى

رضى الله من رضى السلطة • كان ذلك قديما ، حيث ظل الله يسترخي على قسط من البسيطة كبير • والسلطة اليوم ، ما عادت ظل الله على أرضه ، فلقد ذهب زمن كانت الشرطة فيه تسمى عسسا ، والعسس ليلي بطبيعته ، وكان بين الرعية والراعي رباط من الخوف يسمى الدين ، وميزان مستور في الغيب • السلطة اليوم شمس لا تخلف ظلا لقيلولة الرعية ، ولكنها تخلف ظلال الرعية ذاتها ، والويل لمن تخلف عن ظله ، أو فارقه • الشرطة قديما والشرطة حديثا • كان أولئك ، يحدقون في الواقع ، وعرف هؤلاء كيف يحدقون في الحلم كذلك ، حتى انهم يكتشفون بطرفة عين لون الجديلة ، في آهات مراهق عاشق • ( ولكنهم لا يملكون بالتأكيد أن يكتشفوا المعاني ، التي تتخفى كالقبرات ، وراء « النخلة » و « الساقية » و « الخطاف » ••• ، هذه الكلمات التي تنط كالضفادع في قصائد الشعراء المحدثين ، والـــذين يريدون فيها ما شاءت لهم قدرتهم ، وأقدارهم • )

الشعراء جميعا ، في طرق المنفى ، لا يشحذون أسنانهم ، ولكنهم يدحرجون الشرطة ، دون رحمة ، في الغيظ ، من وطأة رموزهم • انها بادرة جيدة ، ولكن محمد الماغوط ، يأبى الا أن يظل على الرصيف لا يحتمل ان يتخفى وراء «النخلة» و « الساقية » و « الخطاف » ، ولكنه من الشجاعة بحيث يفتح أبواب الناس ، ويسمي الشرطة شرطة ، والحـــاكم حاكما ، والعصفور عصفـورا ، ودمشق دمشق ••• انه رقيب في منفاه ، يشحذ أسنانه دون ملل ، بالرغم من رائحة الكسل والانسحاق التي تفوح منه ، ويبحث عن الخبـــز والملجأ والثورة مرة واحدة • ولكن أيستطيع الماغوط أن يصل الى واحدة من هذه ، مكتفيا برائحته تلك ، وسيلة وطريقة مقنعة ؟ هل آمن نفسه من جوع ومن خوف ؟ وهل تشمم الثورة ، كما يتشمم المسافر الوقت ؟

في « الفرح ليس مهنتي » يجيب الشاعر بالنفي ، انها اعادة مستساغة لاعترافاته القديمة ، واصرار على مواصلة تهمه التي لا تنتهي ، مكتفيا بشجاعته على الاعتراف ، وشجاعته على الاشارة بالسبابة ، مقتنعا أنها تملك وحدها أن تولد « الفضيحة » • انه يرغب بذلك ، فهو ليس من شعراء « الدهشة » • حتى الحضارة المجهولة ، يستطيع بسهولة أن يومىء في مواجهتها ايماءة اللامبالاة والانكار • انه يتلمس البدوي بين طيات أحزانه وهزائمه ومـــوته ، يتلمس الشهامة ، والرمل والوهج • وهو لاجل ذلك يقنع بهذه التسمية ، حتى لو كانت « تهمة » : رومانسي • موضوعه واحد ، ليس له تشعبات ، ولا أبعاد، والشاعر، بالاضافة الى هذا ، يأبى أن يستخدم ـ فنيا ـ المعادل الشعري ، من أجل ان يكتسب موضوعه عمق الرؤيا المعاصرة • انه دافىء وحنون يرغب بالحديث المباشر بقدر ما يبتعد عن الرؤيا التي يحسبها وهما • ولاجل ذلك فهو يلح على نفسه من أجل ان يكون حديثه ممتعا • و « الاستعارة » وسيلته الى ذلك ، الاستعارة و « التشبيه » • ولكنه بالتأكيد يذهب فيهما مذهبا جديدا ، وخاصا ، بحيث عرفا به ، وعرف بهما • انه يلتقطهما ، بحاسة مريضة ، من الشارع ، من المقاهي ، والزوايا ، وهي محاولة ابداعية دون ريب ، ولكنها تظل بهـــذه الحدود : جميلة ، وغنائية •••

ان قصائد محمد الماغوط قصيدة واحدة ، وموضوع محمد الماغوط موضوع واحد ، وهمومه ملموسة وضرورية ، والرؤيا الكونية للعالم وللاشياء تبدو تبعا لذلك قاصرة ، لا بمعنى انها غير جديرة بالاهتمام ، ولكنها تدور ، وهذه علة شحوبها ، دورات بطيئة في وعاء مستنفد ، بحثا عن الصورة الاكثر جدارة ، حتى ليشعر القارىء أمام قصيدة ما للشاعر ، بأنفاس القصائد التالية ، ولكن صوره بالتأكيد ستظل أبعد من التوقع • ( الفـــرح ليس مهنتي ، محمد الماغـوط ، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، دمشق ١٩٧٠ )

فوزي كريم

# قضايا ثقافية

جان - لوك غودار

## الاعلام والثورة :
## الجبهة الفنية والجبهة السياسية



رأينا أن الاصح ، سياسيا ، هو أن نجيء الى فلسطين * لا الى غيرها : كالموزامبيق ، أو كولومبيا والبنغال . فقد استعمرت الامبريالية الفرنسية والانكليزية الشرق الاوسط بشكل مباشر ( اتفاقيات سايكس ـ بيكو ) . نحن مناضلون فرنسيون . الاصح أن نجيء الى فلسطين لان وضعها معقد وفريد . ثمة تناقضات كثيرة ، والوضع أقل وضوحا منه في جنوب شرقي آسيا ، نظريا على الاقل .

ان مهماتنا ، بالنسبة الينا نحن الذين نكافح حاليا في السينما ، ما تزال نظرية . وهذا الكفاح ما يزال طريقة تفكيرنا في صنع الثورة . ان بيننا وبين القذيفة الاولى التي أطلقتها العاصفة عشرات السنين من التخلف .

---

* في هذه المقالة يتحدث جان ـ لوك غودار حول الفيلم الذي يهيئه عن المقاومة الفلسطينية بعنوان « حتى النصر » . والمقالة كتبها خصيصا للمجلة الشهرية التي تصدرها بالفرنسية منظمة « فتح » . وتنشر « مواقف » هنا ترجمتها الكاملة بالنص الحرفي .

يقول ماوتسي تونغ ان الرفيق المخلص يذهب حيث الصعوبات ، حيث التناقضات في أوج حدتها • نعم ، نقوم بالدعاية للقضية الفلسطينية • بالصور، والاصوات • بالسينما والتلفزيون • اذ نقوم بالدعايـة نطرح المشكلات على بساط التأمل • كل فيلم بساط طائر يقدر أن ينطلق في كل مكان • ولا سحر في المسألة • فهذا عمل سياسي • لا بـد من الدرس والبحث وتـجيلها ، وعرض نتيجتهما ( المونتاج ) على مكافحين اخرين • عرض نضال الفدائيين على اخوانهم العرب الذين يستغلهم أصحاب المصانع في فرنسا • تقديم المقاتلات في فتح لاخواتهن في حزب الفهود السود اللائي تطاردهن الـ ف• بي• آي• تمثيل الفيلم ، سياسيا • عرضه ، سياسيا • توزيعه سياسيا • هذا طويـل وصعب • وهو أن تحل كل يوم مشكلة ملموسة • العثـور على فدائي ، أو كادر ، أو مكافحة ، البحث معا حول كيفية تحويل كفاحهم الى صور وأصوات تقول لهم : « أريد أن أصورك وأنت تطلق الرصاصة الاولى للعاصفة » • معرفة أية صورة يجب وضعها أولا ، وأية صورة بعدها ، لكي يكتسب المجموع معنى ، معنى سياسيا ، ثوريا ، يعني أنه يساعد الثورة الفلسطينية التي تساعد الثورة العالمية • هذا كله طويل وصعب • يجب أن نعرف ما هي السينما •• وفتح ، والدعاية لفتح ، والتناقضات مع المنظمات الاخرى • فتح ، مثلا ، تناضل ضد الامبريالية الاميركية • لكن الامبريالية الاميركية هي « النيويورك تايمس » والـ « سي• بي• اس C. B. S. » • نحن نكافح ضد الـ « سي• بي• اس » • هناك صحافيون كثيرون يحسبون مخلصين، انهم يساريون ، ولا يناضلون ضد الـ « سي• بي• اس » و « النيويورك تايمز » • يعتقدون أنهـم يساعدون فتح ، بنشرهم مقالا في الصحافة البورجوازية • لكنهم هم لا يناضلون • ان فتح هي التي تناضل والتي تعمل • والمناضلون في فتح هم الذين يموتون • يجب أن يكون ذلك واضحا • يجب أن نكافح على جبهتين في الادب والفن • الجبهـة السياسية والجبهة الفنية ـ هذه هي المرحلة الحالية ، ولا بد من أن نتعلم حل التناقضات بين هاتين الجبهتين • ما نـزال نرى في الجريدة اليوميـة التي تصدرها فتح صورا فوتوغرافية كثيرة للقادة ولا نرى صورا كافية للمقاتلين • يجب أن نعرف مكان هذا التناقض ، وكيف نحله • ليست هذه مسألة فنية للاخراج • انها مسألة سياسية في الميدان الايديولوجي ( الصحافة ) • يجب أن نتعلم كيف نكافح العدو بالافكار ، لا بالبندقية وحسب • الحزب هو الذي يأمر البندقية ، لا العكس • وتعقيد الكفاح الفلسطيني مرتبط بصعوبة بنـاء الحزب ، هنا ( كما في فرنسا ) • ان فراده فتح ، حتى قبل السيطرة على قناة السويس ، هي أنها رفضت أن تسمي نفسها حزبا أو جبهة • هي أنها قالت للمسلم : « لا تترك أفكارك ، بل اترك تنظيمك والتحق بصفوفنا » • لا تحتاج فتح الى أن تكون ماركسية بالالفاظ ، ذلك أنها ثورية في الاعمال • انها تعرف أن الافكار تتغير خلال مسيرتها • وأنه بقدر ما ستطول هذه المسيرة الى تـل أبيب ، ستتغير الافكار وستتيح في السياق الاخير تهديم دولة اسرائيل •

جئنا الى هنا لندرس ، لنتعلم ، لنستخلص الامثولات ، ان أمكن ،لتسجيل هذه الامثولات ، لاذاعتها هنا بالذات ، وفي العالم • منذ سنة تقريبا جاء اثنان منا للاستقصاء لدى الجبهة الديموقراطية • ثم ذهب اخر الى فتح • قرأنا النصوص والبرامج • قررنا ، كماوين فرنسيين ، أن نصنع الفيلم مع فتح وعنوانه « حتى النصر » • تركنا للفلسطينيين خلال الفيلم أن يقولوا هم أنفسهم كلمة : « ثورة » • لكن العنوان الحقيقي للفيلم هو « مناهج الفكر والعمل في حركة التحرير الفلسطيني ••• » ودارت بيننا وبين رفقاء الجبهة الديموقراطية المناقشات نفسها التي تدور بين المناضلين في باريس • لا نتعلم شيئا • لا نحن ولا هم • الامر يختلف مع فتح • فمن الصعب الحديث مع قائد حول الصورة التي يجب تكوينها عن الثورة الفلسطينية والصوت الذي يجب أن يرافق هذه الصورة ( أو يعاكسها ) • لكن الايجابي هو هذه الصعوبة بالذات • فهي تطرح بشكل ملموس التناقض بين النظرية والممارسة : بين الجبهة السياسية والجبهة الفنية • حين وصلنا الى عمان قيل لنا : « ماذا تريدون أن تروا ؟ » أجبنا : « كل شيء » • رأينا الاشبال ، والميليشيا ، وقواعد الجنوب ، وقواعد الشمال والوسط • رأينا مدرسة الشهداء • رأينا مدرسة الكادرات ، والمراكز الطبية • ثم سئلنا : « ماذا تريدون الان أن تصوروا ؟ » فأجبنا « لا نعرف » • « كيف لا تعرفون ؟ » • كلا ، نريد أن ندرس ونتحدث معكم قليلا • ليس لديكم كثير من ذخيرة الكلاشينكوف والـ ار• بي• جي• ونحن ليس لدينا كثير من الصور والاصوات. الامبرياليون ( هوليود ) حطموها أو شوهوها • لذلك لا نستطيع أن نبددها • انها ذخيرة ايديولوجية ، وعلينا أن نعرف كيف نستخدمها لنقتل الافكار العدوة • لهذا نحتاج الى التحدث معكم • حسنا • مع من تريدون أن تتحدثوا ؟ » أجبنا : « أبو الحسن » لم نكن نعرف من هو ، لكننا قرأنا له مقالة في العدد الاول من مجلة « الفدائيون » • ولقد تحدث معنا • سياسيا • قال لنا مثلا : « ان جيش الشعب ليس أجهزة الرادار المتقنة الصنع • انه العشرة آلاف طفل بنظاراتهم وأجهزتهم اللاقطة » • هذه هي صورة ثورية • وسرعان ما لاحظنا أن الجيش المصري ليس جيش الشعب • فبدل العشرة آلاف طفل هناك عشرة آلاف مدرب سوفياتي •

## القذيفة قرب الاذن

قال أبو الحسن كذلك : يجب اطلاق القذيفة الاولى للعاصفة قرب آذان الفلاحين لكي يسمعوا صوت تحرير الارض • هذا هو صوت ثوري • وهذا هو النقاش الذي يتيح اقامة علاقات سياسية بين الصورة والصوت ، بدلا من صنع صور تحسب « واقعية » لكنها لا تريد أن تقول شيئا ، ولا تقول أي شيء اذ ليس لديها ما تقوله ، أو ليس لديها شيء تقوله لم نعرفه سابقا • وماذا يفيد تكرار ما عرفناه • انه في أية حال لا يفيد الثورة التي تبحث عن الجديد وراء

القديم · هذا يتطلب وقتا · هذا طويل وصعب · لكن ليس ثمة ما يبرر ألا يواجه فيلم عن الثورة الفلسطينية مصاعب هذه الثورة · لماذا سيعرض هذا الفيلم في التلفزيون الامريكي ؟ هل تراقب فتح برامج التلفزيون الامريكية ؟ كلا · انها لا تراقب حتى دور السينما في عمان · انها تراقب عمان · لكن ، كل مساء ، في الصالات المعتمة ، يعمل التعفن الامبريالي على تعمية الجماهير · لحسن الحظ ، تستطيع الان اللجنة المركزية ، بفضل أزمة حزيران ، أن تنبه الجماهير من جديد بواسطة الجريدة اليومية الناطقة باسمها · ان مسألة الاعلام الثوري مهمة جدا · نقول : السينما مهمة ثانوية للثورة بالنسبة الينا حاليا في فرنسا ، لكننا نقوم بنشاطنا الرئيسي في هذه المهمة الثانوية · رؤية التناقض بين هذه المهمة الثانوية والمهمة الرئيسية للثورة التي هي ، هنا ، الكفاح المسلح ضد اسرائيل ، رؤية التناقضات الاخرى بين السينما والمهمات الثانوية الاخرى للثورة الفلسطينية ، وملاحظة أن الثانوي يصبح رئيسيا في لحظة معينة ومكان معين : هذا ما نسميه الطرح السياسي لمسألة صنع فيلم سياسي · لا مقابلة حبش وحسب ، أو عرفات أو حواتمه · لا صور استعراضية وحسب ، للاشبال وهم يقفزون في النار ، لكن علاقات الصور وعلاقات الاصوات والعلاقات بين هذه وتلك هي التي تدل ، في الثورة الفلسطينية على العلاقات بين الكفاح المسلح والعمل السياسي ·

كل صورة ، كل صوت ، كل تآلف بين الصور والاصوات لحظات من علاقات القوة ، ومهمتنا تقوم في توجيه هذه القوى ضد قوى عدونا المشترك : الامبريالية ، أي وول ستريت ، البنتاغون ، اي · بي · ام · ، يونايتد آرتيست ·· الخ · نعتقد ، مثلا ، أن فتح ، أثناء أزمة حزيران ، فشلت في حقل الاعلام · عن أي شيء تكلمت ، فيما يتعلق بالبلدان الرأسمالية الاوروبية ، « التايمز » و « الايل ميساجيرو » و « اللوموند » و « الفيغارو » ؟ عن رد الجماهير على الاستفزازات الدامية التي قامت بها الرجعية الاردنية ؟ كلا · عن الدور الذي لعبته فتح في كيفية تحقيق هذا الرد سياسيا وعسكريا ؟ كلا · هذه الجرائد كلها ، بالاضافة الى التلفزيون والاذاعة في أوروبا الغربية أبرزت جورج حبش على حساب ياسر عرفات · ان مهمتنا كمناضلين ثوريين اعلاميا هي كذلك أن نحلل سبب مثل هذه الاحداث وكيفيتها · لم تكن الامبريالية تهدف وحسب الى شق وحدة الثورة الفلسطينية وحسب · وانما كانت تهدف كذلك الى أن تحرف اتجاه كفاحها التحريري في نظر الجماهير الانكليزية والفرنسية والايطالية ·· الخ ، وتوجه بذلك ضربة أخرى الى العناصر الثورية في هذه الجماهير ، التي تعتبر الثورة الفلسطينية ، شأن الثورة الفيتنامية ، خميرة ثمينة · انها لظاهرة خطرة كذلك ألا تترجم مقالة كمقالة أبو اياد في « حوار مع فتح » الى الفرنسية · قد تكون هذه انكسارات صغيرة ، لكن لا بد من الامانة الثورية لتحليلها كانكسارات : كفاح ، فشل ، فشل جديد ، كفاح جديد ، حتى النصر ، هذا هو منطق الشعب كما يقول الرفقاء الصينيون · هذا هو كذلك

منطق الشعب الفلسطيني في حركة تحرره الوطني بقيادة فتح • هذا ما نحاول أن نوضحه في فيلمنا ، في فيلمكم • أين سيعرض الفيلم ؟ هذا يتوقف على حالة الكفاح الراهنة • قد يعرض في ساحة احدى قرى لبنان الجنوبي • نعلق غطاء بين نافذتين ونعرض • أمام طلاب جامعة بيركلي • بين عمال مضربين في قرطبة أو ليون • في احدى مدارس آميلقار كابرال • يعني أنه سيعرض ، بشكل عام – أمام العناصر الواعية بين الجماهير • لماذا ؟ لانه يمثل قوى تمارس الكفاح •

## علاقات الصور

يجب اذن أن يكون استخدامه ممكنا ( لاجل قصير أو طويل ) من قبل عناصر أخرى في هذه القوى في ساعات كفاحها • أعني لحظة يكون مفيدا لكفاحها • لنأخذ مثلا : نعرض صورة عن فدائي يعبر النهر ، ثم صورة لاحدى المقاتلات في ميليشيا فتح ، تعلم اللاجئين في أحد المخيمات القراءة ، ثم صورة لشبل يتدرب • ما هي هذه الصور الثلاث ؟ انها مجموعة • ليس لاي منها قيمة بحد ذاتها • الا أن تكون قيمة عاطفية ، انفعالية ، أو فوتوغرافية • لكن ليست لها قيمة سياسية • ولكي تكون لها قيمة سياسية يجب أن تكون كل منها مرتبطة بالاخرى • ما يصبح مهما في هذه الحالة انما هو النظام الذي تبدو من خلاله هذه الصور الثلاث • ذلك أن هذه الصور أجزاء من كل سياسي ، والنظام الذي ترتب بموجبه هذه الصور يمثل الخط السياسي • نحن في خط فتح • هكذا نرتب هذه الصور الثلاث وفقا لهذا التسلسل : ١ – فدائي يمارس مهمته• ٢ – مناضلة تعلم في المدرسة • ٣ – أطفال يتدربون • هذا يعني : ١ – الكفاح المسلح • ٢ – العمل السياسي • ٣ – الحرب الشعبية الطويلة الامد•الصورة الثالثة هي نتيجة الصورتين الاولين •• المعادلة هي : الكفاح المسلح + العمل السياسي = الحرب الشعبية الطويلة الامد ضد اسرائيل • وهي كذلك : الرجل ( الذي يعلن الكفاح ) + المرأة ( التي تتحول ، تقوم بثورتها ) هما اللذان يلدان الطفل الذي سيحرر فلسطين : جيل النصر • لا يكفي أن نعرض « شبلا » أو زهرة ونقول : هذا هو جيل النصر • يجب أن نوضح لماذا وكيف • لا نقدر أن نعرض طفلا اسرائيليا بالطريقة ذاتها – الصور التي تنتج صورة طفل صهيوني ليست كصور الطفل الفلسطيني • والواقع أنه لا يجوز التحدث عن صور ، بل يجب التحدث عن علاقات الصور •

## خدم هوليود اللبنانيون

الامبريالية هي التي علمتنا أن ننظر الى الصور بحد ذاتها ، وجعلتنا نعتقد أن الصورة حقيقية • في حين أن التفكير البسيط يؤكد أن الصورة لا يمكن أن

تكون الا خيالية لانها ، على وجه التحديد ، صورة • انعكاس • كانعكاسك في المرآة • الحقيقي هو أولا أنت ، ثم العلاقة بينك وبين هذا الانعكاس الخيالي • الحقيقي بعد ذلك هو العلاقة التي تقيمينها بين هذه الانعكاسات المختلفة ، أو بين صورك المختلفة • تقولين ، مثلا : أنا جميلة ، أو أبدو تعبانة • لكن ماذا تعملين اذ تقولين ذلك ؟ لا شيء الا أنك تقيمين علاقة بسيطة بين انعكاسات عديدة • واحد تظهرين فيه مرتاحة ، واخر تظهرين فيه أقل ارتياحا • تقارنين ، أعني تقيمين علاقة ثم تنسحبين : أبدو تعبانة • صنع فيلم من الناحية السياسية هو اقامة هذا النوع من العلاقات ، سياسيا ، أعني حل مشكلة ما ، سياسيا • أعني بعبارات عمل وكفاح • وهكذا حين تحاول الامبريالية أن تجعلنا نعتقد بأن صور العالم حقيقية ( في حين أنها خيالية ) تمنعنا من عمل ما يجب أن نعمله : اقامة علاقات حقيقية ( سياسية ) فيما بين هذه الصور ، اقامة علاقة حقيقية ( سياسية ) بين صورة شبل يتدرب وصورة فدائيين يعبرون النهر • الواقع الثوري الوحيد هو الواقع ( السياسي ) لهذه العلاقة • وهو سياسي لانه يطرح مشكلة السلطة • وترابط الصور كما شرحناه يوضح أن السلطة هي في فوهة البندقية • الامبريالية تتمنى أن نكتفي بعرض فدائي يجتاز النهر ، أو فلاحة تتعلم القراءة ، أوأشبالا يتدربون • الامبريالية لا تعارض ذلك في شيء • انها تصنع كل يوم صورا من هذا النوع ( أو يصنعها لها عبيدها ) • وهي تذيعها كل يوم من الـ « بي • بي • سي • » ، في « اللايف » و « الاكسبريسو » ، و « دير شبيغل » • هناك من ناحية الاونروا ( من أجل المعدة ) ، ومن ناحية ثانية هوليود وخدمها السينمائيون اللبنانيون والمصريون ( من أجل الافكار والصور التي تعكس أفكارا ) • علمتنا الامبريالية الا نقيم علاقة بين الصور الثلاث التي تحدثت عنها ، أو لاقامتها لكن ضمن نظام خاص لا يشوش مخططاتها •

## الافكار والتناقضات

ومهمتنا نحن الذين نناضل حاليا في ميدان الاعلام المناهض للامبريالية هي أن نكافح ببسالة في هذا الميدان • أن نتحرر من قيود الصور التي تفرضها الايديولوجية الامبريالية عبر أجهزتها كلها : الصحافة ، الاذاعة ، السينما ، الاسطوانة ، الكتاب • انها مهمة ثانوية نجعل منها نشاطنا الرئيسي اذ نحاول حل التناقضات التي يتضمنها هذا الموضوع • فيما نكافح ، مثلا ، في هذه الجبهة الثانوية نصطدم غالبا برفقاء اخرين • لدى هؤلاء الرفقاء هنا ، في فتح ، مثلا ، أفكار سباقة وصحيحة عن الجبهة الرئيسية للكفاح المسلح ، وأفكار أقل صحة في الغالب عن الجبهة الثانوية للاعلام • المسألة بالنسبة الينا جميعا هي أن نتعلم حل هذا التناقض كجزء من التناقضات في صميم الشعب • لا تناقضات بيننا وبين العدو • صنع صور متناقضة هو السير قدما في طريق حل هذه

التناقضات • وهنا ، بعد أن طرحنا مشكلة انتاج سلسلة هذه الصور الثلاث ( لكي نأخذ المثل ذاته ) ، يمكنك أن تطرحي الان بشكل أكثر صحة وسياسية ، مشكلة نشر هذه الصور • ولان بين هذه الصور ( الخيالية ) علاقة حقيقية متناقضة ) ، فان الذين يشاهدونها ويستمعون اليها ستكون لهم كذلك علاقة حقيقية معها • ان رؤية الفيلم ستكون لحظة من حياتهم الحقيقية ، من واقعهم • الواقع السياسي هذه المرة • كفلاح مضطهد ، كعامل مضرب ، كطالب ثائر ، كفدائي يحمل الكلاشينكوف ••• هذا ما نريد قوله حين نقول : ليسقط الفيلم ، لتحي العلاقة السياسية ••

## الاسنان والشفاه

هكذا يمكن للادب والفن أن يصبحا ، كما أراد لينين ، لولبا حيا في آلية الثورة • الخلاصة اذن هي ألا نعرض فدائيا جريحا ، بل أن نعرض كيف أن هذا الجرح سيساعد الفلاح الفقير • والوصول الى هذه الغاية مسألة صعبة وطويلة ، لان الامبريالية ، منذ اختراع التصوير الفوتوغرافي ، صنعت أفلاما لتمنع الذين تضطهدهم من صنع أفلامهم هم • لقد صنعت صورا لاخفاء الحقيقة عن الجماهير التي تضطهدها • ان مهمتنا هي تهديم هذه الصور وهي أن نتعلم بناء صور أخرى ، أكثر بساطة لكي نخدم الشعب ، ولكي يستخدمها الشعب بدوره • أن نقول : هذا طويل وصعب ، هو أن نقول ان هذا الكفاح ( الايديولوجي )هو جزء من الحرب الطويلة الامد ضد اسرائيل ، التي يقودها الشعب الفلسطيني • وهو أن نقول من ناحية ثانية ان هذا الكفاح مرتبط بجميع الحروب التي تخوضها الشعوب ضد الامبريالية وحلفائها • مرتبط ارتباط الاسنان بالشفاه • ارتباط الام والطفل • ارتباط الارض الفلسطينية والفدائيين •••